الرسوليون والمماليك في الحجاز

٦٢٦-٨٥٨هـ/١٢٢٩-١٤٥٤م

إعداد الطالب:

حسن محمود حسن مقابلة

إشراف:

الأستاذ الدكتور يوسف حسن غوانمة

١٤٢٠هـ -٢٠٠٠م

الرسوليون والمماليك في الحجاز

٦٢٦-٨٥٨هـ/١٢٢٩-١٤٥٤م

إعداد الطالب:

حسن محمود حسن مقابلة

إشراف:

الأستاذ الدكتور يوسف حسن غوانمة

١٤٢٠هـ -٢٠٠٠م

الرسوليون والمماليك في الحجاز

٦٢٦-٨٥٨هـ/١٢٢٩-١٤٥٤م

إعداد الطالب:

حسن محمود حسن مقابلة

بكالوريوس تاريخ، جامعة اليرموك، ١٩٩٦م

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية بكلية الآداب، جامعة اليرموك.

لجنة المناقشة:

١- أ.د. يوسف غوانمة ....رئيساً ومشرفاً

٢- د. سليمان خرابشة ....عضواً

٣- د. نعمان جبران ....عضواً

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إنَّ أوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنّاسِ لَلَّذي بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَهُدىً للعالمين ﴾

سورة آل عمران الآية ٩٦

فهرس المحتويات

الاختصارات العربية

أ = اللوحة الأولى من ورقة المخطوطة فيكتب ق أ.

ب = اللوحة الثانية من ورقة المخطوطة فيكتب ق ب.

ت: توفي.

تح: تحقيق.

جـ: جزء.

ج.ي. د. ش: جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية.

د.ت: دون تاريخ النشر.

د.ن: دون دار نشر

د.م: دون مكان النشر.

س: السنة، بالنسبة للدوريات العربية.

ص: الصفحة.

ص ص: الصفحات: من ــ إلى .

ع: العدد، بالنسبة للدوريات العربية.

غم: غرام

ق: الورقة، بالنسبة للمصدر المخطوط باللوحتين أ،ب.

ق ق: الأوراق، من ــ إلى.

كم: كيلومتر.

م: ميلادي أو للقياس بالمتر.

مجـ: المجلد، بالنسبة للمصادر أو المراجع المتعددة أو الدوريات العربية.

هـ: هجري.

المقدمة

١- أهمية البحث ومنهج الدراسة

احتل الحجاز مكانة هامة في نفوس المسلمين على مرّ العصور، وكانت مصر تقوم بكسوة الكعبة في الفترات الإسلامية المختلفة، ولكن الحروب الصليبية شغلت الأيوبيين في مصر عن إرسال الكسوة، فأصبحت الكسوة ترسل من بغداد باسم الخليفة العباسي بصفته زعيم العالم الإسلامي. وبعد استيلاء الأيوبيين على مصر، ومجيء الرسوليين لحكم اليمن سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م، وسيطرتهم الكاملة على مقاليد الأمور فيها، حدث صراع قوي بينهما، للسيطرة على الحجاز ونتيجة لذلك فقد كان أحد الطرفين يخرج من مكة مع قدوم جيش الطرف الآخر، وهكذا كان هناك تبادل للمواقع بينهما.

وبعد قيام دولة المماليك في مصر سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م وسيطرتهم الكاملة على مقاليد الأمور فيها، عملوا على إحياء الخلافة العباسية بعد سقوطها على يد هولاكو سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، وقد أخذ الظاهر بيبرس على عاتقه هذه المهمة، وبهذا العمل قوي في نظرهم حقهم في حكم المناطق الإسلامية المحيطة بمصر والشام، وكان لانتصارهم على المغول في معركة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م أثره في رفع منزلتهم أمام المسلمين، فعملوا على أن تكون الأماكن المقدسة تحت نفوذهم، وخاصة الحجاز، ومن هنا كان لا بد من حدوث صدام بينهم وبين الرسوليين في اليمن الطامعين في ملك الحجاز، وفي دراستنا سنلقي الضوء على وضع الحجاز في ظل الدولتين الرسولية والمملوكية في الفترة من ٦٢٦-٨٥٨هـ/١٢٢٦-١٤٥٤م، وتتمثل أسباب اختيار الموضوع في الأمور التالية:-

١- التعرف على طبيعة العلاقات الرسولية المملوكية.

٢- دوافع سلطان اليمن في منافسة سلطان دولة المماليك في السيطرة على الحجاز.

٣- التعرف على المؤثرات الحضارية والثقافية في الحجاز خلال فترة الدراسة.

٤- موضوع الدراسة رغم أن بعض الباحثين قد تناولوه من جوانب مختلفة إلا أن الموضوع يستدعي مزيداً من الدراسة.

٥- التعرف على الآثار السلبية والخسائر الفادحة التي لحقت بالحجاز جراء التنافس على منصب الشرافة، وما هو دور الرسوليين والمماليك في ذلك .

٦- دراسة أحوال الحجاز من جميع الجوانب الإدارية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية في عصر دولة المماليك، وأثرهم في ذلك.

أما بالنسبة لمنهج الدراسة فقد قسمت الموضوع إلى مقدمة، وستة فصول، وخاتمة.

تناولت في المقدمة أهمية الدراسة ومنهجها وعرض لأهم المصادر المستخدمة.

أما الفصل الأول فكان دراسة تمهيدية جغرافية وتاريخية موجزة للحجاز في عصر دولة المماليك وقد تناولت فيه التسمية والطبوغرافية التاريخية والحدود الجغرافية للحجاز، ثم تعرضت للأهمية الاستراتيجية والدينية لبلاد الحجاز.

أما الفصل الثاني فقد خصصته للحديث عن الأحوال السياسية في الحجاز في العصرين الأيوبي والمملوكي، تحدثت فيه عن الأحوال السياسية في الحجاز في عهد كل من: الدولة الأيوبية، والدولة الرسولية، والدولة المملوكية.

وجعلت الفصل الثالث للحديث عن الصراع بين دولة المماليك والرسوليين في الحجاز، موضحاً الأسباب التي أدت لهذا الصراع، ونتائجه ثم أنهيته بالحديث عن دور أشراف مكة فيه.

أما الفصل الرابع فقد تناولت فيه الحديث عن الإدارة في الحجاز في عصر دولة المماليك، فتطرقت الدراسة إلى الوظائف الإدارية التي تشمل: إمارة مكة المكرمة، وإمارة المدينة المنورة، ونيابة السلطنة الحجازية، وناظر مدينة جدة، وناظر مدينة ينبع، ومتولي العمارة في الحرم (شاد العمارة). أما الوظائف الدينية فقد

اشتملت على: ناظر الحرم الشريف، والقضاة، ومشيخة الحرم الشريف، والخطابة، والتداريس، والمؤذنين، وخدام الحرمين، والحسبة، وناظر الأوقاف، وناظر الأربطة، وناظر الصدقات، وشيخ السدنة، وأنهيت هذا الفصل بالحديث عن الجيش في الحجاز في فترة الدراسة.

وخصصت الفصل الخامس للحديث عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الحجاز، ففي الحديث عن الحياة الاقتصادية، تعرضت الدراسة إلى التجارة وطرقها والمواسم التجارية، والمكوس، وموارد الدخل، والمعاملات المالية، والأزمات الاقتصادية، وتطرقت الدراسة إلى الزراعة في بلاد الحجاز. أما الحياة الاجتماعية فقد تحدثت في هذه الدراسة عن فئات المجتمع الحجازي وعاداته وتقاليده وملابسه وأطعمته وأشربته.

أما الفصل السادس والأخير فقد أفردته للحديث عن الحركة العلمية والثقافية في الحجاز، فتحدثت عن نشاط الحركة العلمية في بلاد الحجاز في عصر الرسوليين والمماليك ذاكراً بعض المؤسسات العلمية فيه كالمدارس والأربطة، وكان هناك جزء تطرقت فيه إلى إزدهار العلوم اللغوية والدينية كالحديث وعلم القراءات والفقه، والتصوف والقضاء، بالإضافة إلى الحركة الأدبية، والعلوم العقلية.

وفي نهاية الدراسة أجملت النتائج التي توصلت إليها في هذا البحث.

٢- عرض لأهم المصادر

اعتمدت في إعداد هذه الرسالة على عدد من المصادر المخطوطة والمطبوعة، وساعرض لأهمها، فمن الكتب المخطوطة التي رجعت إليها، كتاب العسجد المسبوك فيمن ولي اليمن مَن الملوك لعلي بن الحسين الخزرجي المتوفى سنة ٨١٢هـ/١٤٠٩م، وقد أمدني بمعلومات هامة عن الصراع الأيوبي الرسولي على الحجاز، وبعض الأسباب السياسية والدينية التي أدت للصراع المملوكي الرسولي.

وكذلك كتاب درة الأسلاك في دولة الأتراك لبدر الدين الحسن بن عمر بن حبيب المتوفى سنة ٧٧٩هـ/١٣٧٧م، وقد احتوى على معلومات هامة تتعلق بالأحوالّ السياسة في عصر المماليك والأسباب التي أدت للصراع المملوكي الرسولي ونتائجه.

ومن المصادر المطبوعة التي أفدت منها، كتاب تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار المسمى رحلة ابن جبير لمحمد بن أحمد بن جبير المتوفى سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م حيث أمدني بمعلومات عن الوضع السياسي للحجار في العصر الأيوبي، وعن المواسم التجارية وعن بعض المزروعات والأطعمه الحجازيه وكتاب السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك من الغُزّ باليمن لبدر الدين محمد بن حاتم اليامي المتوفى بعد سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م، وقد أمدني بمعلومات هامة عن مواقف أشراف مكة من الدولة الأيوبية باليمن منذ سنة ٦١٩هـ/١٢٢٣م، ومعلومات مفصلة عن الصراع بين الأيوبيين بمصر والرسوليين باليمن على إمارة مكة، وعن علاقة الدولة المملوكية بإمارة مكة في عهد الشريف محمد بن أبي نميّ.

كما زودني كتاب تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار المسمى رحلة ابن بطوطة للرحالة أبي عبد الله محمد بن بطوطة المتوفى سنة ٧٧٩هـ/١٣٧٧م بمعلومات جيدة ومفيدة عن الوظائف الإدارية في الحجاز، ومعلومات اقتصادية تتعلق بالمواسم التجارية وموارد الدخل ومعلومات إجتماعية

تتعلق بعادات وملابس واطعمة المجتمع الحجازي وفئاته، وعن المدارس الرسـولية في الحجاز.

أما كتاب تاريخ الدول والملوك لمحمد بن عبد الرحيم بن الفرات المتوفى سنة ٨٠٧هـ/١٤٠٤م فقد أمدني بمعلومات عن الأسباب الاقتصادية للصراع الرسـولي المملوكي ونتائجه، تضمن معلومات عن الحياة الاقتصادية تتعلق بالمواسم التجاريـة، والأزمات الاقتصادية، والزراعة في بلاد الحجاز، ومعلومات اجتماعية تتعلق بفئـات المجتمع الحجازي.

ورجعت إلى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر لعبد الرحمـن بـن خلـدون المتوفى سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٦م، حيث زودني بمعلومات عـن الأحـول السياسـية والإدارية وخاصة فيما يتعلق بإمارة مكة، واقتصادية تتعلق بموارد الدخل بالحجاز.

ومن المصادر التي اعتمدت عليها أيضاً كتاب العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية لعلي بن الحسين الخزرجي المتوفى سنة ٨١٢هـ/١٤٠٩م إذ أمد الدراسـة بمعلومات هامة ومتنوعة عن الأحوال السياسية في الحجاز في فترة حكم الرسوليين فيه، وعن الأسباب السياسية والإقتصادية والدينية التي أدت للصراع ونتائجه ووظيفة متولي العمارة(شادة العمارة في الحرم المكي)، ومعلومات اقتصادية تتعلق بالمكوس وموارد الدخل والأزمات الاقتصادية، ومعلومات اجتماعية تتعلق بفئـات المجتمـع الحجازي.

ومن الكتب التي أفادتني كتاب صبح الأعشى في صناعة الإنشا لشهاب الديـن أحمد بن علي القلقشندي، والمتوفى سنة ٨٢١هـ/١٤١٨م، وبه معلومات قيمة عـن تسمية الحجاز، وحدوده الجغرافية، والحالة السياسية في عصر المماليك، والأسـباب السياسية والاقتصادية والدينية للصراع الرسولي المملوكي، ودور الاشراف فيه وعن الوضع الإداري في الحجاز والمراسيم التي أصدرها السلاطين لتعييـن أصحـاب الوظائف الإدارية في مكة والمدينة وينبع وجـدة، ومعلومـات عـن الاقتصـادي والإداري والاجتماعي.

وزودتني مؤلفات تقي الدين الفاسي، المتوفى سنة ٨٣٢هـ/١٤٢٩م بمعلومات هامة تتعلق بفترة الدراسة، فقد زودني كتابه العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين بتفاصيل مهمة عن المنازعات السياسية بمكة وتطور علاقتها بدولة المماليك، بالإضافة إلى معلومات كثيرة عن الأحوال السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية المتعلقة بالحجاز خلال فترة الدراسة.

وأفادني كتابه شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام بمعلومات قيمة عن الأهمية الاستراتيجية للحجاز، وعن الأحوال السياسية فيه والأسباب التي أدت إلى الصراع المملوكي الرسولي عليه، ومعلومات شاملة عن النواحي الإارية والاقتصادية والإجتماعية والثقافية في الحجاز.

ورجعت إلى كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك لتقي الدين المقريزي المتوفى سنة ٨٤٥هـ/١٤٤٣م، حيث أمدني بمعلومات عن الأحوال السياسية في الحجاز، واسباب الصرع المملوكي، ودور أشراف مكه فيه كما أمدني بمعلومات إدارية تتعلق بالقضاء المؤذنون وناظر مدينة جدة واقتصادية تتعلق بالمواسم التجارية وموارد الدخل والأزمات الإقتصادية، والزراعة وإجتماعية تتعلق بفئات المجتمع الحجازي.

وأفادني كتاب الذهب المسبوك بذكر من حج من الخلفاء والملوك للمقريزي أيضا بمعلومات أفادتني في دراسة علاقة إمارة مكة بالدولتين الرسولية ودولة المماليك، كما أورد فيه معلومات عن حج سلاطين الدولة الرسولية مثل حجتي الملك المجاهد الرسولي، وحج سلاطين الدولة المملوكية مثل حج الظاهر بيبرس، وحجات السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الثلاث، بالإضافة إلى معلومات تتعلق بمحاولات هؤلاء السلاطين مد نفوذهم إلى الحجاز ومعلومات اقتصادية تتعلق بموارد الدخل.

ومن المصادر التي استفادت منها هذه الدراسة، كتاب أنباء الغمر بأنباء العمر لشهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢هـ/١٤٤٨م، حيث أمدني بمعلومات هامة عن الأوضاع السياسية والإدارية التي تتعلق بنيابة السلطنة الحجازية ونظر الأوقاف والأربطة.

كما يعتبر كتاب الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م، من المصادر الهامة التي زودتني بمعلومات هامة عن النواحي السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية في الحجاز في فترة الدراسة.

وكان كتاب أتحاف الورى بأخبار أم القرى لنجم الدين عمر بن فهد المتوفى سنة ٨٨٥هـ/١٤٨٠م، من أهم الكتب التي زودتني بمعلومات هامة عن الأحوال السياسية في الحجاز في عصر المماليك والرسوليين، والأسباب التي أدت للصراع بينهما ونتائجه، بالإضافة إلى معلومات قيمة عن الجوانب الإدارية والاقتصادية والإجتماعية والثقافية في الحجاز في فترة الدراسة.

ومن المصادر التي أفادتني في هذه الدراسة، كتاب الضوء اللامع لأهل القرن التاسع لشمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي المتوفى سنة ٩٠٢هـ/١٤٩٧م، حيث زودني بمعلومات عن الأحوال السياسية والوظائف الإدارية، واحتوى على تراجم لأشراف مكة وعلمائها وفقهائها وخطباء وقضاة الحجاز، ومعلومات عن نشاط الحركة العلمية في الحجاز في فترة الدراسة.

كما ضم كتاب التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة للسخاوي معلومات عن الأحوال السياسية في الحجاز في عصر المماليك وعن الوظائف الإدارية في عصرهم كذلك، كما أمدنا بمعلومات عن فئات المجتمع الحجازي والحياة الثقافية فيه.

واستفاد البحث من كتاب غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام لعبد العزيز بن فهد المتوفى سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م، فقد احتوى على معلومات تتعلق بالنواحي السياسية والإدارية والاقتصادية والثقافية في الحجاز.

وأخيراً فإني لا أدعي بأن الموضوع قد أخذ حقه من الدراسة ، فلا شك أن هناك جوانب لم يستطع الباحث تغطيتها أو الوصول إلى مصادرها، وهذا العمل إنما هو جهد طالب علم يخطو خطواته الأولى على طريق البحث العلمي، راجياً أن تتاح الفرصة لغيري لإتمام النقص الذي لم أستطع عمله.

وأخيراً أتقدم بالشكر الجزيل وعظيم الامتنان لأستاذي الأستاذ الدكتور يوسف غوانمة الذي كان لتوجيهاته الأثر الكبير في إخراج هذه الدراسة.

وأتقدم بالشكر الجزيل للدكتور سليمان خرابشة والدكتور نعمان جبران لتفضلهما بقراءة هذه الدراسة ومناقشتها وإثرائها بالملاحظات القيمة. وأتقدم بالشكر للدكتور داود المندعي الذي زودني بمجموعة من المصادر اليمنية. وأخيراً أتقدم بالشكر إلى كل من ساعدني في إتمام هذا البحث .

والله من وراء القصد.

الفصل الأول

الأهمية الجغرافية والتاريخية للحجاز

١- التسمية والطبوغرافية التاريخية والحدود الجغرافية للحجاز:-

أ- التسمية

ب- الطبوغرافية التاريخية

جـ- الحدود الجغرافية

٢- الأهمية الاستراتيجية والدينية للحجاز:-

أ- الأهمية الاستراتيجية

ب- الأهمية الدينية

الأهمية الجغرافية والتاريخية للحجاز

١- التسمية والطبوغرافية التاريخية والحدود الجغرافية للحجاز.

أ- التسمية:-

١- لغةً:

هي البلد المعروف، وسميت بذلك من الحجز الفصل بين الشيئين، لأنه فصل بين الغور والشام والبادية، وقيل لأنه حجز بين نجد والسراة، وقيل: لأنه حجز بين غور تهامة ونجد.[١]

٢- أما التسمية حسب آراء الجغرافيين العرب فهي:

ذكر ياقوت الحموي: هو جبَل ممتد حال بين الغور أي غور تهامة ونجد، ومنعهما من الإختلاط ببعضهما، فهو حاجز بينهما وسمي الحجاز حجازاً لأنه فصل بين الغور والشام وبين البادية.[٢]

واتفق معه في ذلك كل من ابن عبد الحق البغدادي[٣] والقلقشندي[٤]. وأما القزويني فقد اختلف معه فيَ ذلك، وذكر أن سبب تسميته بالحجاز لأنه حجز بين اليمن والشام.[٥]

---

(١) ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار الفكر - دار صادر، بيروت، ١٩٧٠م، ج٥، ص٣٣١ وسيشار إليه لاحقاً: ابن منظور، لسان العرب.

(٢) الحموي، ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٩٥م، ج٢، ص٢١٨ وسيشار إليه لاحقاً: الحموي، المعجم.

(٣) ابن عبد الحق البغدادي، صفي الدين بن عبد المؤمن، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق وتعليق : علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت ط ٣ ، ١٩٥٤م، ج١، ص٣٨١، وسيشار إليه لاحقاً: ابن عبد الحق البغدادي، مراصد الاطلاع.

(٤) القلقشندي: أحمد بن علي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، جـ٤، ٧ ، ١٢ شرحها وعلق عليها وقابل نصوصها: محمد حسين شمس الدين، جـ٨ تح: نبيل الخطيب، جـ٥،تح: يوسف الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م، جـ٤، ص ٢٥٢ وسيشار إليه لاحقاً : القلقشندي، صبح الأعشى.

(٥) القزويني: زكريا بن محمد، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، ١٩٦٩م، ص٨٤ وسيشار إليه لاحقاً: القزويني، آثار البلاد.

نستنتج مما سبق أن الحجاز هو جبل السراة الذي يمتد من حدود اليمن إلى بادية الشام فيحجز بين تهامة ونجد، وأن هذه التسمية الطبيعية قد استمدت جذورها التاريخية البعيدة حين اتضحت من البداية صورة هذا الحاجز الجبلي الممتد من اليمن إلى الشام فاصلاً بين مناطق متباينة طبيعياً. (١)

أما بالنسبة لموقع الحجاز وأهميته، فيقع الحجاز بين خطي عرض (٣٢:١٣°) شمال خط الاستواء، وبين خطي الطول (٣٤: ٦٠°) شرقاً، وهو أحد أقاليم شبه الجزيرة العربية، ويمتد الحجاز على طول ساحل البحر الأحمر(٢)، ولهذا الإقليم ميزة خاصة لدى المسلمين، وسبب ذلك لوجود الأماكن المقدسة فيه، ولوجود مدينتين مقدستين فيهما أقدس مقدسات المسلمين وهما: مكة التي توجد فيها الكعبة المشرفة، والمدينة المنورة التي يوجد فيها المسجد النبوي، وإلى هذين المكانين يأتي المسلمون لأداء فريضة الحج ومناسك العمرة، كما يتجهُ المسلمون إلى مكة كل يوم خمس مرات في صلواتهم.

ب- الطبوغرافية التاريخية.

يشكل الحجاز قطاعاً طولياً محاذياً لساحل البحر الأحمر، فهو يمتد من تبوك شمالاً إلى عسير جنوباً، ومن الرياض والقصيم وحائل ونجران شرقاً إلى ساحل البحر الأحمر غرباً. (٣)

وتعتبر سلسلة جبال السراة من أشد ظاهرات التضاريس في شبه الجزيرة العربية امتداداً وارتفاعاً، فهي تمتد جنوباً من ميناء العقبة الأردنية لمسافة تبلغ ١٧٦٠كم، وهي ضيقة في الشمال متسعة في الجنوب والوسط، ويتراوح عرضها

---

(١) رجب، عمر الفاروق، الحجاز أرضه وسكانه، دار الشروق للطباعة والتوزيع، جدة، ١٩٧٩م، ص٤٧ وسيشار إليه لاحقاً: رجب، الحجاز.

(٢) سيف، محمود محمد، جغرافية المملكة العربية السعودية، دار المعرفة الجامعية للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، ١٩٩٦م، ص١٠ وسيشار إليه لاحقاً: سيف، جغرافية المملكة.

(٣) سيف، جغرافية المملكة، ص ص ٤٨-٥٠، وأبو العلا، محمود طه، جغرافية شبه الجزيرة العربية، مؤسسة سجل العرب، مطابع سجل العرب، القاهرة، ١٩٧٢م، جـ١، ص ص ٣٥-٤٦ وسيشار إليه لاحقاً: أبو العلا، جغرافية شبه الجزيرة.

بين ١٢٠-٢٠٠كم، وتعني السراة الأرض المرتفعة وجمعها السروات، وأهمها سراة الحجاز أي جبال الحجاز، وأعلى قمة فيه تتمثل في جبل رضوى وارتفاعها ٢٠٤١م، وموقعها شمال شرق ميناء ينبع. (١)

وقد ساعدت الأودية العرضية التي تجري في هذه المرتفعات على سهولة الاتصالات بين الحجاز وداخل شبه الجزيرة العربية، الأمر الذي أدى إلى الازدهار والأهمية التجارية التي اشتهرت بهما مدينتا مكة والمدينة قبل الإسلام، كما يرجع إليهما الفضل في أسبقية الحجاز في التقدم الحضاري. (٢)

وقد نتج عن التكوين الطبيعي لهذه السلسلة تقسيم الحجاز من الوجهة الطبيعية إلى مناطق جغرافية هي:

- **المنطقة الساحلية الغربية**: وتسمى تهامة الحجاز، وتمتد على طول ساحل البحر الأحمر من الشمال إلى الجنوب مسافة قدرها ١١٠٠كم، وعرضها يختلف حيث يبلغ اتساعها عند ميناء رابغ وجنوب ميناء جدة من ٦٠-٧٠كم. (٣)

وهذا القسم مليء بالموانئ الحجازية التي تربط الحجاز بالعالم عن طريق البحر الأحمر، وأهمها من الجنوب إلى الشمال: القنفذة، والليث، وجدة، ورابغ، وينبع، وأملح الوجه، وضبا، والمويلح، وحقل، وأكثر هذه المنطقة رملي شديدة الحرارة. (٤)

---

(١) سيف، جغرافية المملكة، ص ص٤٨-٥٠؛ أبو العلا، جغرافية شبه الجزيرة، جـ١، ص ص٣٥-٤٦.

(٢) سيف، جغرافية المملكة، ص٥٠.

(٣) حسين، جميل حرب، الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، دار تهامة للطباعة والتوزيع، الكتاب الجامعي (٣٠)، السعودية -جدة ، ط١، ١٩٨٥م، ص ص ١١٩-١٢٤ وسيشار إليه لاحقاً: حسين، الحجاز واليمن؛ سيف، جغرافية المملكة، ص٤٨.

(٤) حمزة، فؤاد، قلب الجزيرة العربية، مكتبة النصر الحديثة، الرياض، ط٢، ١٩٦٨م، ص١٨، وسيشار إليه لاحقاً: حمزة، قلب الجزيرة.

ويزرع بهذا القسم الذرة والقطن والقمح والشعير والفواكه والخضروات، وذلك حسب موارد المياه المتاحة، ومناخه حار رطب قليل الأمطار ومعدل الحرارة السنوي فيه ٣٢°م. (١)

- **منطقة الهضاب والنجود:** وتمتد من الشمال إلى الجنوب محاذية لمنطقة تهامة الساحلية بمساحة عرضها من الغرب إلى الشرق ٣٣٢كم، ويبلغ معظم ارتفاع هذه الهضاب ٦٥٠م، وأهمها: هضبة حسمى، والحجاز، ونجد والحرات، ويتخللها الجبال على شكل تتوازى فيه حيناً وتتقاطع أحياناً أخرى، حيث تخترقها الوديان الطويلة، مما سمح بإقامة بعض القرى في الواحات الضيقة في السفوح الشرقية والغربية وفي الأودية بين الجبال وفي هذه المنطقة، تقع مدينة مكة المكرمة. (٢)

- **المناطق الجبلية المرتفعة:** وتقع شمال الحجاز، وتسمى بأرض مدين وحسمى نسبة إلى الجبال المسماة بهذا الاسم، وتتخذ شكل مثلث رأسه في الشمال عند جبل مبارك قرب العقبة الأردنية وقاعدته في الجنوب، وأهم جبالها هي: جبل الشفا، والرغامة، وتوجد بجبال مدين عدة قمم جبلية. (٣)

وهي كثيرة الحرار البركانية التي تمثل أحد مظاهر السطح الرئيسية بالحجاز، وبها مناطق بركانية تدعى اللابة أو اللوبة، وتسيل أودية الحجاز فيها، ومناخ هذه

---

(١) أبو العلا، جغرافية شبه الجزيرة، جـ١، ص٣٧؛ حمزة، قلب الجزيرة، ص ص١٨-١٩؛ سيف، جغرافية المملكة، ص٤٧.

(٢) الفوزان، إبراهيم الفوزان، إقليم الحجاز وعوامل نهضته الحديثة، الرياض، ١٩٨١م، ص ص ٢٠-٢١ وسيشار إليه لاحقاً: الفوزان، إقليم الحجاز؛ سيف، جغرافية المملكة، ص ص ٥١-٥٣؛ حمزة، قلب الجزيرة، ص١٨؛ الغنيم، عبد الله يوسف، جزيرة العرب من كتاب المسالك والممالك لأبي عبيد البكري، ذات السلاسل للطباعة، الكويت، ١٩٧٧م، ص١١١ وسيشار إليه: الغنيم، جزيرة العرب من كتاب المسالك والممالك لأبي عبيد البكري؛ أبو العلا، جغرافية شبه الجزيرة، جـ١، ص٤٤.

(٣) الشريف، أحمد إبراهيم، دور الحجاز في الحياة السياسية العامة في القرنين الأول والثاني للهجرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٢، ١٩٧٧م، ص٦ وسيشار إليه لاحقاً: الشريف، دور الحجاز؛ أبو العلا، جغرافية شبه الجزيرة، جـ١، ص٤١؛ سيف، جغرافية المملكة، ص٤٩.

المنطقة معتدل في الشرق، وتكثر فيها الأشجار في سفوح الجبال والأودية والسهول، وأهم المدن الواقعة ضمن هذه المنطقة تيماء وخيبر والطائف. (١)

يتميز مناخ الحجاز بالتنوع، فتتسم المناطق الساحلية في الشرق والغرب بشدة الحرارة في الصيف مع ارتفاع نسبة الرطوبة، فنجد المناطق المرتفعة عن سطح البحر التي تقع في سلسلة جبال الحجاز معتدلة المناخ، على حين ترتفع الحرارة نهاراً وتعتدل ليلاً في المناطق الوسطى لتعرضها للرياح المصحوبة زمن الشتاء بالأمطار، وأما في الخريف فتهب عليها الرياح الموسمية التي تؤدي إلى سقوط كمية محدودة من الأمطار. (٢)

وعلى هذا نجد أن مناطق الحجاز تختلف من الناحية الطبيعية، فهناك مناطق جدباء شديدة الحرارة، تحوطها الجبال مثل مكة، ومناطق أخرى تجود فيها التربة، وتنزل الأمطار فيها بغزارة مثل الطائف والمدينة المنورة والوديان التي بين مكة وجدة. (٣)

---

(١) الشريف، دور الحجاز، ص ص٦-٧؛ حمزة، قلب الجزيرة، ص١٨، ٥٨-٥٩؛ رجب، الحجاز، ص١١٧، (الحرار : هي عبارة عن أرض بركانية يقال لها اللابة أو اللوبة، وقد تكونت من قبل البراكين ، وتتميز بأنها أرض ذات حجارة سوداء نخرة كأنها أحرقت بالنار، ومن هذه الحرار تسيل أودية الحجاز صوب الشرق والغرب إلى نجد من ناحية ، وإلى تهامة فبحر القلزم من ناحية أخرىن وأهم هذه الحرار حرة خيبر (ياقوت، معجم البلدان، مج ٢ ، ص ٢٤٥ ، الشريف، دور الحجاز، ص ٦ ، رجب، الحجاز ، ص ١١٧).

(٢) رجب، الحجاز، ص ص ١٢٧-١٢٨؛ أبو العلا، جغرافية شبه الجزيرة، جـ١، ص ص٤٧-٤٩.

(٣) محمد، صبحي عبد المنعم، العلاقات بين مصر والحجاز زمن الفاطميين والأيوبيين، العربي للطباعة والنشر والتوزيع، (د.م)، ١٩٩٢م، ص٧ وسيشار إليه لاحقاً: محمد، العلاقات بين مصر والحجاز؛ الشريف، دور الحجاز، ص٨.

جـ- الحدود الجغرافية:

اختلف الجغرافيون على تحديد الحجاز جغرافياً وإدارياً، بينما اتفقوا علـى أن الحجاز هو جبل السراة الذي يمتد من حدود اليمن إلى بادية الشام، واعتمدوا في تحديدهم هذا على طبيعة المكان ومظاهره الجغرافية البارزة. (١)

وقد حدد الجغرافيون العرب الحجاز جغرافياً، فالحد الشمالي لهذا الإقليم يبلـغ أطراف الشام، ووردت إشارة إلى ذلك عند البكري بأن جبال الشورى الواقعة علـى مرحلة من أيلة (العقبة) فصل ما بين أرض الحجاز وأرض الشام، وقال: (هي جبال منيفة وفيها قرى وثمار غزيرة)؛ وهذا يعني أن هذه الجبال هي الحاجز الطبيعي بين الشام والحجاز. (٢)

وأما الحدود الجنوبية للحجاز، فقد ذكر البكري أنها من قبل نجد ذات عـرق، وأن ذات عرق فصل ما بين تهامة ونجد والحجاز. (٣)

أما حدوده الشرقية، فقد أورد الهمداني أشارة إلى أن ما احتجز به في شـرقية من الجبال وانحدر إلى ناحية فيد وجبلي طي إلى المدينة وراجعاً إلى أرض مذحـج عن تثليث وما دونها إلى ناحية فيدَ حجازاً، والظاهر أن هناك صعوبة فـي تحديـد الحجاز من الشرق لتضارب آراء الجغرافيين العرب فيه. (٤)

---

(١) الهمداني، الحسن بن أحمد، صفة جزيرة العرب، قام بنشره ومراجعته وتصحيحه وتحقيقه: محمد النجـدي، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٥٣م، ص٥٨ وسيشار إليه لاحقاً: الهمداني: الصفة؛ رجب، الحجاز، ص٤٧.

(٢) الغنيم، جزيرة العرب من كتاب المسالك والممالك لأبي عبيد البكري، ص٩٧، (والمرحلة : هي المنزلـة يرتحل منها، وما بين المنزلتين مرحلة ، (ابن منظور ، لسان العرب، مج ٢ ، ص ٢٨٠).

(٣) أبي عبيد البكري، عبد الله بن عبد العزيز، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، حققه وضبطـه: مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت، ط٣، ١٩٨٣م، مجـ٢ جـ١، ص١٠ وسيشار إليه لاحقاً: أبـو عبيـد البكري، معجم ما استعجم؛ الحموي، المعجم، مجـ٢، ص٢٠٥؛ الوهيبي، عبد الله، الحجـاز كمـا حـدده الجغرافيون العرب، مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض، الرياض، مجـ١، س١، ١٩٧٠م، ص ص ٥٣ -٧٠ وسيشار إليه لاحقاً: الوهيبي، الحجاز.

(٤) الهمداني، الصفة، ص ص ٤٩-٥٠؛ العلي، صالح أحمد، الحجاز في صدر الإسـلام، مؤسسـة الرسـالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٠م، ص٧٣ وسيشار إليه لاحقاً: العلي، الحجاز (فيـد: بليـدة فـي نصف طريق مكة من الكوفة (الحموي، المعجم، مجـ٤، ص٢٨٢)، وتثليث: موضع بالحجاز قرب مكـة، ويوم تثليث من أيام العرب بين بني سليم ومراد، الحموي، المعجم، مجـ٢، ص١٥).

وذكر البكري أن حد الحجاز الغربي تهامة وبدر والسقيا ورهاط وعكاظ. (١)

وأما تحديد المقدسي للحجاز، فيعطينا فكرة كاملة عن المدن التي كانت تتبع الحجاز في عصره، وهو ما يطلق عليه التقسيم الإداري للحجاز فيذكر أن مكة هي قصبة الحجاز، ومن أهم مدنها يثرب وينبع وخيبر وجدة والطائف والمروة والجار والحوراء. (٢)

أما في العصر المملوكي، فقد حددت الحجاز إداريا بثلاثة أقسام وهي:

أولها: مكة، وأهم قراها ومخاليفها: جدة والطائف وعسفان. (٣)

ثانيها: المدينة المنورة، وأهم قراها ومخاليفها: خيبر وفدك والجار ووادي القرى. (٤)

---

(١) البكري، معجم ما استعجم، مجـ٢، جـ١، ص١٠-١١، (السقيا: قرية جامعة من عمل الفرع، وهي من أسافل أودية تهامة (الحموي، المعجم، مجـ٣، ص١٠٧، ٢٢٨؛ رهاط: هو جبل قرية يقال لها رهاط، بقرب مكة على طريق المدينة (الحموي ، المعجم، مجـ٣ ، ص ١٠٧)؛ عكاظ: نخل في وادي قريب من الطائف ومكة، وكانت تقام به سوق العرب في الجاهلية، وبه كانت أيام الفجار (الحموي، المعجم، مجـ٤، ص١٤٢).

(٢) المقدسي، محمد بن أحمد، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩١م ص٦٩ وسيشار إليه لاحقاً: المقدسي، أحسن التقاسيم. (المروة: جبل بمكة يعطف على الصفا، مائل إلى الحمرة، يقع في وسطها وعليه منازل أهلها (الحموي، المعجم، مجـ٥، ص١١٦؛ الجار: مدينة على ساحل بحر القلزم بينهما وبين المدينة يوم وليلة، وهي فرضة ترفأ إليها السفن من أرض الحبشة ومصر وعدن والسهند (الحموي، المعجم، مجـ٢، ص ص ٩٢-٩٣)؛ الحوراء: كورة في الحجاز، وتقع على البحر الشرقي للقلزم، وهي مرفأ سفن مصر إلى المدينة المنورة (الحموي، المعجم، مجـ٢، ص٣١٦).

(٣) ابن فضل الله العمري، أحمد بن يحيى، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، دراسة وتحقيق: دورتيا قرانولسكي، المركز الإسلامي للبحوث، بيروت، ١٩٨٥م، ص١٢٥ وسيشار إليه لاحقاً: ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار؛ القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٤، ص ص٢٦٣-٢٦٦؛ (عسفان: منهلة من مناهل الطريق بين الجحفة ومكة، وهي قرية جامعة بها منبر ونخل ومزارع وهي حد تهامة (الحموي، المعجم، مجـ٤، ص ص١٢١-١٢٢).

(٤) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ص ص١٢٥-١٢٦؛ القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٤، ص ص٢٩٤-٢٩٧؛ (فدك: قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان، وفيها عين فوارة ونخل كثير (الحموي، المعجم، مجـ٤، ص٢٣٨)؛ وادي القرى: هو وادي بين المدينة والشام، من أعمال المدينة كثير القرى (الحموي، المعجم، مجـ٥، ص٣٤٥).

ثالثها: نيابة ينبع. (١)

ثانياً: الأهمية الاستراتيجية والدينية.

أ- الأهمية الاستراتيجية.

حظيت منطقة الحجاز بأهمية استراتيجية خاصة منذ أقدم العصور بما حباها الله به من موقع متميز، فهي تشكل أحد أجزاء شبه الجزيرة العربية، فهي تشغل مكاناً وسطاً بين بلاد الشام واليمن ومصر. وكانت قصبتها مكة في واد غير ذي زرع(٢) قاحلة، وبها الكعبة التي كانت تؤمها القبائل العربية لزيارة أصنامهم الموجودة حولها، فاستغلت قبيلة قريش موسم الحج واستفادت منه مادياً، ثم نظمت تجارتها فكانت رحلتا الشتاء والصيف اللتان ذكرهما القرآن الكريم(٣)، فازدهرت التجارة بالحجاز ومدنه، فساعدهم ذلك على استمرارهم بالعيش فيه(٤).

كما ارتبطت مكة مع الدول المحيطة بشبكة من المسالك والطرق التي تعبرها تجارة العالم في البحر الأحمر والخليج العربي، وتحملها القوافل التجارية إلى الشام واليمن ومصر والعراق، ولأهميتها الدينية عبر حقب التاريخ منذ أيام سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل تهافت عليها جميع العرب للحج إليها، وترتب على ذلك أن أصبحت هذه البلاد بوتقة انصهرت فيها عبر حقب التاريخ ديانات متعددة، تركت آثاراً واضحة متناثرة بالمنطقة، من آثار وثنية ومسيحية وإسلامية ترجع إلى فترات زمنية متعاقبة. (٥)

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ١٢، ص ص٢٥٧-٢٥٩.

(٢) انظر: الآية ٣٧ من سورة إبراهيم.

(٣) أنظر: سورة قريش من الآية ١-٤.

(٤) العمادي، محمد حسن، التجارة وطرقها في الجزيرة العربية بعد الإسلام حتى القرن ٤هـ، مؤسسة حمادة للطباعة والنشر والتوزيع، إربد، ١٩٩٧م، ص ص ٤٩-٥١، وص٥٦، ٦٠ وسيشار إليه لاحقاً: العمادي: التجارة وطرقها.

(٥) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تح: يوسف داغر، دار الأندلس، بيروت، ١٩٧٣م، جـ٢، ص ص١٨-١٩ وسيشار إليه لاحقاً: المسعودي، مروج الذهب؛ بيضون، إبراهيم، الحجاز والدولة الإسلامية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٣م، ص ص ٥٨-٨٤ وسيشار إليه لإحقاً: بيضون، الحجاز؛ العمادي، التجارة وطرقها، ص ص٦٠-٦٤.

كما أصبح الحجاز مركزاً للديانة الجديدة وهي الإسلام الذي انتشر منها إلى جميع بقاع المعمورة، مما أدى إلى استتباب الأمن والأمان، وأصبح موسم الحج سوقاً تجارياً دائماً، واستفاد منه تجار الحجاز خاصة وتجار شبه الجزيرة عامة. (١)

ولتمتع الحجاز بأهمية استراتيجية وسياسية، فقد أمه الساخطون على الدولة الإسلامية عبر عصورها، يؤلبون قلوب العامة على الخلفاء وولاتهم بدعوة خروجهم على السلطة المركزية في عاصمة الخلافة. (٢)

وكانت موانئ الحجاز الكثيرة المطلة على البحر الأحمر والخليج العربي مطمعاً للكثيرين، فالذي يسيطر عليها يتحكم بقوافل الحج الشامي والمصري والعراقي واليمني، لما يتحصل منها من ضرائب على التجارة والحجاج، مما أثرى سلاطين مصر والشام. (٣)

واهتم الفاطميون والأيوبيون ثم المماليك بأمر الحجاز لأسباب سياسية واقتصادية واستراتيجية، وقد دخل أشراف مكة في طاعة الأيوبيين، ونتيجة لذلك قام الأيوبيون بواجبهم في حماية الأراضي المقدسة من اعتداءات الصليبيين وخصوصاً حملات أرناط إلى الحجاز (٤)، وبلغ النفوذ الأيوبي ذروته بالحجاز عندما تدخلوا في ظروف النزاع بين الأخوة على منصب الإمارة في مكة. (٥)

---

(١) العلي، الحجاز ص ص ٧-١٦.

(٢) وأول تلك الثورات، ثورة المدينة في وجه الجيش الشامي لأخذ البيعة ليزيد بن معاوية في سنة ٥١هـ / ٦٧١م. (بيضون، الحجاز، ص ص٢٧٠-٣٠٩).

(٣) الفاسي، تقي الدين محمد بن علي، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، حقق أصوله وعلق عليه: لجنة من كبار العلماء والأدباء، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، جـ٢، ص١٩٧ وسيشار إليه لاحقاً: الفاسي، شفاء الغرام؛ المالكي، سليمان عبد الغني، بلاد الحجاز منذ بداية عهد الأشراف حتى سقوط الخلافة العباسية في بغداد، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ١٩٨٣م، ص٢٣ وسيشار إليه لاحقاً: المالكي، بلاد الحجاز.

(٤) غوانمة، يوسف حسن، أمارة الكرك الأيوبية، دار الفكر، عمان، ط٢، ١٩٨٢م، ص ص ١٢٣-١٣٦ وسيشار إليه لاحقاً: غوانمة، أمارة الكرك.

(٥) ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، جـ١-٣ تح: جمال الدين الشيال، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٧٧م، جـ١، ص٣٩٦ وسيشار إليه لاحقاً: ابن واصل، مفرج الكروب؛ محمد، العلاقات بين مصر والحجاز، ص ص١٤٨-١٦٠؛ المالكي، بلاد الحجاز، ص١١.

وتمتع الحجاز بأهمية استراتيجية كبيرة لدى سلاطين المماليك في النـــــاحيتين السياسية والاقتصادية، فقد كانوا يرسلون الجند مع قوافل الحج لحمايتها ونشر الأمن في الحجاز، ورفعوا أعلامهم على جبل التعريف، ودعي لهم علـــى جبـــل عرفـــة، وتنافسوا في ذلك مع ملوك وسلاطين الدول المجـــاورة، وخاصـــة ملـــوك الدولـــة الرسولية في اليمن. (١)

كما عنوا بالناحية الاقتصادية عناية فائقة حيث منحوا تجار اليمـــن ومصـــر وبلاد الشام والمشرق امتيازات كبيرة مما حدا بهم إلى الرسوّ في موانئ الحجـــاز، واستحدثوا وظيفة ناظر جدة ونيابة ينبع، وكان هدفهم السيطرة على تجارة المشـــرق وأصبحوا وسطاء التجارة الدولية آنذاك وقد أدى ذلك إلى إثرائهم وزيادة أموالهم. (٢)

ب- الأهمية الدينية

كان الحجاز مركز الديانة الوثنية قبل الإسلام، وكان يوجد حول الكعبة مئتـــان وستون صنماً تخص جميع قبائل الجزيرة العربية، والتي كانت تقوم بزيارة الكعبـــة للتبرك بأصنامها، فأفادت قريش من ذلك دينياً وأدبياً، فأصبغت على نفسها صبغـــة التقديس. (٣)

وازدادت أهميته الدينية، بمولد الرسول محمد ﷺ، حيث أعلن الدعوة الإسلامية به، ومنه انتشرت إلى كافة بقاع الدنيا، وأسس به دولة إسلامية عاصمتـــها المدينـــة المنورة في العهدين النبوي والراشدي. (٤)

---

(١) انظر: الفصل الثالث: الصراع بين المماليك والرسوليون في بلاد الحجاز (جبـــل عرفـــة : هـــو الجبـــل المشرف على بطن عرفة ، وعرفة قرية فيها مزارع وخضر ومباطخ وبها دور حسنة لأهل مكة ينزلونـــها يوم عرفة، وبها سقايات وحياض وعلمٌ قد بنى يقف عنهد الإمام (ياقوت، معجم البلدان ، مـــج٤، ص ص ١٠٤-١٠٥).

(٢) انظر: الفصل الرابع: الإدارة في الحجاز في عصر دولة المماليك .

(٣) علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، مكتبة النهضة – بغـــداد، ١٩٧٠م، جـــ٦، ص٤٣٦ وسيشار إليه لاحقاً: علي، المفصل؛ العمادي، التجارة وطرقها، ص٣٠.

(٤) خياط، خليفة، تاريخ خليفة، تح: أكرم العمري، مطبعة الكتبي، دار العلم – دمشق، دار الرسالة – بـــيروت، ط٢، ١٩٧٧م، ص ص٥٢-٥٦ وسيشار إليه لاحقاً: خياط، تاريخ؛ علي، المفصل، جـــــ٤، ص ص١٥٨-١٥٩.

المقدمة

١- أهمية البحث ومنهج الدراسة

احتل الحجاز مكانة هامة في نفوس المسلمين على مرّ العصور، وكانت مصر تقوم بكسوة الكعبة في الفترات الإسلامية المختلفة، ولكن الحروب الصليبية شغلت الأيوبيين في مصر عن إرسال الكسوة، فأصبحت الكسوة ترسل من بغداد باسم الخليفة العباسي بصفته زعيم العالم الإسلامي. وبعد استيلاء الأيوبيين على مصر، ومجيء الرسوليين لحكم اليمن سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م، وسيطرتهم الكاملة على مقاليد الأمور فيها، حدث صراع قوي بينهما، للسيطرة على الحجاز ونتيجة لذلك فقد كان أحد الطرفين يخرج من مكة مع قدوم جيش الطرف الآخر، وهكذا كان هناك تبادل للمواقع بينهما.

وبعد قيام دولة المماليك في مصر سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م وسيطرتهم الكاملة على مقاليد الأمور فيها، عملوا على إحياء الخلافة العباسية بعد سقوطها على يد هولاكو سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، وقد أخذ الظاهر بيبرس على عاتقه هذه المهمة، وبهذا العمل قوي في نظرهم حقهم في حكم المناطق الإسلامية المحيطة بمصر والشام، وكان لانتصارهم على المغول في معركة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م أثره في رفع منزلتهم أمام المسلمين، فعملوا على أن تكون الأماكن المقدسة تحت نفوذهم، وخاصة الحجاز، ومن هنا كان لا بد من حدوث صدام بينهم وبين الرسوليين في اليمن الطامعين في ملك الحجاز، وفي دراستنا سنلقي الضوء على وضع الحجاز في ظل الدولتين الرسولية والمملوكية في الفترة من ٦٢٦-٨٥٨هـ/١٢٢٦-١٤٥٤م، وتتمثل أسباب اختيار الموضوع في الأمور التالية:-

١- التعرف على طبيعة العلاقات الرسولية المملوكية.

٢- دوافع سلطان اليمن في منافسة سلطان دولة المماليك في السيطرة على الحجاز.

٣- التعرف على المؤثرات الحضارية والثقافية في الحجاز خلال فترة الدراسة.

٤- موضوع الدراسة رغم أن بعض الباحثين قد تناولوه من جوانب مختلفة إلا أن الموضوع يستدعي مزيداً من الدراسة.

٥- التعرف على الآثار السلبية والخسائر الفادحة التي لحقت بالحجاز جراء التنافس على منصب الشرافة، وما هو دور الرسوليين والمماليك في ذلك .

٦- دراسة أحوال الحجاز من جميع الجوانب الإدارية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية في عصر دولة المماليك، وأثرهم في ذلك.

أما بالنسبة لمنهج الدراسة فقد قسمت الموضوع إلى مقدمة، وستة فصول، وخاتمة.

تناولت في المقدمة أهمية الدراسة ومنهجها وعرض لأهم المصادر المستخدمة.

أما الفصل الأول فكان دراسة تمهيدية جغرافية وتاريخية موجزة للحجاز في عصر دولة المماليك وقد تناولت فيه التسمية والطبوغرافية التاريخية والحدود الجغرافية للحجاز، ثم تعرضت للأهمية الاستراتيجية والدينية لبلاد الحجاز.

أما الفصل الثاني فقد خصصته للحديث عن الأحوال السياسية في الحجاز في العصرين الأيوبي والمملوكي، تحدثت فيه عن الأحوال السياسية في الحجاز في عهد كل من: الدولة الأيوبية، والدولة الرسولية، والدولة المملوكية.

وجعلت الفصل الثالث للحديث عن الصراع بين دولة المماليك والرسوليين في الحجاز، موضحاً الأسباب التي أدت لهذا الصراع، ونتائجه ثم أنهيته بالحديث عن دور أشراف مكة فيه.

أما الفصل الرابع فقد تناولت فيه الحديث عن الإدارة في الحجاز في عصر دولة المماليك، فتطرقت الدراسة إلى الوظائف الإدارية التي تشمل: إمارة مكة المكرمة، وإمارة المدينة المنورة، ونيابة السلطنة الحجازية، وناظر مدينة جدة، وناظر مدينة ينبع، ومتولي العمارة في الحرم (شاد العمارة). أما الوظائف الدينية فقد

اشتملت على: ناظر الحرم الشريف، والقضاة، ومشيخة الحرم الشريف، والخطابة، والتداريس، والمؤذنين، وخدام الحرمين، والحسبة، وناظر الأوقاف، وناظر الأربطة، وناظر الصدقات، وشيخ السدنة، وأنهيت هذا الفصل بالحديث عن الجيش في الحجاز في فترة الدراسة.

وخصصت الفصل الخامس للحديث عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الحجاز، ففي الحديث عن الحياة الاقتصادية، تعرضت الدراسة إلى التجارة وطرقها والمواسم التجارية، والمكوس، وموارد الدخل، والمعاملات المالية، والأزمات الاقتصادية، وتطرقت الدراسة إلى الزراعة في بلاد الحجاز. أما الحياة الاجتماعية فقد تحدثت في هذه الدراسة عن فئات المجتمع الحجازي وعاداته وتقاليده وملابسه وأطعمته وأشربته.

أما الفصل السادس والأخير فقد أفردته للحديث عن الحركة العلمية والثقافية في الحجاز، فتحدثت عن نشاط الحركة العلمية في بلاد الحجاز في عصر الرسوليين والمماليك ذاكراً بعض المؤسسات العلمية فيه كالمدارس والأربطة، وكان هناك جزء تطرقت فيه إلى إزدهار العلوم اللغوية والدينية كالحديث وعلم القراءات والفقه، والتصوف والقضاء، بالإضافة إلى الحركة الأدبية، والعلوم العقلية.

وفي نهاية الدراسة أجملت النتائج التي توصلت إليها في هذا البحث.

٢- عرض لأهم المصادر

اعتمدت في إعداد هذه الرسالة على عدد من المصادر المخطوطة والمطبوعة، وساعرض لأهمها، فمن الكتب المخطوطة التي رجعت إليها، كتاب العسجد المسبوك فيمن ولي اليمن مَن الملوك لعلي بن الحسين الخزرجي المتوفى سنة ٨١٢هـ/١٤٠٩م، وقد أمدني بمعلومات هامة عن الصراع الأيوبي الرسولي على الحجاز، وبعض الأسباب السياسية والدينية التي أدت للصراع المملوكي الرسولي.

وكذلك كتاب درة الأسلاك في دولة الأتراك لبدر الدين الحسن بن عمر بن حبيب المتوفى سنة ٧٧٩هـ/١٣٧٧م، وقد احتوى على معلومات هامة تتعلق بالأحوالْ السياسة في عصر المماليك والأسباب التي أدت للصراع المملوكي الرسولي ونتائجه.

ومن المصادر المطبوعة التي أفدت منها، كتاب تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار المسمى رحلة ابن جبير لمحمد بن أحمد بن جبير المتوفى سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م حيث أمدني بمعلومات عن الوضع السياسي للحجار في العصر الأيوبي، وعن المواسم التجارية وعن بعض المزروعات والأطعمه الحجازيه وكتاب السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك من الغُزّ باليمن لبدر الدين محمد بن حاتم اليامي المتوفى بعد سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م، وقد أمدني بمعلومات هامة عن مواقف أشراف مكة من الدولة الأيوبية باليمن منذ سنة ٦١٩هـ/١٢٢٣م، ومعلومات مفصلة عن الصراع بين الأيوبيين بمصر والرسوليين باليمن على إمارة مكة، وعن علاقة الدولة المملوكية بإمارة مكة في عهد الشريف محمد بن أبي نميّ.

كما زودني كتاب تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار المسمى رحلة ابن بطوطة للرحالة أبي عبد الله محمد بن بطوطة المتوفى سنة ٧٧٩هـ/١٣٧٧م بمعلومات جيدة ومفيدة عن الوظائف الإدارية في الحجاز، ومعلومات اقتصادية تتعلق بالمواسم التجارية وموارد الدخل ومعلومات إجتماعية

تتعلق بعادات وملابس واطعمة المجتمع الحجازي وفئاته، وعن المدارس الرسـولية في الحجاز.

أما كتاب تاريخ الدول والملوك لمحمد بن عبد الرحيم بن الفرات المتوفى سنة ٨٠٧هـ/١٤٠٤م فقد أمدني بمعلومات عن الأسباب الاقتصادية للصراع الرسـولي المملوكي ونتائجه، تضمن معلومات عن الحياة الاقتصادية تتعلق بالمواسم التجاريـة، والأزمات الاقتصادية، والزراعة في بلاد الحجاز، ومعلومات اجتماعية تتعلق بفئـات المجتمع الحجازي.

ورجعت إلى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر لعبد الرحمـن بـن خلـدون المتوفى سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٦م، حيث زودني بمعلومات عـن الأحـول السياسـية والإدارية وخاصة فيما يتعلق بإمارة مكة، واقتصادية تتعلق بموارد الدخل بالحجاز.

ومن المصادر التي اعتمدت عليها أيضاً كتاب العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية لعلي بن الحسين الخزرجي المتوفى سنة ٨١٢هـ/١٤٠٩م إذ أمد الدراسـة بمعلومات هامة ومتنوعة عن الأحوال السياسية في الحجاز في فترة حكم الرسوليين فيه، وعن الأسباب السياسية والإقتصادية والدينية التي أدت للصراع ونتائجه ووظيفة متولي العمارة(شادة العمارة في الحرم المكي)، ومعلومات اقتصادية تتعلق بالمكوس وموارد الدخل والأزمات الاقتصادية، ومعلومات اجتماعية تتعلق بفئـات المجتمـع الحجازي.

ومن الكتب التي أفادتني كتاب صبح الأعشى في صناعة الإنشا لشهاب الديـن أحمد بن علي القلقشندي، والمتوفى سنة ٨٢١هـ/١٤١٨م، وبه معلومات قيمة عـن تسمية الحجاز، وحدوده الجغرافية، والحالة السياسية في عصر المماليك، والأسـباب السياسية والاقتصادية والدينية للصراع الرسولي المملوكي، ودور الاشراف فيه وعن الوضع الإداري في الحجاز والمراسيم التي أصدرها السلاطين لتعييـن أصحـاب الوظائف الإدارية في مكة والمدينة وينبع وجـدة، ومعلومـات عـن الاقتصـادي والإداري والاجتماعي.

وزودتني مؤلفات تقي الدين الفاسي، المتوفى سنة ٨٣٢هـ/١٤٢٩م بمعلومات هامة تتعلق بفترة الدراسة، فقد زودني كتابه العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين بتفاصيل مهمة عن المنازعات السياسية بمكة وتطور علاقتها بدولة المماليك، بالإضافة إلى معلومات كثيرة عن الأحوال السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية المتعلقة بالحجاز خلال فترة الدراسة.

وأفادني كتابه شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام بمعلومات قيمة عن الأهمية الاستراتيجية للحجاز، وعن الأحوال السياسية فيه والأسباب التي أدت إلى الصراع المملوكي الرسولي عليه، ومعلومات شاملة عن النواحي الإارية والاقتصادية والإجتماعية والثقافية في الحجاز.

ورجعت إلى كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك لتقي الدين المقريزي المتوفى سنة ٨٤٥هـ/١٤٤٣م، حيث أمدني بمعلومات عن الأحوال السياسية في الحجاز، واسباب الصرع المملوكي، ودور أشراف مكه فيه كما أمدني بمعلومات إدارية تتعلق بالقضاء المؤذنون وناظر مدينة جدة واقتصادية تتعلق بالمواسم التجارية وموارد الدخل والأزمات الإقتصادية، والزراعة وإجتماعية تتعلق بفئات المجتمع الحجازي.

وأفادني كتاب الذهب المسبوك بذكر من حج من الخلفاء والملوك للمقريزي أيضا بمعلومات أفادتني في دراسة علاقة إمارة مكة بالدولتين الرسولية ودولة المماليك، كما أورد فيه معلومات عن حج سلاطين الدولة الرسولية مثل حجتي الملك المجاهد الرسولي، وحج سلاطين الدولة المملوكية مثل حج الظاهر بيبرس، وحجات السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الثلاث، بالإضافة إلى معلومات تتعلق بمحاولات هؤلاء السلاطين مد نفوذهم إلى الحجاز ومعلومات اقتصادية تتعلق بموارد الدخل.

ومن المصادر التي استفادت منها هذه الدراسة، كتاب أنباء الغمر بأنباء العمر لشهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢هـ/١٤٤٨م، حيث أمدني بمعلومات هامة عن الأوضاع السياسية والإدارية التي تتعلق بنيابة السلطنة الحجازية ونظر الأوقاف والأربطة.

كما يعتبر كتاب الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م، من المصادر الهامة التي زودتني بمعلومات هامة عن النواحي السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية في الحجاز في فترة الدراسة.

وكان كتاب أتحاف الورى بأخبار أم القرى لنجم الدين عمر بن فهد المتوفى سنة ٨٨٥هـ/١٤٨٠م، من أهم الكتب التي زودتني بمعلومات هامة عن الأحوال السياسية في الحجاز في عصر المماليك والرسوليين، والأسباب التي أدت للصراع بينهما ونتائجه، بالإضافة إلى معلومات قيمة عن الجوانب الإدارية والاقتصادية والإجتماعية والثقافية في الحجاز في فترة الدراسة.

ومن المصادر التي أفادتني في هذه الدراسة، كتاب الضوء اللامع لأهل القرن التاسع لشمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي المتوفى سنة ٩٠٢هـ/١٤٩٧م، حيث زودني بمعلومات عن الأحوال السياسية والوظائف الإدارية، واحتوى على تراجم لأشراف مكة وعلمائها وفقهائها وخطباء وقضاة الحجاز، ومعلومات عن نشاط الحركة العلمية في الحجاز في فترة الدراسة.

كما ضم كتاب التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة للسخاوي معلومات عن الأحوال السياسية في الحجاز في عصر المماليك وعن الوظائف الإدارية في عصرهم كذلك، كما أمدنا بمعلومات عن فئات المجتمع الحجازي والحياة الثقافية فيه.

واستفاد البحث من كتاب غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام لعبد العزيز بن فهد المتوفى سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م، فقد احتوى على معلومات تتعلق بالنواحي السياسية والإدارية والاقتصادية والثقافية في الحجاز.

وأخيراً فإني لا أدعي بأن الموضوع قد أخذ حقه من الدراسة ، فلا شك أن هناك جوانب لم يستطع الباحث تغطيتها أو الوصول إلى مصادرها، وهذا العمل إنما هو جهد طالب علم يخطو خطواته الأولى على طريق البحث العلمي، راجياً أن تتاح الفرصة لغيري لإتمام النقص الذي لم أستطع عمله.

وأخيراً أتقدم بالشكر الجزيل وعظيم الامتنان لأستاذي الأستاذ الدكتور يوسف غوانمة الذي كان لتوجيهاته الأثر الكبير في إخراج هذه الدراسة.

وأتقدم بالشكر الجزيل للدكتور سليمان خرابشة والدكتور نعمان جبران لتفضلهما بقراءة هذه الدراسة ومناقشتها وإثرائها بالملاحظات القيمة. وأتقدم بالشكر للدكتور داود المندعي الذي زودني بمجموعة من المصادر اليمنية. وأخيراً أتقدم بالشكر إلى كل من ساعدني في إتمام هذا البحث .

والله من وراء القصد.

الفصل الأول

الأهمية الجغرافية والتاريخية للحجاز

١- التسمية والطبوغرافية التاريخية والحدود الجغرافية للحجاز:-

أ- التسمية

ب- الطبوغرافية التاريخية

جـ- الحدود الجغرافية

٢- الأهمية الاستراتيجية والدينية للحجاز:-

أ- الأهمية الاستراتيجية

ب- الأهمية الدينية

الأهمية الجغرافية والتاريخية للحجاز

١- التسمية والطبوغرافية التاريخية والحدود الجغرافية للحجاز.

أ- التسمية:-

١- لغةً:

هي البلد المعروف، وسميت بذلك من الحجز الفصل بين الشيئين، لأنه فصل بين الغور والشام والبادية، وقيل لأنه حجز بين نجد والسراة، وقيل: لأنه حجز بين غور تهامة ونجد.[١]

٢- أما التسمية حسب آراء الجغرافيين العرب فهي:

ذكر ياقوت الحموي: هو جبَل ممتد حال بين الغور أي غور تهامة ونجد، ومنعهما من الإختلاط ببعضهما، فهو حاجز بينهما وسمي الحجاز حجازاً لأنه فصل بين الغور والشام وبين البادية. [٢]

واتفق معه في ذلك كل من ابن عبد الحق البغدادي[٣] والقلقشندي[٤]. وأما القزويني فقد اختلف معه في ذلك، وذكر أن سبب تسميته بالحجاز لأنه حجز بين اليمن والشام. [٥]

---

(١) ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار الفكر - دار صادر، بيروت، ١٩٧٠م، ج٥، ص٣٣١ وسيشار إليه لاحقاً: ابن منظور، لسان العرب.

(٢) الحموي، ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٩٥م، ج٢، ص٢١٨ وسيشار إليه لاحقاً: الحموي، المعجم.

(٣) ابن عبد الحق البغدادي، صفي الدين بن عبد المؤمن، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق وتعليق : علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت ط ٣ ، ١٩٥٤م، ج١، ص٣٨١، وسيشار إليه لاحقاً: ابن عبد الحق البغدادي، مراصد الاطلاع.

(٤) القلقشندي: أحمد بن علي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، جـ٤، ٧ ، ١٢ شرحها وعلق عليها وقابل نصوصها: محمد حسين شمس الدين، جـ٨ تح: نبيل الخطيب، جـ٥،تح: يوسف الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م، جـ٤، ص ٢٥٢ وسيشار إليه لاحقاً : القلقشندي، صبح الأعشى.

(٥) القزويني: زكريا بن محمد، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، ١٩٦٩م، ص٨٤ وسيشار إليه لاحقاً: القزويني، آثار البلاد.

نستنتج مما سبق أن الحجاز هو جبل السراة الذي يمتد من حدود اليمن إلى بادية الشام فيحجز بين تهامة ونجد، وأن هذه التسمية الطبيعية قد استمدت جذورها التاريخية البعيدة حين اتضحت من البداية صورة هذا الحاجز الجبلي الممتد من اليمن إلى الشام فاصلاً بين مناطق متباينة طبيعياً. [1]

أما بالنسبة لموقع الحجاز وأهميته، فيقع الحجاز بين خطي عرض (٣٢:١٣°) شمال خط الاستواء، وبين خطي الطول (٣٤: ٦٠°) شرقاً، وهو أحد أقاليم شبه الجزيرة العربية، ويمتد الحجاز على طول ساحل البحر الأحمر[2]، ولهذا الإقليم ميزة خاصة لدى المسلمين، وسبب ذلك لوجود الأماكن المقدسة فيه، ولوجود مدينتين مقدستين فيهما أقدس مقدسات المسلمين وهما: مكة التي توجد فيها الكعبة المشرفة، والمدينة المنورة التي يوجد فيها المسجد النبوي، وإلى هذين المكانين يأتي المسلمون لأداء فريضة الحج ومناسك العمرة، كما يتجهُ المسلمون إلى مكة كل يوم خمس مرات في صلواتهم.

ب- الطبوغرافية التاريخية.

يشكل الحجاز قطاعاً طولياً محاذياً لساحل البحر الأحمر، فهو يمتد من تبوك شمالاً إلى عسير جنوباً، ومن الرياض والقصيم وحائل ونجران شرقاً إلى ساحل البحر الأحمر غرباً. [3]

وتعتبر سلسلة جبال السراة من أشد ظاهرات التضاريس في شبه الجزيرة العربية امتداداً وارتفاعاً، فهي تمتد جنوباً من ميناء العقبة الأردنية لمسافة تبلغ ١٧٦٠كم، وهي ضيقة في الشمال متسعة في الجنوب والوسط، ويتراوح عرضها

---

(١) رجب، عمر الفاروق، الحجاز أرضه وسكانه، دار الشروق للطباعة والتوزيع، جدة، ١٩٧٩م، ص٤٧ وسيشار إليه لاحقاً: رجب، الحجاز.

(٢) سيف، محمود محمد، جغرافية المملكة العربية السعودية، دار المعرفة الجامعية للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، ١٩٩٦م، ص١٠ وسيشار إليه لاحقاً: سيف، جغرافية المملكة.

(٣) سيف، جغرافية المملكة، ص ص ٤٨-٥٠، وأبو العلا، محمود طه، جغرافية شبه الجزيرة العربية، مؤسسة سجل العرب، مطابع سجل العرب، القاهرة، ١٩٧٢م، جـ١، ص ص ٣٥-٤٦ وسيشار إليه لاحقاً: أبو العلا، جغرافية شبه الجزيرة.

بين ١٢٠-٢٠٠كم، وتعني السراة الأرض المرتفعة وجمعها السروات، وأهمها سراة الحجاز أي جبال الحجاز، وأعلى قمة فيه تتمثل في جبل رضوى وارتفاعها ٢٠٤١م، وموقعها شمال شرق ميناء ينبع. (١)

وقد ساعدت الأودية العرضية التي تجري في هذه المرتفعات على سهولة الاتصالات بين الحجاز وداخل شبه الجزيرة العربية، الأمر الذي أدى إلى الازدهار والأهمية التجارية التي اشتهرت بهما مدينتا مكة والمدينة قبل الإسلام، كما يرجع إليهما الفضل في أسبقية الحجاز في التقدم الحضاري. (٢)

وقد نتج عن التكوين الطبيعي لهذه السلسلة تقسيم الحجاز من الوجهة الطبيعية إلى مناطق جغرافية هي:

- **المنطقة الساحلية الغربية**: وتسمى تهامة الحجاز، وتمتد على طول ساحل البحر الأحمر من الشمال إلى الجنوب مسافة قدرها ١١٠٠كم، وعرضها يختلف حيث يبلغ اتساعها عند ميناء رابغ وجنوب ميناء جدة من ٦٠-٧٠كم. (٣)

وهذا القسم مليء بالموانئ الحجازية التي تربط الحجاز بالعالم عن طريق البحر الأحمر، وأهمها من الجنوب إلى الشمال: القنفذة، والليث، وجدة، ورابغ، وينبع، وأملح الوجه، وضبا، والمويلح، وحقل، وأكثر هذه المنطقة رملي شديدة الحرارة. (٤)

---

(١) سيف، جغرافية المملكة، ص ص٤٨-٥٠؛ أبو العلا، جغرافية شبه الجزيرة، جـ١، ص ص٣٥-٤٦.

(٢) سيف، جغرافية المملكة، ص٥٠.

(٣) حسين، جميل حرب، الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، دار تهامة للطباعة والتوزيع، الكتاب الجامعي (٣٠)، السعودية -جدة ، ط١، ١٩٨٥م، ص ص ١١٩-١٢٤ وسيشار إليه لاحقاً: حسين، الحجاز واليمن؛ سيف، جغرافية المملكة، ص٤٨.

(٤) حمزة، فؤاد، قلب الجزيرة العربية، مكتبة النصر الحديثة، الرياض، ط٢، ١٩٦٨م، ص١٨، وسيشار إليه لاحقاً: حمزة، قلب الجزيرة.

ويزرع بهذا القسم الذرة والقطن والقمح والشعير والفواكه والخضروات، وذلك حسب موارد المياه المتاحة، ومناخه حار رطب قليل الأمطـــار ومعـــدل الحـــرارة السنوي فيه ٣٢°م. (١)

- **منطقة الهضاب والنجود:** وتمتد من الشمال إلى الجنوب محاذية لمنطقة تهامــــة الساحلية بمساحة عرضها من الغرب إلى الشرق ٣٣٢كم، ويبلغ معظم ارتفـــاع هذه الهضاب ٦٥٠م، وأهمها: هضبة حســمى، والحجــاز، ونجــد والحــرات، ويتخللها الجبال على شكل تتوازى فيه حيناً وتتقاطع أحياناً أخرى، حيث تخترقها الوديان الطويلة، مما سمح بإقامة بعض القرى في الواحات الضيقة في الســفوح الشرقية والغربية وفي الأودية بين الجبال وفي هذه المنطقة، تقــع مدينــة مكــة المكرمة. (٢)

- **المناطق الجبلية المرتفعة:** وتقع شمال الحجاز، وتسمى بأرض مدين وحســمى نسبة إلى الجبال المسماة بهذا الاسم، وتتخذ شكل مثلث رأسه في الشــمال عنــد جبل مبارك قرب العقبة الأردنية وقاعدته في الجنوب، وأهم جبالها هــي: جبــل الشفاء والرغامة، وتوجد بجبال مدين عدة قمم جبلية. (٣)

وهي كثيرة الحرار البركانية التي تمثل أحد مظاهر السطح الرئيسية بالحجاز، وبها مناطق بركانية تدعى اللابة أو اللوبة، وتسيل أودية الحجاز فيها، ومناخ هـــذه

---

(١) أبو العلا، جغرافية شبه الجزيرة، جـ١، ص٣٧؛ حمزة، قلب الجزيرة، ص ص١٨-١٩؛ سيف، جغرافيــة المملكة، ص٤٧.

(٢) الفوزان، إبراهيم الفوزان، إقليم الحجاز وعوامل نهضته الحديثـــة، الريــاض، ١٩٨١م، ص ص ٢٠-٢١ وسيشار إليه لاحقاً: الفوزان، إقليم الحجاز؛ سيف، جغرافيـــة المملكـــة، ص ص ٥١-٥٣؛ حمــزة، قلــب الجزيرة، ص١٨؛ الغنيم، عبد الله يوسف، جزيرة العرب من كتاب المسالك والممالك لأبي عبيــد البكــري، ذات السلاسل للطباعة، الكويت، ١٩٧٧م، ص١١١ وسيشار إليه: الغنيم، جزيرة العرب من كتاب المســالك والممالك لأبي عبيد البكري؛ أبو العلا، جغرافية شبه الجزيرة، جـ١، ص٤٤.

(٣) الشريف، أحمد إبراهيم، دور الحجاز في الحياة السياسية العامة في القرنيــن الأول والثــاني للــهجرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٢، ١٩٧٧م، ص٦ وسيشار إليه لاحقاً: الشريف، دور الحجاز؛ أبو العلا، جغرافيــة شبه الجزيرة، جـ١، ص٤١؛ سيف، جغرافية المملكة، ص٤٩.

المنطقة معتدل في الشرق، وتكثر فيها الأشجار في سفوح الجبال والأودية والسهول، وأهم المدن الواقعة ضمن هذه المنطقة تيماء وخيبر والطائف. (١)

يتميز مناخ الحجاز بالتنوع، فتتسم المناطق الساحلية في الشرق والغرب بشدة الحرارة في الصيف مع ارتفاع نسبة الرطوبة، فنجد المناطق المرتفعة عن سطح البحر التي تقع في سلسلة جبال الحجاز معتدلة المناخ، على حين ترتفع الحرارة نهاراً وتعتدل ليلاً في المناطق الوسطى لتعرضها للرياح المصحوبة زمن الشتاء بالأمطار، وأما في الخريف فتهب عليها الرياح الموسمية التي تؤدي إلى سقوط كمية محدودة من الأمطار. (٢)

وعلى هذا نجد أن مناطق الحجاز تختلف من الناحية الطبيعية، فهناك مناطق جدباء شديدة الحرارة، تحوطها الجبال مثل مكة، ومناطق أخرى تجود فيها التربة، وتنزل الأمطار فيها بغزارة مثل الطائف والمدينة المنورة والوديان التي بين مكة وجدة. (٣)

---

(١) الشريف، دور الحجاز، ص ص٦-٤٧؛ حمزة، قلب الجزيرة، ص١٨، ٥٨-٥٩؛ رجب، الحجاز، ص١١٧، (الحرار : هي عبارة عن أرض بركانية يقال لها اللابة أو اللوبة، وقد تكونت من قبل البراكين ، وتتميز بأنها أرض ذات حجارة سوداء نخرة كأنها أحرقت بالنار، ومن هذه الحرار تسيل أودية الحجاز صوب الشرق والغرب إلى نجد من ناحية ، وإلى تهامة فبحر القلزم من ناحية أخرىن وأهم هذه الحرار حرة خيبر (ياقوت، معجم البلدان، مج ٢ ، ص ٢٤٥ ، الشريف، دور الحجاز، ص ٦ ، رجب، الحجاز ، ص ١١٧).

(٢) رجب، الحجاز، ص ص ١٢٧-١٢٨؛ أبو العلا، جغرافية شبه الجزيرة، جـ١، ص ص٤٧-٤٩.

(٣) محمد، صبحي عبد المنعم، العلاقات بين مصر والحجاز زمن الفاطميين والأيوبيين، العربي للطباعة والنشر والتوزيع، (د.م)، ١٩٩٢م، ص٧ وسيشار إليه لاحقاً: محمد، العلاقات بين مصر والحجاز؛ الشريف، دور الحجاز، ص٨.

جـ- الحدود الجغرافية:

اختلف الجغرافيون على تحديد الحجاز جغرافياً وإدارياً، بينما اتفقوا على أن الحجاز هو جبل السراة الذي يمتد من حدود اليمن إلى بادية الشام، واعتمدوا في تحديدهم هذا على طبيعة المكان ومظاهره الجغرافية البارزة. (١)

وقد حدد الجغرافيون العرب الحجاز جغرافياً، فالحد الشمالي لهذا الإقليم يبلغ أطراف الشام، ووردت إشارة إلى ذلك عند البكري بأن جبال الشورى الواقعة على مرحلة من أيلة (العقبة) فصل ما بين أرض الحجاز وأرض الشام، وقال: (هي جبال منيفة وفيها قرى وثمار غزيرة)؛ وهذا يعني أن هذه الجبال هي الحاجز الطبيعي بين الشام والحجاز. (٢)

وأما الحدود الجنوبية للحجاز، فقد ذكر البكري أنها من قبل نجد ذات عرق، وأن ذات عرق فصل ما بين تهامة ونجد والحجاز. (٣)

أما حدوده الشرقية، فقد أورد الهمداني أشارة إلى أن ما احتجز به في شرقية من الجبال وانحدر إلى ناحية فيد وجبلي طي إلى المدينة وراجعاً إلى أرض مذحج عن تثليث وما دونها إلى ناحية فيدَ حجازاً، والظاهر أن هناك صعوبة في تحديد الحجاز من الشرق لتضارب آراء الجغرافيين العرب فيه. (٤)

---

(١) الهمداني، الحسن بن أحمد، صفة جزيرة العرب، قام بنشره ومراجعته وتصحيحه وتحقيقه: محمد النجدي، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٥٣م، ص٥٨ وسيشار إليه لاحقاً: الهمداني: الصفة؛ رجب، الحجاز، ص٤٧.

(٢) الغنيم، جزيرة العرب من كتاب المسالك والممالك لأبي عبيد البكري، ص٩٧، (والمرحلة : هي المنزلة يرتحل منها، وما بين المنزلتين مرحلة ، (أبن منظور ، لسان العرب، مج ٢ ، ص ٢٨٠).

(٣) أبي عبيد البكري، عبد الله بن عبد العزيز، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، حققه وضبطه: مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت، ط٣، ١٩٨٣م، مجـ٢ جـ١، ص١٠ وسيشار إليه لاحقاً: أبو عبيد البكري، معجم ما استعجم؛ الحموي، المعجم، مجـ٢، ص٢٠٥؛ الوهيبي، عبد الله، الحجاز كما حدده الجغرافيون العرب، مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض، الرياض، مجـ١، س١، ١٩٧٠م، ص ص ٥٣ -٧٠ وسيشار إليه لاحقاً: الوهيبي، الحجاز.

(٤) الهمداني، الصفة، ص ص ٤٩-٥٠؛ العلي، صالح أحمد، الحجاز في صدر الإسلام، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٠م، ص٧٣ وسيشار إليه لاحقاً: العلي، الحجاز (فيد: بليدة في نصف طريق مكة من الكوفة (الحموي، المعجم، مجـ٤، ص٢٨٢)، وتثليث: موضع بالحجاز قرب مكة، ويوم تثليث من أيام العرب بين بني سليم ومراد، الحموي، المعجم، مجـ٢، ص١٥).

وذكر البكري أن حد الحجاز الغربي تهامة وبدر والسقيا ورهاط وعكاظ.[١]

وأما تحديد المقدسي للحجاز، فيعطينا فكرة كاملة عن المدن التي كانت تتبع الحجاز في عصره، وهو ما يطلق عليه التقسيم الإداري للحجاز فيذكر أن مكة هي قصبة الحجاز، ومن أهم مدنها يثرب وينبع وخيبر وجدة والطائف والمروة والجار والحوراء.[٢]

أما في العصر المملوكي، فقد حددت الحجاز إداريا بثلاثة أقسام وهي:

أولها: مكة، وأهم قراها ومخاليفها: جدة والطائف وعسفان.[٣]

ثانيها: المدينة المنورة، وأهم قراها ومخاليفها: خيبر وفدك والجار ووادي القرى.[٤]

---

(١) البكري، معجم ما استعجم، مجـ٢، جـ١، ص١٠-١١، (السقيا: قرية جامعة من عمل الفرع، وهي من أسافل أودية تهامة (الحموي، المعجم، مجـ٣، ص١٠٧، ٢٢٨؛ رهاط: هو جبل قرية يقال لها رهاط، بقرب مكة على طريق المدينة (الحموي ، المعجم، مجـ٣ ، ص ١٠٧)؛ عكاظ: نخل في وادي قريب من الطائف ومكة، وكانت تقام به سوق العرب في الجاهلية، وبه كانت أيام الفجار (الحموي، المعجم، مجـ٤، ص١٤٢).

(٢) المقدسي، محمد بن أحمد، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩١م، ص٦٩ وسيشار إليه لاحقاً: المقدسي، أحسن التقاسيم. (المروة: جبل بمكة يعطف على الصفا، مائل إلى الحمرة، يقع في وسطها وعليه منازل أهلها (الحموي، المعجم، مجـ٥، ص١١٦؛ الجار: مدينة على ساحل بحر القلزم بينهما وبين المدينة يوم وليلة، وهي فرضة ترفأ إليها السفن من أرض الحبشة ومصر وعدن والسهند (الحموي، المعجم، مجـ٢، ص ص ٩٢-٩٣)؛ الحوراء: كورة في الحجاز، وتقع على البحر الشرقي للقلزم، وهي مرفأ سفن مصر إلى المدينة المنورة (الحموي، المعجم، مجـ٢، ص٣١٦).

(٣) ابن فضل الله العمري، أحمد بن يحيى، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، دراسة وتحقيق: دورتيا قرانولسكي، المركز الإسلامي للبحوث، بيروت، ١٩٨٥م، ص١٢٥ وسيشار إليه لاحقاً: ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار؛ القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٤، ص ص٢٦٣-٢٦٦؛ (عسفان: منهلة من مناهل الطريق بين الجحفة ومكة، وهي قرية جامعة بها منبر ونخل ومزارع وهي حد تهامة (الحموي، المعجم، مجـ٤، ص ص١٢١-١٢٢).

(٤) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ص ص١٢٥-١٢٦؛ القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٤، ص ص٢٩٤-٢٩٧؛ (فدك: قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان، وفيها عين فوارة ونخل كثير (الحموي، المعجم، مجـ٤، ص٢٣٨)؛ وادي القرى: هو وادي بين المدينة والشام، من أعمال المدينة كثير القرى (الحموي، المعجم، مجـ٥، ص٣٤٥).

ثالثها: نيابة ينبع. (١)

ثانياً: الأهمية الاستراتيجية والدينية.

أ- الأهمية الاستراتيجية.

حظيت منطقة الحجاز بأهمية استراتيجية خاصة منذ أقدم العصور بما حباها الله به من موقع متميز، فهي تشكل أحد أجزاء شبه الجزيرة العربية، فهي تشغل مكاناً وسطاً بين بلاد الشام واليمن ومصر. وكانت قصبتها مكة في واد غير ذي زرع[٢] قاحلة، وبها الكعبة التي كانت تؤمها القبائل العربية لزيارة أصنامهم الموجودة حولها، فاستغلت قبيلة قريش موسم الحج واستفادت منه مادياً، ثم نظمت تجارتها فكانت رحلتا الشتاء والصيف اللتان ذكرهما القرآن الكريم[٣]، فازدهرت التجارة بالحجاز ومدنه، فساعدهم ذلك على استمرارهم بالعيش فيه[٤].

كما ارتبطت مكة مع الدول المحيطة بشبكة من المسالك والطرق التي تعبرها تجارة العالم في البحر الأحمر والخليج العربي، وتحملها القوافل التجارية إلى الشام واليمن ومصر والعراق، ولأهميتها الدينية عبر حقب التاريخ منذ أيام سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل تهافت عليها جميع العرب للحج إليها، وترتب على ذلك أن أصبحت هذه البلاد بوتقة انصهرت فيها عبر حقب التاريخ ديانات متعددة، تركت آثاراً واضحة متناثرة بالمنطقة، من آثار وثنية ومسيحية وإسلامية ترجع إلى فترات زمنية متعاقبة. (٥)

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ١٢، ص ص٢٥٧-٢٥٩.

(٢) انظر: الآية ٣٧ من سورة إبراهيم.

(٣) أنظر: سورة قريش من الآية ١-٤.

(٤) العمادي، محمد حسن، التجارة وطرقها في الجزيرة العربية بعد الإسلام حتى القرن ٤هـ، مؤسسة حمادة للطباعة والنشر والتوزيع، إربد، ١٩٩٧م، ص ص ٤٩-٥١، وص٥٦، ٦٠ وسيشار إليه لاحقاً: العمادي: التجارة وطرقها.

(٥) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تح: يوسف داغر، دار الأندلس، بيروت، ١٩٧٣م، جـ٢، ص ص١٨-١٩ وسيشار إليه لاحقاً: المسعودي، مروج الذهب؛ بيضون، إبراهيم، الحجاز والدولة الإسلامية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٣م، ص ص ٥٨-٨٤ وسيشار إليه لإحقاً: بيضون، الحجاز؛ العمادي، التجارة وطرقها، ص ص٦٠-٦٤.

كما أصبح الحجاز مركزاً للديانة الجديدة وهي الإسلام الذي انتشر منها إلى جميع بقاع المعمورة، مما أدى إلى استتباب الأمن والأمان، وأصبح موسم الحج سوقاً تجارياً دائماً، واستفاد منه تجار الحجاز خاصة وتجار شبه الجزيرة عامة. (١)

ولتمتع الحجاز بأهمية استراتيجية وسياسية، فقد أمه الساخطون على الدولة الإسلامية عبر عصورها، يؤلبون قلوب العامة على الخلفاء وولاتهم بدعوة خروجهم على السلطة المركزية في عاصمة الخلافة. (٢)

وكانت موانئ الحجاز الكثيرة المطلة على البحر الأحمر والخليج العربي مطمعاً للكثيرين، فالذي يسيطر عليها يتحكم بقوافل الحج الشامي والمصري والعراقي واليمني، لما يتحصل منها من ضرائب على التجارة والحجاج، مما أثرى سلاطين مصر والشام. (٣)

واهتم الفاطميون والأيوبيون ثم المماليك بأمر الحجاز لأسباب سياسية واقتصادية واستراتيجية، وقد دخل أشراف مكة في طاعة الأيوبيين، ونتيجة لذلك قام الأيوبيون بواجبهم في حماية الأراضي المقدسة من اعتداءات الصليبيين وخصوصاً حملات أرناط إلى الحجاز (٤)، وبلغ النفوذ الأيوبي ذروته بالحجاز عندما تدخلوا في ظروف النزاع بين الأخوة على منصب الإمارة في مكة. (٥)

---

(١) العلي، الحجاز ص ص ٧-١٦.

(٢) وأول تلك الثورات، ثورة المدينة في وجه الجيش الشامي لأخذ البيعة ليزيد بن معاوية في سنة ٥١هـ / ٦٧١م. (بيضون، الحجاز، ص ص٢٧٠-٣٠٩).

(٣) الفاسي، تقي الدين محمد بن علي، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، حقق أصوله وعلق عليه: لجنة من كبار العلماء والأدباء، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، جـ٢، ص١٩٧ وسيشار إليه لاحقاً: الفاسي، شفاء الغرام؛ المالكي، سليمان عبد الغني، بلاد الحجاز منذ بداية عهد الأشراف حتى سقوط الخلافة العباسية في بغداد، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ١٩٨٣م، ص٢٣ وسيشار إليه لاحقاً: المالكي، بلاد الحجاز.

(٤) غوانمة، يوسف حسن، أمارة الكرك الأيوبية، دار الفكر، عمان، ط٢، ١٩٨٢م، ص ص ١٢٣-١٣٦ وسيشار إليه لاحقاً: غوانمة، أمارة الكرك.

(٥) ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، جـ١-٣ تح: جمال الدين الشيال، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٧٧م، جـ١، ص٣٩٦ وسيشار إليه لاحقاً: ابن واصل، مفرج الكروب؛ محمد، العلاقات بين مصر والحجاز، ص ص١٤٨-١٦٠؛ المالكي، بلاد الحجاز، ص١١.

وتمتع الحجاز بأهمية استراتيجية كبيرة لدى سلاطين المماليك في الناحيتين السياسية والاقتصادية، فقد كانوا يرسلون الجند مع قوافل الحج لحمايتها ونشر الأمن في الحجاز، ورفعوا أعلامهم على جبل التعريف، ودعي لهم على جبل عرفة، وتنافسوا في ذلك مع ملوك وسلاطين الدول المجاورة، وخاصة ملوك الدولة الرسولية في اليمن. (١)

كما عنوا بالناحية الاقتصادية عناية فائقة حيث منحوا تجار اليمن ومصر وبلاد الشام والمشرق امتيازات كبيرة مما حدا بهم إلى الرسوّ في موانئ الحجاز، واستحدثوا وظيفة ناظر جدة ونيابة ينبع، وكان هدفهم السيطرة على تجارة المشرق وأصبحوا وسطاء التجارة الدولية آنذاك وقد أدى ذلك إلى إثرائهم وزيادة أموالهم. (٢)

ب- الأهمية الدينية

كان الحجاز مركز الديانة الوثنية قبل الإسلام، وكان يوجد حول الكعبة مئتان وستون صنماً تخص جميع قبائل الجزيرة العربية، والتي كانت تقوم بزيارة الكعبة للتبرك بأصنامها، فأفادت قريش من ذلك دينياً وأدبياً، فأصبغت على نفسها صبغة التقديس. (٣)

وازدادت أهميته الدينية، بمولد الرسول محمد ﷺ، حيث أعلن الدعوة الإسلامية به، ومنه انتشرت إلى كافة بقاع الدنيا، وأسس به دولة إسلامية عاصمتها المدينة المنورة في العهدين النبوي والراشدي. (٤)

---

(١) انظر: الفصل الثالث: الصراع بين المماليك والرسوليون في بلاد الحجاز (جبل عرفة : هو الجبل المشرف على بطن عرفة ، وعرفة قرية فيها مزارع وخضر ومباطخ وبها دور حسنة لأهل مكة ينزلونها يوم عرفة، وبها سقايات وحياض وعلمٌ قد بنى يقف عنهد الإمام (ياقوت، معجم البلدان ، مج٤، ص ص ١٠٤-١٠٥).

(٢) انظر: الفصل الرابع: الإدارة في الحجاز في عصر دولة المماليك .

(٣) علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، مكتبة النهضة - بغداد، ١٩٧٠م، جـ٦، ص٤٣٦ وسيشار إليه لاحقاً: علي، المفصل؛ العمادي، التجارة وطرقها، ص٣٠.

(٤) خياط، خليفة، تاريخ خليفة، تح: أكرم العمري، مطبعة الكتبي، دار العلم - دمشق، دار الرسالة - بيروت، ط٢، ١٩٧٧م، ص ص٥٢-٥٦ وسيشار إليه لاحقاً: خياط، تاريخ؛ علي، المفصل، جـ٤، ص ص١٥٨-١٥٩.

بالإضافة إلى ذلك وجد بالحجاز الكثير من الأماكن الدينية التي تعتبر في نظر المسلمين أقدس مقدساتهم، وأهمها الكعبة المشرفة التي هي قبلة المسلمين التي يتوجهون إليها بالصلاة والحج، والمسجد الحرام، والمسجد النبوي، ومقبرة البقيع، والأماكن الدينية الكثيرة التي يزورها المسلمون لأداء مناسك الحج والعمرة. (١)

وقامت القوى التي حكمت في الحجاز ببناء المدارس والأربطة وإصلاح عيون الماء ومن ذلك حكام الدولة الرسولية وكبار رجال الدول الإسلامية حيث حرصوا على تقديم الصدقات والهبات لأمرائه وأهله وانقذوهم من الجوع في فترة الأزمات الاقتصادية التي كان يمر بها الحجاز (٢)

وقام المماليك بعد ذلك ببناء المدارس والزوايا والأربطة والمطاهر والآبار وعيون الماء، وحافظوا على نظافة الحرمين وإضاءته، وقدموا الصدقات والهبات لأمرائه وأهله وأنقذوهم من الجوعَ في فترة الأزمات الاقتصادية التي كان يمر بها الحجاز. (٣)

واهتم المماليك بتعيين أصحاب المناصب الدينية للاشراف على الحرمين، وجعلوا المذهب السني الأكثر رواجاً في الحرمين(٤)، وتأكيداً لأهميته الدينية قام بعض سلاطين المماليك بزيارة الحجاز في مواسم العمرة والحج للاطمئنان على أحواله، وأرسلوا كسوة الكعبة من قبلهم كل عام، وأصلحوا ما يحتاج إلى إصلاح وتعمير. (٥)

---

(١) الفاسي، تقي الدين محمد بن علي ، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، جـ١-٧، تح: فؤاد السيد، جـ٨: تح: محمود الطباخي، طبع على نفقة: محمد سرور الصبان، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٩٦٠-١٩٦٩م، جـ١، ص ص ٩٤-١١٦؛ الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، المغانم المطابةفي معالم طابة، (قسم المواضيع)، تح: حمد الجاسر، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، السعودية -الرياض، ، ١٩٦٩م.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، جـ٢، ص١٠١؛ الفاسي، العقد الثمين، جـ١، ص١٨٩، جـ٧ ص٢٧٧؛ صبحي، العلاقات بين مصر والحجاز، ص ص ١٤٦-١٤٨.

(٣) انظر: الفصل السادس: الحركة العلمية والثقافية في الحجاز.

(٤) انظر: الفصل الرابع: الإدارة في الحجاز في عصر دولة المماليك .

(٥) انظر: الفصل الثالث: الصراع بين دولة المماليك والرسوليين في بلاد الحجاز، الأسباب الدينية.

الفصل الثاني

الأحوال السياسية في الحجاز في العصرين الأيوبي والمملوكي

أولاً:- الحجاز تحت النفوذ الأيوبي.

ثانياً:- الحجاز تحت النفوذ الرسولي.

ثالثاً:- الحجاز تحت النفوذ المملوكي.

أولاً:- الحجاز تحت النفوذ الأيوبي.

تطلع صلاح الدين إلى الحجاز واليمن منذ اللحظة الأولى التي تولى فيها حكم مصر لأهميتهما الدينية والاقتصادية والاستراتيجية، فعقد العزم على ضم بلاد اليمن إلى سلطانه لمواجهة الخطر الصليبي الذي أخذ يهدد الأماكن المقدسة في الحجاز، والاستيلاء على تجارة الشرق الأقصى القادمة عبر ميناء عدن والبحر الأحمر، ولكي يجعل من البحر الأحمر بحيرة إسلامية[1]، فأرسل أخاه شمس الدين توران شاه في رجب سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤م إلى اليمن للاستيلاء عليها، فلما وصل إلى مكة المكرمة دخل أميرها في طاعته ودعي للسلطان صلاح الدين على منابرها ثم خلع شمس الدين توران شاه على أميرها وأصحابه وطيب خاطرهم، ثم تابع مسيره إلى اليمن فكان ذلك بداية النفوذ الأيوبي في بلاد الحجاز. [2]

وحدث مع بداية النفوذ الأيوبي في بلاد الحجاز، نزاع بين أولاد الشريف عيسى بن فليته وهما داود ومكثر، وقد حاول الأيوبيون الإصلاح بينهما، ولكن تدخل العباسيين في حلقة النزاع أدى إلى تفاقمه ، وخاصة في مكة؛ ومع ذلك فإن صلاح الدين اكتفى بإجراءات تحقق الأمن والعدالة للسكان والحجاج. [3]

---

(١) عوانمة، أمارة الكرك، ص ص ١٠٧، ١٣١-١٣٥.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، جـ١، ص ص٢٣٨، ٢٤٠ هامش ٥، ٢٤١ ؛ النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، جـ٢٨ تح: محمد أحمد أمين، مركز تحقيق التراث، القاهرة، ١٩٩٢م، ص٣٧٣ وسيشار إليه لاحقاً: النويري، نهاية الأرب؛ الفاسي، شفاء الغرام، جـ٢، ص١١٠؛ أحمد، محمد عبد العال، الأيوبيون في اليمن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، فرع الإسكندرية، ١٩٨٠م، ص٢٨٨ وسيشار إليه لاحقاً: أحمد، الأيوبيون في اليمن؛ المالكي، بلاد الحجاز، ص ص٤٤-٤٩؛ حسين، الحجاز واليمن، ص ص٢٥-٣٠؛ الصائدي، أحمد قايد، لمحة عن العلاقات اليمنية المصرية عبر التاريخ، مجلة كلية الآداب، جامعة صنعاء، ع١٠، ١٩٨٩م، ص ص ٩-٤١وسيشار إليه لاحقاً: الصائدي، لمحة عن العلاقات.

(٣) ابن فهد، عز الدين بن عبد العزيز، غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام، تح: فهيم محمد شلتوت، المملكة العربية السعودية ، جامعة أم القرى ، معهد البحوث العلمية واحياء التراث الإسلامي، مركز إحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة ، من التراث الغسلامي، الكتاب (٤٧)، دار المدني، جده ١٩٨٦-١٩٨٨م جـ١، ص ص٥٣٤-٥٣٥ وسيشار إليه لاحقاً: ابن فهد، غاية المرام.

وخلال حكم الشريف مكثر (٥٧١-٥٨٩هـ / ١١٧٥-١١٩٣م). لإمارة مكة توجه سيف الإسلام طغتكين إلى اليمن، ومر في طريقه إلى مكة المكرمة فدخلها في رمضان سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م، ومنها توجه إلى اليمن لكنه ما لبث أن عاد إلى مكة المكرمة في نفس السنة لأداء فريضة الحج، وخلال مكوثه بمكة منع الأذان بحي على خير العمل، وقتل جماعة من العبيد المفسدين، وقد خشي الأمير مكثر من الأمير طغتكين فتحصن في قلعة أبي قبيس[1] المطلة على الحرم، وقد عرف مكثر بظلمه وقسوته وجمع الأموال الكثيرة من حجاج بيت الله الحرام، مما يسبب لهم تذمرا واعتبروا ذلك ظلما. وقد حاول صلاح الدين تعويض مكثر عن تلك الأموال التي يفرضها على الحجاج، ولكن مكثر لم يكف عن ظلمه وقسوته، وتمادى بأن خطب للخليفة المستضيء بأم الله الحسن بن المستنجد بالله سنة ٥٧١هـ/١١٧٥م. العباسي على منابر مكة، فاضطر الأمير طغتكين إلى تأديبه باسم أخيه صلاح الدين، وبعد أن أتم مهمته أمر بضرب الدراهم والدنانير في مكة باسم أخيه صلاح الدين.[2]

ظل حكم مكة متداولا بين مكثر وداود رغم عداء العباسيين لهما، وكانا ينفردان بشؤونها الداخلية، ثم استأثر مكثر بحكم مكة عشر سنين متتالية، وكان آخرها سنة ٥٩٧هـ/١٢٠٠م، حيث آلت إمارة مكة إلى أسرة جديدة هي أسرة قتادة ومؤسسها أبو عزيز قتادة بن إدريس.[3]

---

(١) أبو قبيس: هو اسم الجبل المشرف على مكة، وقد قام الأشراف ببناء قلعة عليه، فلذلك سميت باسمه (الحموي، معجم البلدان، مجـ١، ص ص ٨٠-٨١).

(٢) أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل ، الروضتين في أخبار الدولتين جـ ١+٢ تح: مطبعة وادي النيل، القاهرة، ١٨٧٠م، جـ٢، ص ص٣٠-٣٤ وسيشار إليه لاحقا: أبو شامة، الروضتين؛ العقيلي، محمد بن أحمد، تاريخ المخلاف السليماني، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، ط٢، ١٩٨٢م، جـ١، ص١٧٦ وسيشار إليه لاحقا: العقيلي، المخلاف السليماني؛ محمد، العلاقات بين مصر والحجاز، ص ص١٥٧-١٦٠.

(٣) ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، جـ٤ تح: حسنين ربيع، مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة ، ١٩٧٢م، ص١٢١ وسيشار إليه لاحقا: ابن واصل، مفرج الكروب؛ الخزرجي علي بن الحسن ، العسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك، مخطوطة مصورة عن المخطوطة المصورة ضمن مشروع الكتاب بوزارة الإعلام والثقافة، صنعاء، ١٩٨١، لدى د. داود المندعي، ق٢٢٦ وسيشار إليه لاحقا: الخزرجي العسجد المسبوك؛ دحلان، أحمد بن السيد زيني ، =

انشغل الأيوبيون بالجهاد ضد الصليبيين الذين احتلوا الساحل الشامي وكونوا مملكة بيت المقدس في فلسطين، ولم يكتفوا بذلك بل امتدت أطماعهم للسيطرة على اليمن والحجاز والبحر الأحمر فقام أرناط بحملتين استهدفتا بلاد الحجاز وسواحلها، وكان ذلك في سنتي ٥٧٧هـ/١١٨١م و٥٧٨هـ/١١٨٢م، ونتيجة لذلك فقد وقف الأيوبيون بشجاعة وحزم أمام هذا التحدي الصليبي للمسلمين ومقدساتهم في الحجاز وقضوا على القوات الصليبية الغازية[١]، كما أن الأيوبيين انشغلوا كذلك بالصراعات التي حدثت بين أمراء مكة، وقد أسفرت هذه الصراعات إلى ظهور أسرة قتادة واستحواذها على الأمارة كما ذكرنا سابقاً. [٢]

وقد تمكن الشريف أبو عزيز بن قتادة بن إدريس العلوي الحسني في مطلع القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي من توطيد الحكم لأسرته في مكة، وكان عظيم الشأن شهماً شجاعاً، فامتد ملكه من حدود اليمن جنوباً إلى المدينة المنورة شمالاً، وكثر عسكره وخافته عرب الحجاز، وكان حسن السيرة عندما تولى مكة، ولكنه ما لبث أن أساء إلى الحجاج وأكثر من المكوس[٣]. وقد حدث تنافس

=خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٩٧٧م، ص ص ٢٠-٢١ وسيشار إليه لاحقاً: دحلان ، خلاصة الكلام، حسين، الحجاز واليمن، ص ص٣٠-٣٦.

(١) العماد الأصفهاني، عماد الدين محمد بن محمد، سناء البرق الشامي (أختصار الفتح بن علي البنداري من كتاب البرق الشامي ٥٥٢-٥٨٣هـ)، تحقيق: فتحية النبراوي، مكتبة الخانجي، مصر ، ١٩٧٩م، ص ١٩٤، ٢٠٧، ٢١٣ وسيشار إليه لاحقاً: العماد الأصفهاني، سنا البرق، ابن واصل، مفرج الكروي، جـ ٢، ص ١٠١ ١٢٧-١٢٩.وعن هاتين الحملتين انظر: بالتفصيل ما كتبه د. يوسف غوانمة، أمارة الكرك، ص ص ١٢٣-١٣٦،.

(٢) ابن جبير، محمد بن أحمد، رحلته المسماة تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، دار بيروت - بيروت، ١٩٧٩م، ص ص ٣١-٣٢ وسيشار إليه لاحقاً: ابن جبير، الرحلة؛ أبو شامة، الروضتين، جـ٢، ص٣٥؛ ابن واصل، مفرج الكروب، جـ٤، ص ١٢١؛ غوانمة، يوسف حسن، أيله (العقبة) والبحر الأحمر وأهميتهما التاريخية والاستراتيجية، دار هشام للنشر والتوزيع، الأردن، إربد، ١٩٨٤م، ص ص ٤١-٤٤ وسيشار إليه لاحقاً: غوانمة، أيله.

(٣)ابن الأثير، عز الدين علي بن ابي الكرم الكامل الكامل في التاريخ، ج ١-١٢ تح: دار صادر- بيروت ، دار بيروت - بيروت ، ١٩٦٦ ، ج١٢، ص ٤٠١ وسيشار إليه لاحقاً: ابن الأثر الكامل. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص ص ١٢١-١٢٢.

شديد بينه وبين شريف المدينة سالم بن قاسم الحسيني سنة ٦٠١هـ/١٢٠٤م وانتهى ذلك بأن احتفظ كل منهما بما في يده. (١)

وأثناء ولاية قتادة في سنة ٦٠٨هـ /١٢١١م. كثرت النزاعات بين أهل مكة والحجاج العراقيين وسبب ذلك رغبة الخليفة الناصر لدين الله في إعادة النفوذ العباسي إلى الحجاز، لكن شخصية قتادة القوية المستقلة حالت دون ذلك. (٢)

وفي سنة ٦١٢هـ/١٢١٥م وصل الملك المسعود صلاح الدين يوسف بن السلطان الملك الكامل إلى الحجاز ومنها إلى اليمن بسبب استيلاء سليمان شاه بن سعد الدين شاهنشاه على بلاد اليمن فألقى المسعود القبض عليه وأرسله إلى مصر. (٣) وفي هذه السنة تجدد الصراع بين قتادة وسالم صاحبي مكة والمدينة فحاصر قتادة المدينة، ولكنه هزم من قبل قوات المدينة وتمكن سالم من أسر عدد كبير من جيش قتادة، كما قدم الشريف جماز من المدينة وأغار على جدة فهزمه قتادة في يوم النحر سنة ٦١٣هـ/١٢١٦م. وقد تمكن قتادة في نفس السنة من هزيمة بني ثقيف في الطائف والاستيلاء عليها. (٤)

ثم إن قتادة أراد مهاجمة أمير المدينة، فسير قواته سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م وقد وصفها ابن واصل بأنها جموع كثيرة، ولكنه مرض بالطريق، فسير أخاه بالجيش ومعه ابنه الحسن بن قتادة. وفي الطريق علم الحسن بأن عمه يريد أخذ البيعة لنفسه

---

(١) ابن الأثير، الكامل ، ج١٢، ص ٢٠٥؛ أحمد، الأيوبيون في اليمن، ص ١٣٦ وما بعدها؛ حسين، الحجاز واليمن، ص ص ٣٦-٤٣.

(٢) ابن الأثير ، الحكامل، جـ ١٢ ، ص ٢٩٧؛ المقريزي، أحمد بن علي، السلوك في معرفة دول الملوك، جـ ١-٢ قام بنشره: محمد زيادة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٧١م، جـ ٣-٤ حققها وقدم لها ووضع حواشيها: سعيد عبد الفتاح عاشور، مطبعة دار الكتب، القاهرة ، ١٩٧٠-١٩٧٢، جـ١، ص ص ١٧٤-١٧٥ وسيشار إليه لاحقاً: المقريزي، السلوك؛ الجزيري، عبد القادر بن محمد (العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي) الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، أعده للنشر: حمد الجاسر، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٨٣م، جـ١، ص ص ٢٦٨-٢٦٩. وسيشار إليه لاحقاً: الجزيري، الدرر الفرائد .

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، جـ٤، ص١٢١، ابن حاتم ، السمط ، ص ص ١٦٥-١٦٧.

(٤) أبو شامة، الروضتين، جـ١، ص ص ٨٩-٩٠، والمقريزي، السلوك، جـ١، ص ص ١٨٠-١٨٥.

بسبب مرض أخيه قتادة. عندئذ اجتمع الحسن بقادة الجند وبعض الأشراف وذكر لهم ثروة عمه، وطلب من بعض مماليكه قتل عمه ففعلوا. وعندما بلغ الأمر إلى والده قتادة أقسم أن يقتل ابنه لفعلته الشنيعة. وعندما عاد الحسن إلى مكة قصد والده ومعه بعض أصحابه، فأعلمه بما حدث معه بشأن عمه. ولكن أباه كان غاضبا منه فشتمه وأغلظ القول له، فما كان من الابن حسن إلا أن قتل والده. ثم دخل الحرم وطلب من الأشراف مبايعته بالإمارة. وبعد أن استتبت له الأمور أرسل لأخيه المقيم في قلعة ينبع على ساحل البحر الأحمر للحضور، فلما حضر قتله أيضا، فهو والحالة هذه قاتل أبيه وعمه وأخيه. (١)

وكان لقتادة ابن آخر اسمه راجح، وقد أساءه ما فعله أخوه، فلما قدم الحاج العراقي سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م، اتصل بأمير الحاج العراقي آق شاه وطلب منه المساعدة في انتزاع مكة من أخيه الحسن. ولكن الحسن تمكن من الانتصار على آق شاه وقتله، فغضب الخليفة العباسي الناصر لدين الله من تصرف الحسن بن قتادة رغم أن الأخير أرسل إليه معتذرا طالبا الصفح، فتم الصلح وعفا الخليفة العباسي عنه. (٢)

وفي سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م قدم الملك المسعود اتسز بن الملك الكامل محمد من اليمن حاجا، وقد حدث خلاف بينه وبين بعثة الحاج العراقية، فقد أمر المسعود أن ترفع أعلام أبيه على جبل عرفة متقدمة على أعلام الخليفة العباسي. وقد أساء هذا التصرف الخليفة في بغداد، وراسل الملك الكامل بذلك، فأرسل الكامل للخليفة يعتذر عن فعلة ولده وطيب خاطره وطلب الصفح فقبل الخليفة عذره. (٣)

وبعد عودة المسعود أراد الشريف راجح بن قتادة إنتهاز الفرصة في انتزاع مكة من أخيه الشريف حسن بن قتادة في سنة ٦٢٠هـ/١٢٢٣م سار بقواته إلى مكة، فلاقته قوات حسن، ولكنه لم يصمد أمام قوات المسعود التي عادة مرة أخرى

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ص ٤٠١-٤٠٢ ابن واصل، مفرج الكروب، جـ٤، ص١٢٣.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، جـ٤، ص١٢٤.

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٤١٣، ابن واصل، مفرج الكروب، جـ٤، ص١٢٥؛ النويري، نهاية الأرب، جـ٢٩، ص ص ١٢١-١٢٣

إلى مكة فهرب، ودخلت قوات المسعود إلى مكة ثانية في نفس العام، فولى المسعود نور الدين عمر بن رسول والياً من قبله على مكة وعاد إلى اليمن، وبذلك أصبحت مكة تحت النفوذ الأيوبي في اليمن. (١)

ظل نور الدين والياً على مكة إلى أن استدعاه منها الملك المسعود الأيوبي لخوفة منه لكثرة الوشاة به عنده ، وولى مكة بعده صارم الدين المسعودي أحد قواده، واستمرت ولايته حتى سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٧م. (٢)

ولما كانت سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م اضطرب أمر الحكم في مكة من جديد وخاصة بعد وفاة الملك المسعود فيها، عندما كان في طريقه إلى مصر (٣)، وكان قد استناب باليمن أستاذ داره عمر بن علي بن رسول(٤)، فاستقل عمر بن رسول باليمن استقلالاً تاماً في سنة ٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م، ثم أخذ ينافس الأيوبيين على حكم الحجاز عامة ومكة المكرمة خاصة في الفترة من سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٥م حتى سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م، وقد تناوب الطرفان خلالها الحكم في الحجاز، ثم نازعت المماليك في السيطرة على بلاد الحجاز والمقدسات الإسلامية فيها. (٥)

---

(١) ابن الأثير، الكامل ، ج١٢، ص ٤١٣؛ ابن واصل، مفرج الكروب، جـ٤، ص١٢٥؛ النويري، نهاية الأرب، جـ٢٩، ص١٢٥؛ أحمد، الأيوبيون في اليمن، ص ص ٢٦٠-٢٦١.

(٢) الفاسي، العقد الثمين، جـ١، ص١٧٤؛ دحلان، خلاصة الكلام، ص ص٢٤-٢٥؛ حسين، الحجاز واليمن، ص ص ٥١-٥٣.

(٣) النويري، نهاية الأرب، جـ٢٩، ص١٥٧.

(٤) النويري، نهاية الأرب، جـ٢٩، ص١٥٩.

(٥) ابن أيبك الدواداري ، أبي بكر بن عبد الله، كنز الدر وجامع الغرر، جـ٧: الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، تح: سعيد عاشور، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٧٢م، ص٣٠٧ وسيشار إليه لاحقاً: ابن أيبك الدواداري ، كنز الدرر؛ عبد الغني، عارف، تاريخ أمراء مكة المكرمة (٨-١٣٤٤هـ) ، دار البشائر، دمشق، ١٩٩٢م، ص٤٧٧ وسيشار إليه لاحقاً: عبد الغني، تاريخ أمراء مكة المكرمة (الاستادار : هو الذي يتولى شؤون مسكن السلطان أو الأمير ومصروفاته المالية وتنفذ فيه أوامره وهو فارس مركب (القلقشندي ، صبح الأعشى، ج٥، ص ٤٥٧، البقلي ، التعريف ، ص ٢٨).

ثانيا: الحجاز تحت النفوذ الرسولي

تمكن نور الدين عمر بن رسول من الاستيلاء على معظم بلاد اليمن، وفي سنة ثم أرسل رسولا إلى الملك الكامل في القاهرة معلنا الطاعة والولاء، وأنه يسال السلطان قبول الهدايا والتحف التي سيرها إليه(1). وفي نفس العام أعلن استقلاله بملك اليمن وتلقب بالملك المنصور(2)، وأراد المنصور الرسولي أن يكون لنفسه دولة قوية يحترمها العالم الإسلامي، وخاصة بعد أن يضم الحرمين الشريفين إلى دولته. ويتضح ذلك من تعيينه الأمير ياقوت المسعودي نائبا عنه بمكة، وهو بذلك يود الهيمنة على الحجاز لما لها من أهمية دينية لدى العالم الإسلامي من ناحية، ولموقعها الاستراتيجي من ناحية أخرى، فهي خط الدفاع الأول عن اليمن تحميه من أي هجوم قد تقوم به إليه قوى قادمة من الشمال وخاصة الدول الأيوبية بمصر والشام، فقد كان بينها وبين الرسوليين منافسة قوية على الحجاز. (3)

ورأى المنصور أن يمد نفوذه إلى الحجاز وخاصة مكة بتدعيمه للشريف راجح ابن قتادة المطالب بإمارة مكة، فأرسل جيشا إلى مكة بقيادة رجل يسمى ابن عبدان، وأرسل معه الشريف راجح الذي كان باليمن وزودهما بأموال كثيرة. وكان أول جيش أرسله عمر بن رسول إلى الحجاز بعد أن أصبح سلطانا على اليمن(4)،

---

(1) النويري، نهاية الأرب، ج29، ص ص159-160.

(2)النويري، نهاية الأدب، ج29، ص 159؛ أحمد، الأيوبيون، ص282.

(3) ابن حاتم اليامي، الأمير بدر الدين، السمط الغالي الثمن في أخبار من الغز باليمن، تح: ركس سمث، جامعة كمبرج، لندن-لوزاك، 1974م، ص ص200-206 وسيشار إليه لاحقا: ابن حاتم اليامي، السمط؛ الخزرجي، علي بن الحسن، العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولية الرسولية، جـ1 عني بتصحيحه وتنقيحه: محمد عسل، دار الآداب، بيروت 1983، جـ2 تح: محمد الأكوع الحوالي، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ط2، 1983م، جـ2، ص ص20، 30-31 وسيشار إليه لاحقا: الخزرجي، العقود اللؤلؤية؛ ابن القاسم، يحيى بن الحسين، غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق وتقديم: سعيد عاشور ومحمد زيادة، سلسلة تراثنا، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1968م، ق1، ص ص420 -421 وسيشار إليه لاحقا: ابن القاسم، غاية الأماني.

(4) ابن أيبك الداوداري، كنز الدرر، جـ7، ص ص 312، 310، أحمد الأيوبيون في اليمن، ص ص289-290.

وقد نزل الجيش بالأبطح[1] لمحاصرة شجاع الدين طغتكين نائب الملك الكامل والذي كان قد وصل إليها في سنة ٦٢٩هـ/١٢٣١م للوقوف أمام أطماع ابن رسول في الحجاز لكنه وجد مقاومة من الجيش الأيوبي وأهل مكة، ولإحباط تلك المقاومة راسل الشريف راجح أهل مكة وذكرهم بإحسان المنصور عندما كان نائباً للمسعود على مكة وأنه سوف يحسن إليهم إذا وقفوا بجانبه، فمالوا إلى جانبه لكونه منهم، الأمر الذي أخاف طغتكين وأدى إلى واضطر للإنسحاب والعودة وعودته إلى ينبع حيث انضم إلى حامية أيوبية مرابطة هناك، ثم خطب للمنصور الرسولي في مكة بدلاً من الأيوبيين. [2]

ونتيجة ذلك اشتد التنافس بينهم وبين الأيوبيين بمصر، فطلب طغتكين من الملك الكامل إرسال قوة عسكرية حتى يخرج راجح بن قتادة والقوة الرسولية. فجهز له الكامل قوة عسكرية كبيرة بقيادة الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ، وهو قائد أيوبي محنك خدم الملك الكامل الأيوبي ، حيث نهج نفس الأسلوب الذي نهجه ابن رسول. وأرسل إلى الشريف أبو سعد الحسن بن علي ابن قتادة أمير ينبع وللأمير شيحة أمير المدينة لمساندة قوته، ونجدة نائبه طغتكين. وقد استطاع طغتكين بهذه القوات من دخول مكة سنة ٦٢٩هـ/١٢٣١م، وقتل ابن عبدان قائد الرسوليين، وبطش بالسكان انتقاماً لميلهم للشريف راجح، ولكن الملك الكامل لأمه على ذلك لأمه سيضر بالسيادة الأيوبية. [3]

---

(١) الأبطح: هو مكان بين مكة ومنى، في مسافة متساوية بينهما ويسمى الآن بالمحصب (الحموي، معجم البلدان، مج جـ١، ص٧٤). (ابن عبدان: أحد قادة الملك المنصور صاحب اليمن حيث كان قد أرسله في جيش إلى مكة برفقة الشريف راجح بن قتادة في سنة ٦٢٩هـ/ ١٢٣١م، فأستولوا علها، فلما حاصرهم الجيش الأيوبي استطاعوا إخراجهم من مكة، وتختلف الرويات في وضع ابن عبدان أنه قتله في تلك الوقعه أم لا، حيث يرد ذكره في أحداث سنة ٦٣٣هـ، ١٢٣٥م).(الفاسي، العقد الثمين، جـ١ ص١٧١، ابن حاتم السمط، ص ٢٠٥).

(٢) المقريزي، السلوك، جـ١، ص ص ١٨٠-١٨٢؛ أحمد، الأيوبيون في اليمن، ص٢٩٠؛ السباعي، أحمد، تأريخ مكة، نادي مكة الثقافي، الكتاب (٦)، مكة المكرمة، ١٩٨٤م، جـ١، ص٢٣٦ وسيشار إليه لاحقا: السباعي، تأريخ مكة.

(٣) ابن الديبع، عبد الرحمن بن علي، قرة العيون بأخبار اليمن الميمون، حققه وعلق عليه: محمد الأكوع الحوالي، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ١٩٧٧م، جـ٢، ص٦ وسيشار إليه لاحقا: ابن-

ففي سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م بعث السلطان المنصور قوة عسكرية إلى مكة بقيادة الشريف راجح ابن قتادة الذي دخل مكة بعد أن تركها ابن شيخ الشيوخ دون قتال. وفي أواخرها أيضاً أرسل الملك الكامل قوة تقدر بسبعمائة فارس بقيادة الأمير علاء الدين آق سنقر الزاهدي لأبعاد الشريف راجح ومن معه من القوة الرسولية عن مكة. فوصل إليها في الموسم وتسلمها دون قتال حيث خرج منها الشريف راجح قبل الاحتكاك بالقوة الأيوبية لكثرتها. وحج الأمير بالناس وطيب قلوبهم لامتصاص غضب المكيين من جراء تصرف طغتكين ونصب ابن مجلي أحد قادة الملك الكامل نائباً عنه في مكة، وترك معه خمسين فارساً، ورجع إلى مصر. (١)

ويبدو أن التنافس بين القوتين الأيوبية بمصر والرسولية باليمن ازداد حدة فكلاهما يرى ضرورة سيطرته على الحجاز ففي سنة ٦٣١هـ/١٢٣٣م جهز الملك المنصور قوة كبيرة، ومعها خزانة مال عظيمة للشريف راجح لإخراج القوة الأيوبية من مكة، وبذلك ضمن ذكر اسمه على منابر الحرم الشريف لكسب سمعة طيبة لدى العالم الإسلامي. (٢) وفي نفس الوقت راسل الخليفة المستنصر العباسي وأهدى إليه الهدايا الثمينة لكسب الاعتراف به حاكماً على اليمن، فوعده الخليفة بخلعة تصله في حج سنة ٦٣١هـ/١٢٣٣م بعرفه. وتحمس وجاء حاجاً لاستلام خلعته لما لهذا من

=الديبع، قرة العيون؛ العصامي، عبد الملك بن حسين، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، المطبعة السلفية ومكتبتها، بيروت، د.ت، جـ٤، ص٢١٧ وسيشار إليه لاحقاً: العصامي، السمط؛ أحمد، الأيوبيون في اليمن، ص ص ٢٩٥-٢٩٦. (شيخ الشيوخ: لقب يطلق على متولي الأشراف من رجال الطرق الصوفيةن وكان الصوفية في عصر المماليك يكونون طائفة كبيرة ولهم احترام خاص. واللقب يشير إلى وظيفة ، فقد ذكر أبو شامة في الروضتين انه بعد وفاة شيخ الشيوخ إسماعيل بن أبي سعد في أيام المستنجد سنة ٥٤١هـ/ ١١٤٦م صار بعده ابنه صدر الدين عبد الرحيم شيخ الشيوخ. أما في عصر الأيوبيين والمماليك فقد كان لقب شيخ الشيوخ لقباً فخرياً يطلق تحديداً على شيخ الخانقاه الصلاحية التي بناها صلاح الدين. وقد أورد القلقشندي في صبح الأعشى نسخة توقيع بمشيخة الشيوخ بالخانقاة الصلاحيسة بالقارة بإسم الشيخ شمس الدين بن النخجواني من إنشاء ابن فضل الله العمري) (ابن فضل الله العمري، التعريف، ص ١٦٥ هامش ١).

(١) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، جـ١، ص٥٠؛ العصامي، السمط، جـ٤، ص٢١٧؛ أحمد، الأيوبيون في اليمن، ص٢٩٢.

(٢) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، جـ١، ص ص٤٧-٤٨؛ الفاسي، شفاء الغرام، جـ٣، ص٢٣٧؛ أحمد، الأيوبيون في اليمن، ص٢٩٢.

الدعم السياسي والمعنوي، لكن ذلك أخاف الشريف راجح الذي خرج من مكة، ولم يدخلها إلا بعد خروج المنصور منها، مما يدل على أن العلاقة التي كانت تربطهم ليست علاقة حسنة. وزاد من غضب المنصور هو عدم وصول الخلعة لاعتراض العربان لقافلة الحج العراقي، ولكنه تسلمها من مندوب الخليفة الذي أرسل بحراً إلى اليمن سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٤م. (١)

وأرسل المنصور كذلك قناديل من الذهب والفضة للكعبة المشرفة على يد قائد حملته لتعزيز الشريف راجح ضد القوة الأيوبية القادمة من مصر(٢)، فقاما بتعليق القناديل في الكعبة. ولكن قبل أن يستعدا للدفاع عن مكة فاجأتهم القوة الأيوبية وأخرجتهم منها. (٣) ويعود ذلك للخلاف الذي نشب بين الشريف راجح وأخوته من ناحية، واهتزاز الثقة بينه وبين بني رسول من ناحية أخرى. بالإضافة إلى الهيبة التي فرضتها القوة الأيوبية التي كان يقودها خمسة من القادة بزعامة الأمير أسد الدين جغريل والذي تمكن من إعادة النفوذ الأيوبي إلى مكة في أواخر سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٤م. (٤)

ولكن الصراع احتدم من جديد بين الطرفين الأيوبي والرسولي، ففي عام ٦٣٣هـ/١٢٣٥م جهز المنصور قوة عسكرية ضخمة بقيادة الأمير شهاب الدين ابن عبدان، وبعث بالأموال الجزيلة للشريف راجح للصرف منها على ما يحقق الهدف الرسولي. وجعل العسكر تحت تصرفه لإعادة مكة إلى السيادة الرسولية ولبناء جسور الثقة بينه وبين الشريف راجح، وخاصة بعد استلامه الخلعة العباسية.

---

(١) ابن فهد، غاية المرام، جـ١، ص٦٠١؛ ابن الديبع، قرة العيون، جـ٢، ص٨.

(٢) ابن حاتم اليامي، السمط الغالي، ص٢٠٨؛ الخزرجي، العسجد المسبوك، ق ق٢٠٠-٢٠١.

(٣) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، جـ١، ص٥٥؛ ابن فهد، غاية المرام، جـ١، ص٦٠٥؛ أحمد، محمد عبد العال، بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية في عهدهما، الهيئة المصرية العامة للكتاب، فرع الإسكندرية، ١٩٨٠م، ص ص٣٣٨-٣٣٩ وسيشار إليه لاحقاً: أحمد، بنو رسول وبنو طاهر.

(٤) ابن واصل، مفرج الكروب، جـ٥، ص ٣٣؛ ابن أيبك الدواداري، كنز الدرر ، جـ٧، ص ص ١١٣-١١٤؛با مخرمة ، تاريخ ثغر عدن، جـ ٢، ص ١٧٦؛ابن فهد، غاية المرام، جـ١، ص٥٥؛ ابن القاسم، غاية الأماني، ق١، ص٤٤٢؛ أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص ص ٣٤٠-٣٤٢.

فخرجت قوات جغريل لمقابلة القوة الرسولية وفاجأتها وهزمتها، فانـــهزمت القـــوة الرسولية وتمكن جغريل من أسر قائدها الشهاب ابن عبدان وأرسله إلى مصر. (1)

ويبدو أن هذه الهزيمة قد أبقت مكـــة تحـــت النفـــوذ الأيوبـــي حتـــى عـــام ٦٣٥هـ/١٢٣٧م، وهذا الأمر لم يحدث منذُ بداية التنافس بينهما. ولكن المنصـــور الرسولي لم يستسلم لتلك الهزيمة بل جهز قوة تتكون من ألف فـــارس مـــن اليمـــن وقادها بنفسه. (2) ويقال أنه استخدم أسلوباً جديداً وهو أغراء القوة الأيوبية ببذلة ألف دينار وحصاناً وكسوة لكل جندي ينضم إلى قواته، فاتت الخطة الرســـولية ثمارهـــا ومع ذلك فإنه خبر غير مؤكد من قبل المصادر التاريخية التي ذكرته. وفـــي نفـــس الوقت أرسل للشريف راجح لمقابلته في الطريق وجهزه بثلاثمائة فارس ليتوجه مـــع الخط الساحلي محاذياً للسلطان الرسولي. وذلك لحمايته من أي هجوم بحري أيوبـــي مفاجئ، وللوصول مبكراً إلى مكة حتى لا تفشل خطته التـــي استمال بـــها القـــوة الأيوبية. وعند سماع جغريل بقرب وصول القوة الرسولية، ووقوع قواته تحت تأثير الإغراءات المادية قام بإحراق أثقاله وهرب إلى المدينة وهناك وصلته أخبار وفـــاة الملك الكامل سلطان مصر عندئذٍ قرر العودة إلى مصر. فبشـــر الشـــريف راجـــح المنصور الرسولي بما حصل ففرح لذلك وأتى مكة معتمراً، وكان ذلك في رجـــب سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٧م. (3)

---

(1) ابن أيبك الدواداري، كنز الدرر ، جـ٧ ، ص ٣١٦؛ العصامي، السمط، جـ٤، ص٢١٨؛ وأحمـــد، بنـــو رسول وبنو طاهر، ص٣٤٣؛ وأحمد، الأيوبيون في اليمن، ص٢٩٣.

(2) ابن الديبع، عبد الرحمن بن علي، بغية المستفيد في تاريخ مدينة زبيـــد، تـــح: عبـــد الله حبشـــي، مركـــز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ١٩٧٩م، ص ص٨١-٨٣ وسيشار إليه لاحقـــاً: ابـــن الديبـــع، بغيـــة المستفيد؛ ابن الديبع، عبد الرحمن بن علي، الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيـــد، تـــح: يوسف شلحد، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، دار العودة، بيروت، ١٩٨٣م، ص٨٩ وسيشـــار إليه لاحقاً: ابن الديبع، الفضل المزيد.

(3) ابن حاتم، السمط الغالي، ص٢١٧؛ ابن عبد المجيد، تاج الدين عبد الباقي، بهجة الزمن في تاريخ اليمـــن، تح: عبد الله الحبشي ومحمد السنباني، دار الحكمة اليمانية - صنعاء، ١٩٨٨، ص ص١٤٣-١٤٤ وسيشـــار إليه لاحقاً: ابن عبد المجيد، بهجة الزمن؛ الخزرجي، العقود اللؤلؤية، جـ١، ص ص ٦١-٦٢.

تصدق المنصور بالأموال الكثيرة بمكة، وترك بها قوة قوامها مائة وخمسون فارساً تحت قيادة ابن التعزي وابن الوليد(١)، ورجع المنصور إلى اليمن ودامت ولايته على مكة إلى سنة ٦٣٧هـ/١٢٣٩م. ويبدو أن ذلك لم يكن خوفاً أو استسلاماً من الدولة الأيوبية بمصر أو عزوفاً عما يحدث بمكة وإنما كان ذلك بسبب المشاكل والخلافات التي استشرت بين الأيوبيين.(٢)

قام الجانب الرسولي باستغلال هذه الظروف التي ابتليت بها الدولة الأيوبية فوطدوا سلطتهم بمكة. ولكن الملك الصالح نجم الدين أيوب قرر إعادة السيادة الأيوبية على الحرمين الشريفين، فجهز في سنة ٦٣٧هـ/١٢٣٩م قوة عسكرية من ألف فارس تحت قيادة أمير المدينة شيحة بن قاسم فقدم إلى مكة وتمكن من إخراج القوة الرسولية منها وخطب للملك الصالح. (٣) إلا أن ذلك لم يستمر طويلاً لعدم رضا المنصور الرسولي عما حدث فأرسل قوة للشريف راجح ومعها ابن النصيري لإبعاد القوة الأيوبية فترك شيحة مكة بوصول القوة الرسولية، وتوجه إلى مصر وأخبر الملك الصالح بما حصل، فجهزه بقوة دخل بها مكة بعد خروج القوة الرسولية وحج الناس في هذه السنة ٦٣٨هـ/١٢٤٠م بكل هدوء. (٤)

---

(١) الخزرجي، العسجد المسبوك، ق ق١٩٨-١٩٩؛ الفاسي، العقد الثمين، جـ٨، ص١٧، ١٧٤. (ابن التعزي: أحد قادة الملك المنصور الرسولي، وكان قد تركه بمكة مع قائد أخر يدعى ابن الوليد لما توجة من مكة إلى اليمن سنة ٦٣٦هـ/١٢٣٨م، وأنهما اقاما بمكة حتى انقضت هذه السنة، وظل حياً حتى سلطنة الملك المظفر بن المنصور حيث كان قد أمره في سنة ٦٦٦هـ/ ١٢٦٧م بتحلية بساب الكعبة (الفاس، العقد الثمين، جـ٨، ص ص ١٧٠-١٧١) (ابن الوليد: أحد قادة الملك المنصور وكان قد تركه برفقة قائد أخر يدعى ابن التعزي لتنظيم شؤون مكة الداخلية ولقيادة الحامية الرسولية لما توجه إلى مكة سنة ٦٣٦هـ/١٢٣٨م. وظل بمكة حتى نهاية تلك السنة (الفاس، العقد الثمين، جـ٨ ، ص ١٧٤).

(٢) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، جـ١، ص٦٢، وابن فهد، النجم عمر محمد بن محمد، أتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق وتقديم: فهيم شلتوت، المملكة العربية السعودية، جامعة أم القرى، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، مكة المكرمة، دار المدني - جدة، ١٩٨٤م، جـ٣، ص٥٣ وسيشار إليه لاحقاً: ابن فهد، أتحاف الورى.

(٣) الفاسي، شفاء الغرام، جـ١، ص٢٣٦؛ المقريزي، السلوك، جـ٢، ص٣٣٠؛ ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص ص ٥٤-٥٦.

(٤) المقريزي، السلوك، جـ١، ص٣٠٠؛ ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص٥٦؛ العصامي، السمط، جـ٤، ص٢١٨. (ابن النصيري: وهو مملوك الملك المنصور الرسولي، كان قد جهزه وبرفقته الشريف راجح-

ويبدو أن هذه الفترة هي أكثر فترات المنافسة بين الأيوبيين والرسوليين على مكة، لكثرة الحملات وضخامتها وتنوع قادتها فقد سعى كل منهما لاستمالة أحد أشراف أمراء الحجاز إلى جانبه لنيل الشرعية وإستمالة السكان إليه. وفي سنة ٦٣٩هـ/١٢٤١م قام السلطان المنصور الرسولي بتجهيز الشريف علي بن قتادة بقوة وارساله إلى مكة . فلما علمت القوة الأيوبية بذلك طلبت النجدة من السلطان الأيوبي الذي أرسل بدوره قوة بقيادة ابن برطاس(١) وابن التركماني(٢). فتوقف الشريف علي بالسرين(٣) عندما بلغه نبأ القوة الأيوبية القادمة، وراسل المنصور الرسولي يخبره بما حصل. فتجهز المنصور بنفسه على رأس قوة كبيرة، فانسحبت القوة الأيوبية من مكة بعد إحراقهم لدار السلطنة بما فيها حتى لا تستخدمها القوة الرسولية التي دخلتها في رمضان سنة ٦٣٩هـ/١٢٤١م. (٤)

وأثناء وجود المنصور بمكة قام بإصلاحات كثيرة وأنفق أموالا طائلة لكسب ود الناس إليه، وأثناء ذلك وصل إليه الأمير مبارز الدين بن برطاس أحد قادة

=بن قتادة في عسكر جرار إلى مكة، لمقابلة الأمير شيحة بن قاسم صاحب المدينة وأصحابه الذين كانوا قد أستولوا على مكة للأيوبيين من الشريف راجح، فلما سمع بهم شيحه هرب من مكة وذلك في سنة ٦٣٧هـ (الفاسي، العقد الثمين، جـ٨، ص ١٧٤).

(١) هو علي بن الحسين بن برطاس ولي مكلة للملك المظفر صاحب اليمن حيث جهزة في شوال سنة ٦٥٢هـ إلى مكة في مائتين فارس فجرت بينه وبين الشريفين: ابي نمي ، وادريس بن قتادة وقة بمشهورة حيث لقية الأشراف على باب مكة فكسوهم وقتل منهم جماعة ، ودخل مكة وحج بالناس، ثم أنه بالمحرم من سنة ٦٥٣هـ جمعة أشراف مكة جمعاً عظيماً وقصدوا الأمير مبارز الدين، وحاصروه في مكة ودخلوها عليه من رؤوس الجبال، وقاتلهم في وسط مكة فكسروه، وقتل جماعة من أصحاب وأسروه، فاشترى نفسه منهم، وعاد إلى اليمن هو الجند الذين كانوا معه (الفاسي، العقد الثمين، جـ٦ ص ص ١٥٢-١٥٤، مجهول، تاريخ الدول الرسوليه، ص ٣١، ابن عبد المجيد، بهجة الزمن، ص ص ٩٢-٩٥).

(٢) ابن التركماني: هو احد قادة الملك المنصور صاحب اليمن، كان قد أرسله إلى مكة برفقة الأمير مبارز الدين بن برطاس لمساعدته في طرد القوه الأيوبية فيها ومساعدته في إدارة شؤون مكه، ولما سمعت القوة الأيوبية بقدومهم هربت، وأرسلو البشارة بالنصر للملك المنصور ففرح بذلك (الخزرجي، العقود اللؤلؤية ، جـ ١، ص ٦٩) وقيل انه قدم مكة سنة ٦٣٨هـ، وأقام بها إلى رمضان سنة ٦٣٩هـ (الفاسي ، شفاء الغرام ، ج٢، ص ٢٠١، المقريزي السلوك، جـ١ ص ص ٣١٢-٣١٣).

(٣) السرين، هي بليده قريب من مكة، على ساحل البحر بينهما وبين مكة ٤ أو٥ أيام (الحموي، معجم البلدان، مج ٣، ص٢١٩).

(٤) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، جـ١، ص٦٩.

الأيوبيين ومعه رجاله الراغبين بخدمة المنصور. ثم إنه أراد إنهاء النفوذ الأيوبي بالحجاز مستغلاً خلافاتهم وصراعهم على السلطة. فقام بشراء قلعة ينبع من الشريف أبو سعد الذي قربه منه، فهدمها حتى لا يستخدمها الأيوبيون في حملاتهم. [1] ورتب قوة عسكرية بقيادة الأمير فخر الدين بن الشلاح([2]) قبل مغادرته مكة، ثم أضاف إليه الأمير فيروز، وطلب من الشريف أبو سعد أن يساندهم بقواته من وادي مر الظهران. [3]

وفي سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م توجه المنصور إلى اليمن بعد استقرار الأمور له في مكة، ولكي يبعد النفوذ الأيوبي من مكة عمل على تمتين الروابط بينه وبين أشراف مكة عن طريق المصاهرة فزوج ابنته عازبة من أحد أشراف مكة وهو بهذا يحاول إبقاء نفوذ الرسوليين في مكة بدعم من أشرافها([4])، خاصة بعد رفض شيخ الحرم قبول عرض الملك المنصور بكسوة الكعبة عندما تمزقت سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٥م. [5]

---

(١) ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص٥٨.

(٢) الأمير فخر الدين الشلاح: مملوك الملك المنصور صاحب اليمن، أستنابه بمكة لما استولى عليها في رمضان سنة ٦٣٩هـ، وعزله بابن المسيب اليمني في سنة ٦٤٦هـ فذكر الجندي مؤرخ اليمن: أن الشلاح قام بضبط الحجاز قياماً مرضياً بحيث ابتنى بين المدينتين حصوناً ورتب فيها الرتب، وبنى المصانع (الفاسي، العقد الثمين، جـ ٧ ، ص ص ١٧٥-١٧.

(٣) ابن نظيف الحموي، محمد بن علي، التاريخ المنصوري المسمي تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان، عني بنشره وتحقيقه: أبو العيد دودو، مراجعة: عدنان درويش، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، مطبعة الحجاز، دمشق، ١٩٨١م، ص٢٥٠ وسيشار إليه لاحقاً: ابن نظيف الحموي، التاريخ المنصوري؛ الفاسي، العقد الثمين، جـ١، ص١٧٥؛ ابن الديبع، قرة العيون، ق٢، ص١٥ (مَرّ الظهران: وادٍ قرب مكة وعنده قرية يقال لها مَرّ الظهران وبها عيون ونخيل كثير (ياقوت، معجم البلدان، مـج٤، ص٦٣). (وادي مر الظهران: موضع على مرحلة من مكة، ومرٌّ القرية، والظهران: هو الوادي، بمر عيون كثيرة ونخل وجميز وتقطن به قبال أسلم، وهذيل، وغاضرة (ياقوت، معجم البلدان، مـج ٥، ص ١٠٤).

(٤) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، جـ١، ص٦٩؛ ابن فهد، أتحاف الورى، جـ١، ص٦٠٥.

(٥) العصامي، السمط، جـ٤، ص٢١٥.

وفي عام ٦٤٦هـ/١٢٤٨م عين المنصور ابن المسيب اليمني[١] على مكة، حيث ألزمه بدفع مبالغ طائلة لدعم الخزينة الرسولية، مما جعل ابن المسيب يسيء معاملة السكان والحجاج ويعمل على جمع الأموال ليفي بالتزامه اتجاه سيده من جهة وليثري نفسه من جهة أخرى، فساءت سيرته وسيرة الدولة الرسولية. [٢] مما دعا الأشراف العمل على استعادة حكم مكة، وتم لهم ذلك على يد الشريف أبو سعد الحسن بن راجح بن قتادة، حيث ساعدته الظروف على ذلك، وخاصة وفاة الملك المنصور في سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م. وقد أدى ذلك إلى فتور في العلاقات بين الرسوليين والأشراف، وبذلك انتهت المنافسة الأيوبية الرسولية لتبدأ المنافسة المملوكية الرسولية على الحجاز، والتي اتخذت أشكالاً دبلوماسية وأخرى عسكرية.[٣]

---

(١) ابن المسيب اليمني: ولاه الملك المنصور الرسولي صاحب اليمن مكة في سنة ٦٤٦هـ، عوضاً عن فخر الدين بن الشلاح بعد ان تعهد بدفع مالاً يؤديه من الحجاز، ودفع نفقات الجند وأعلاف مئة فرس في سنة ، فأعاد الجبايات والمكوس بمكة، وأستولى على الصدقة اليت كانت تصل من اليمن، ومنع الجند النفقة فنفروا عنه وكان ظالماً ، فوثب عليه الشريف أبو سعد الحسن بن علي بن قتادة وقيدة أمام أعيان الحرم لتحققه من مخالفته لأمر السلطان وكان القبض عليه في ذي القعدة من سنة ٦٤٧هـ، (الفاسي، العقد الثمين، جـ٧، ص ص ١٧٢-١٧٤).

(٢) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، جـ١، ص٧٧؛ ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن، حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، جـ١ تح: فهيم شلتوت، جمهورية مصر العربية، وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٠م، ص٥٢٧ وسيشار إليه لاحقاً: ابن تغري بردي، حوادث الدهور؛ ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص٦٧.

(٣) ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة جـ ١-١٦، تح: فهيم شلتوت، الهيئة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٣-١٩٧٢م ، جـ٦، ص٣٦٤، ٣٧١ وسيشار إليه لاحقاً: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة؛ ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، جـ١-٢، ٤، ٦، ٧تح: محمد محمد أمين، جـ٣، ٥ تح: نبيل عبد العزيز، مركز تحقيق التراث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مطبعة دار الكتاب، القاهرة، ١٩٨٤-١٩٩٣م، جـ٣، ص٢٥٠ وسيشار إليه لاحقاً: ابن تغري بردي، المنهل الصافي؛ المسالكي، بلاد الحجاز، ص٨٣؛ السباعي، تأريخ مكة، جـ١، ص٢٢٨.

ثالثاً: الحجاز تحت النفوذ المملوكي

انشغل عز الدين أيبك أول سلطان مملوكي بالأمور الداخلية والخارجية التي أحاطت به عن شؤون الحرمين الشريفين، حتى مجيء السلطان الظاهر بيبرس إلى السلطة (٦٥٩-٦٧٧هـ/١٢٦٠-١٢٧٨م)، الذي أحيا الخلافة العباسية بالقاهرة لكسب الدعم الديني ولتحسين صورة المماليك أمام الرأي العام الإسلامي ولاجتماع كلمة المسلمين لمواجهة الأخطار الخارجية خاصة التتار. ومن ثم سعى للسيطرة على الحجاز لما للأماكن المقدسة من أهمية خاصة لدى المماليك، خصوصاً وأنهم غرباء عن الديار الشامية والمصرية، لذا عملوا على بناء المدارس والمساجد وحماية المقدسات الإسلامية والعناية بها في كل من القدس ومكة والمدينة. (١)

وقد حاول الرسوليون ملء الفراغ السياسي في الحجاز، لكن المماليك في مصر رفضوا تقليص نفوذهم على الحرمين الشريفين لإثبات شرعيتهم أمام العالم الإسلامي، مما أدى إلى تنافس بين المماليك والرسوليين. (٢)

طمع أمراء مكة في التحالف مع قوة قريبة منهم لمساعدتهم وقت الحاجة، ومن هؤلاء الشريف راجح بن قتادة وابن أخيه الشريف أبي نمي، ومحاولتهما الانفراد بالسلطة في الحجاز. إلا أن ملك اليمن المظفر الرسولي (٦٤٧-٦٩٤هـ/١٢٤٩-١٢٩٤م) استغل ذلك فأرسل قائده مبارز الدين ابن برطاس سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م للسيطرة على مكة، ولكنه فشل. فأخرجه الأشراف عائداً إلى اليمن، ولم يثنِ ذلك عزم المظفر فقام هو نفسه بقيادة حملة عسكرية في السنة التالية، ودخل مكة وتصدق بها وكسا الكعبة، وخرج منها بعد أن أنهى الخلاف وأصلح بين

(١) المقريزي ، السلوك، جـ١، ص ص ٣٥١، ٣٤٦، ٤١٩، ٤٣٦، ٤٥٦، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ٦، ص٣٧١؛ عاشور، سعيد عبد الفتاح، العصر المماليكي في مصر والشام، (د:ن)، القاهرة، ١٩٦٥م، ص ص ٧، ٣٢، ٣٦ وسيشار إليه لاحقاً: عاشور، العصر المماليكي؛ عاشور، سعيد عبد الفتاح، الظاهر بيبرس ، مكتبة مصر للثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية للثقافة والترجمة والطباعة والنشر، مطبعة مصر، ١٩٦٣م، ص ص ٣٣-٨٩ وسيشار إليه لاحقاً: عاشور، الظاهر بيبرس؛ غوانمة، يوسف حسن، التاريخ الحضاري لشرقي الأردن في العصر المملوكي، دار الفكر، عمان، ط٢، ١٩٨٢م، ص ص١٢٧، ١٦١ وسيشار إليه لاحقاً: غوانمة، التاريخ الحضاري.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ ٤ ، ص ٢٧٢؛ الفاسي، العقد الثمين، جـ٣، ص ص ٣٩-٤١.

أبي نمي وعمه. إلا أن النـزاع تجدد بينهما مرة أخرى وبعد عودته أدرك أبو نمي أهمية القوة المملوكية النامية بمصر فتطلع إليها تاركاً جانب المظفر الرسولي وقد ساعده ذلك في تثبيت سيطرته على مكة. (١)

وقد بدأ النفوذ المملوكي في الحجاز سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٦م عندما وفد من المدينة المنورة الشريف بدر الدين بن مالك بن منيف بن شيحة ليشكو إلى السلطان من الشريف جماز الذي حرمه من المشاركة في الإمارة التي كانت مناصفة بين أبيه ووالد جماز فاستجاب السلطان الظاهر بيبرس له، وكتب إلى جماز بأن يسلمه نصف الإمارة، وأعطاه تقليداً بذلك وبنصف أوقاف المدينة والشام ومصر فأمتثل جماز لذلك. (٢)

أما مكة، فقد حانت الفرصة لتدخل بيبرس في شؤونها عندما نشب الخلاف للمرة الثالثة بين إدريس بن قتادة وابن أخيه سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٨م وكانا يتوليان الأمارة معاً. فقد احتج أبو نمي بأنة رأى من عمه ميلاً لصاحب اليمن وتحاملاً على صاحب مصر. فأخرجه وخطب لبيبرس. ثم كتب أبو نمي إلى مصر طالباً توليته أميراً بمفرده، فلم يجبه السلطان إلى طلبه بل اقترح عليه عقد الصلح مع عمه. ورأى بيبرس في التجاء أبو نمي إليه فرصة لتوطيد سيطرته وتأكيد سلطانه، فحج إلى مكة سراً سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٨م، فلما وصل إلى المدينة هرب أميراها منه، بينما استقبل في مكة استقبالاً حاراً. (٣)

---

(١) مؤلف مجهول، تاريخ الدولة الرسولية، تح: عبدالله حبشي، تنفيذ دار الجيل، صنعاء، مطبعة الكاتب العربي، دمشق، ١٩٨٤م، ص ٣١ وسيشارة إلايه لاحقاً: مجهول تاريخ الدولة الرسولية؛ الفاسي، شفاء الغرام، جـ١، ص ص ٢١٨-٢١٩؛ ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص٨٣.

(٢) النويري، نهاية الأرب، جـ٢٨، ص٦٤؛ المقريزي، السلوك، جـ١، ص٥٦٠؛ المقريزي، أحمد بن علي، الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، نشر لأول مرة وحققه وعلق حواشيه وقدم له ووضع فهارسه: جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي مصر، ومكتبة المثنى ببغداد، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٥م، ص ص٨٦-٨٧؛ عاشور، الظاهر بيبرس، ص١٠٧.

(٣) ابن حبيب: حسن بن عمر، درة الأسلاك في دولة الأتراك، جـ١ شريط رقم ٣٣٩وجـ٢ شريط رقم ٥٣٣، جـ٣ ، شريط رقم ٣٣٩مخطوط لدى مكتبة الجامعة الأردنية، مركز الوثائق والمخطوطات، جـ١، ق٤٠ وسيشار إليه لاحقاً: ابن حبيب، درة الأسلاك؛ ابن دقماق، إبراهيم بن محمد، الجوهر الثمين في سيرة الملوك والخلفاء والسلاطين، تح: سعيد عاشور، مراجعة: أحمد دراج، المملكة العربية السعودية، جامعة-

وقد أسفرت هذه الحجة عن عدة نتائج: فقد ثبتت السيادة المملوكية عندما صار السلطان حكماً بين الأمراء، كما أن بيبرس قام بإجراء هام وهو إقامة نائب عنه بمكة هو الأمير شمس الدين بن مروان يرجع الأشراف إليه في خلافاتهم، ويكون الحل والعقد على يديه. (١)

ويذكر بعض المؤرخين أن من أسباب اهتمام بيبرس بالحجاز، يعود إلى ثلاثة أمور هي: أولها: تنصيب نفسه حامياً للحرمين الشريفين، وثانيها: تأكيد سيطرته على الحجاز في وجه الرسوليين في اليمن، وثالثها: لكي يسيطر على الطرق التجارية المارة عبر البحر الأحمر.(٢)

بالإضافة لما سبق، فإن الدولة المملوكية، كانت بحاجة لدعامة قوية في تثبيت أركانها، فلم يكن هناك دعامة أقوى من الدين والتمسك به أمام الرأي العام الإسلامي . ولذلك نجد أن جميع الاعتبارات السابقة، تخدم هدفاً واحداً هو تثبيت السلطة المملوكية في مصر بتدعيمها في الحجاز كقوة طليعية في وجه الفوضى الداخلية والعدوان الخارجي. ومع ذلك بقي نظام الوراثة في حكم الحرمين دون تغيير، وظل أبو نمي مصدر قلق للدولة المملوكية وخاصة بعد أن قتل عمه إدريس واستقل بإمارة مكة وذلك في سنة ٦٦٩هـ/١٢٧٠م. (٣)

وكان أبو نمي وقت اشتداد نزاعاته مع عمه يلجأ إلى اضطهاد ونهب الحجاج، مما أثار غضب بيبرس وخلفائه من سلاطين المماليك. فكانوا يعملون على

=أم القرى، مركز البحث وإحياء التراث الإسلامي، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، الكتاب (٣٩)، مكة المكرمة، ١٩٨٢م، جـ١، ص١٠٩ وسيشار إليه لاحقاً : ابن دقماق ، الجوهر الثمين ؛ الفاسي، العقد الثمين، جـ١، ص٤٥٩؛ المقريزي، السلوك، جـ١، ص ص ٧٢٤-٧٢٥؛ السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، حُسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٩٦٧-١٩٦٨م، ص ١٥٨ وسيشار إليه لاحقاً: السيوطي، حُسن المحاضرة.

(١) الفاسي، شفاء الغرام، جـ١، ص٢١٩؛ العقد الثمين، جـ١، ص ص ٤٥٧-٤٦٧.

(٢) المقريزي، السلوك، جـ١، ص٥٨١، ٦٠١؛ ابن فهد؛ أتحاف الورى، جـ٣، ص ص٩٤-٩٩؛ عاشور، الظاهر بيبرس، ص ص١١٣-١١٥.

(٣) الفاسي، العقد الثمين، جـ١، ص٤٦٦.

استرضائه حينا وتهديده حينا آخر، لكن تمادي أبو نمي في ذلك أغضب بيبرس، فكتب إليه مهددا إياه، فسارع للاعتذار والعودة لطاعة السلطان بيبرس، فرضي عنه. (١)

وقد حالت صعوبات عديدة دون تغلغل النفوذ المملوكي في الحجاز، وبالتالي سيطرتهم عليها بشكل كامل بعد بيبرس، ومن تلك الصعوبات: الدولة الرسولية التي طمحت دائما بمد نفوذها على الحرمين الشريفين، لما لذلك من أهمية سياسية ودينية لدولتهم في الداخل والخارج. وقد أرسلوا حملاتهم المتكررة لتحقيق هذا الهدف وكان ذلك في عهد كل من المنصور، والمظفر، والأشرف خليل وكان آخرها محاولة الناصر أحمد الرسولي سنة ٨٠٩هـ/١٤٠٦م. (٢)

أما ثاني تلك الصعوبات: فهي الصراع الداخلي بين أمراء مكة، ثم أمراء مكة. والمدينة المنورة، وقد أدى هذا الصراع إلى كثير من الفتن في مواسم الحج، وتدخل المماليك والرسوليون في شؤون الحجاز الداخلية، وتذبذب ولاء الأشراف، وعدم ثقة حكام الدولتين بهم. (٣)

أما ثالث الصعوبات: فكان الاختلاف المذهبي بين الرسوليين والمماليك، فالمماليك كانوا على المذهب السني بينما كان الأشراف شيعة، فلم يعترف الأشراف بسلطان المماليك الا مضطرين وكانوا ينقضون العهود عندما تسنح الفرصة بذلك.(٤)

---

(١) الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد، المقنع في أخبار الملوك والخلفاء وولاة مكة الشرفاء، تح: محمد التويخي، دار الملاح للطباعة (د.م)، ١٩٨٦م، ص ص ٢٢-٢٣ وسيشار إليه لاحقا: الفاسي، المقنع؛ الجزيري، الدرر الفرائد، جـ١، ص٥٨٣.

(٢) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، جـ١، ص ص ٥٣، ٦٠؛ ابن القاسم، غاية الأماني، ق١، ص ص٤٢٠-٤٢١؛ دحلان، خلاصة الكلام، ص ص٢٥-٢٨.

(٣) النويري، نهاية الأرب، جـ٢٨، ص ص ٦٤-٦٥؛ القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٤، ص٣٠٢؛ الفاسي، العقد الثمين، جـ١، ص٤١٤.

(٤) الفاسي، العقد الثمين، جـ١، ص ٤١٤، ٤٦٦؛ وشفاء الغرام، جـ١، ص٢٧٥؛ المقريزي، السلوك، جـ١، ص٨١، ٦٠١؛ ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص ص ٩١-٩٣.

أما الرسوليون فكانت فرصتهم أقوى في السيطرة على الحجاز لأنهم زيدية والزيدية من الشيعة، ولم يؤدِ ذلك إلى قطيعة دائمة لتخوف الأشراف من قوة مصر من ناحية، ولأن الزيدية من معتدلة الشيعة من ناحية ثانية. (١)

أما رابع تلك الصعوبات وآخرها فهي: انشغال المماليك بالأمور الخارجية (التتار، الصليبيون،)، وبالأمور الداخلية (ومنها: النزاع على منصب السلطنة، ثورات الشام، وثورات العربان) وقد أدى ذلك إلى: أما أن يستقل الأشراف في إمارة مكة أو أن يدينوا بالولاء لملوك اليمن. هذا بالإضافة إلى الأزمات التي كانت تحدث مع أمراء الحاج المصري، ومن أمثلة ذلك تنكر الشريف أبو نمي للسلطان قلاوون، وخطبته للمظفر الرسولي، رغم قسمه باليمين بالولاء والطاعة له. (٢)

وفي عهد المماليك الجراكسة طرأت تغييرات على العلاقة بين مصر والحجاز، ففي عهد أول سلاطينها برقوق (٧٨٤-٨٠١هـ /١٣٨٢-١٣٩٨م) خف المظهر الديني للعلاقة بينهما، وقوي شأن الطابع الاقتصادي البحت. فلم يهتم برقوق وخلفاؤه بمن يتولى أو يعزل بقدر ما اهتموا بأمن موانئ ينبع وجدة، وطرق القوافل التي تخترق الحجاز، وتجعل من مكة سوقاً تجارياً هاماً. كما احتكروا السلع التجارية القادمة من الشرق الأقصى عبر عدن واليمن والحجاز وذلك لرغبتهم وحاجتهم لجمع الأموال وتقوية موارد الدولة. (٣)

وقد اهتم السلاطين المماليك بتولية أمير قوي يجمع الحجاز كله تحت قيادته، لذا فوض الناصر فرج (٨٠٧-٨١٣هـ /١٤٠٤-١٤١٠م) الحسن بن عجلان إمارة

---

(١) ابن حجر، شهاب الدين أحمد، إنباء الغمر بأبناء العمر، طبع: بإعانة وزارة المعارف الحكومية العالية الهندية، السلسلة الجديدة من مطبوعات دائرة المعارف ١١/٩، تحت مراقبة: محمد عبد المعيد خان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٨٦م، جـ١، ص١١٥ وسيشار إليه لاحقاً: ابن حجر، إنباء الغمر؛ السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن، التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، عني بطبعه ونشره: أسعد طرابزوني الحسيني، مطبعة دار نشر الثقافة، القاهرة، ١٩٧٩-١٩٨٠م، جـ٢، ص١٠٥ وسيشار إليه لاحقاً: السخاوي، التحفة اللطيفة.

(٢) ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٤، ص ص ٣٧٨، ٣٨٥، ٤٠٥، ٤١٧.

(٣) عبد السيد، حكيم، قيام دولة المماليك الثانية، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٧م، ص١٥٥ وسيشار إليه لاحقاً: عبد السيد، قيام دولة المماليك.

مكة سنة ٨١١هـ /١٤٠٨م، والنظر في أمرة المدينة أيضاً، وظل في أمرتها حتى سنة ٨٢٩هـ/١٤٢٥م، وخلفه ابنه بركات وبقي في الأمرة حتى سنة ٨٤٦هـ/١٤٤٢م، حيث عزله السلطان جقمق لشكه به، وعين بدلاً منه أخاه علي الذي مات مسجوناً بالقاهرة سنة ٨٥٣هـ /١٤٤٩م. (١) ثم تداول الأمرة بعده أبناء وأحفاد عجلان كان آخرهم الشريف بركات الذي أدرك الفتح العثماني سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م. (٢).

وأما تاريخ المدينة في عهد الجراكسة، فهو تابع في غالبه لتاريخ مكة، إذ استمرت الأسرة الحسينية في الحكم، وساد العنف نزاعات الأمراء بسبب تدخل المماليك وامراء مكة في العزل والتولية، وكان آخرهم مانع بن علي، وتولى المدينة بعده عدد من صغار الأمراء الذين كانوا دائماً أشبه بالدمى في يد سلاطين المماليك في مصر. (٣)

---

(١) الفاسي، العقد الثمين، جـ٤، ص١٥٤؛ المقريزي، السلوك، جـ٤، ص٧٧، ٥١٠، ٥٢٧؛ العيني، بدر الدين محمود، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، جـ ١-٤، تحقيق وتعليق: محمد محمد أمين، مركز تحقيق التراث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧-١٩٩٢م، جـ٤، ص٤٠ وسيشار إليه لاحقاً: العيني، عقد الجمان؛ السخاوي، التحفة اللطيفة، جـ٣، ص٤٠٨؛ السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، جـ ١-١٢، تحقيق وطبع: أوفست كونروغرافير - بيروت، منشورات دار الحياة - بيروت، د.ت، جـ٥، ص٢١١ وسيشار إليه لاحقاً: السخاوي، الضوء اللامع.

(٢) ابن إياس، محمد بن أحمد، بدائع الزهور في وقائع الدهور، جـ ١+٢+٥، حققها وكتب لها المقدمة: محمد مصطفى زيادة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٢، ١٩٨٢-١٩٨٤م، جـ٥ ، ص١٥٨ وسيشار إليه لاحقاً: ابن إياس، بدائع الزهور.

(٣) المقريزي، السلوك، جـ٣، ص ص٧٠٠، ٧٠٩؛ ابن حجر، أنباء الغمر، جـ٦، ص ص١٧٩-١٨٠.

الفصل الثالث

الصراع بين دولة المماليك والرسوليين في بلاد الحجاز

أولاً:- أسباب الصراع

أ- الأسباب السياسية.

ب - الأسباب الدينية.

جـ - الأسباب الاقتصادية.

ثانياً:- نتائج الصراع.

ثالثاً:- دور أشراف مكة في الصراع.

الصراع بين دولة المماليك والرسوليين في الحجاز

أولا: أسباب الصراع

أ- الأسباب السياسية

١- السيطرة على الحجاز والمقدسات الإسلامية فيها.

في مقدمة أسباب الصراع السياسي بين الطرفين هو الصراع المتمثل في السيطرة على بلاد الحجاز وعلى الحرمين الشريفين وذلك للمكانة المقدسة التي يتمتع بها الحرمان في مكة والمدينة لدى المسلمين، وقد أولى السلطان الظاهر بيبرس هذا الأمر عناية خاصة منذ أن. فعمل على تثبيت أركان دولة المماليك الناشئة واحياء الخلافة العباسية للحصول على الشرعية المتمثلة بتقليد السلطنة والحكم من قبل خليفة المسلمين. (١)

أما عن شرافة مكة فقد اقتسم الأشراف الحسنية والحسينية بلاد الحجاز، فسيطر أشراف المدينة على الجزء الشمالي منه، وسيطر أشراف مكة على المناطق الجنوبية متجاهلين سيادة الأيوبيين منذ أيام صلاح الدين. وقد شعرت الدولة الرسولية باليمن بالفوضى السائدة بالحجاز، والظروف الداخلية بالدولة الأيوبية، فقضوا على هذه الفوضى وحاولوا السيطرة عليه فاستولى الملك نور الدين عمر بن رسول على مكة سنة ٦٣٧هـ/١٢٣٩م. وظل نواب نور الدين ابن رسول يمثلونه فيها حتى وفاته في سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م، حيث استأثر الشريف أبو سعد حسن بن علي بن قتادة بإمرتها. (٢)

وبعد سقوط الدولة الأيوبية في مصر والشام وقيام دولة المماليك اعتبر هؤلاء المماليك أنفسهم ورثة سادتهم بني أيوب، فلم يسكتوا عما حدث من تقلص نفوذهم في

---

(١) غوانمة، يوسف حسن، التاريخ السياسي لشرقي الأردن في العصر المملوكي، دار الفكر، عمان، ط٢، ١٩٨٢م، ص ص ١١٥-١٢٦ وسيشار إليه لاحقا: غوانمة، التاريخ السياسي.

(٢) أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص٣٦٢.

الحجاز، مما أدى إلى نشوب صراع بين المماليك والرسوليين سعى فيه الطرفان للسيطرة على الحرمين ليحقق كل منهما لنفسه زعامة على العالم الإسلامي. (١)

وكانت الظروف مهيأة لمثل هذا الصراع، فالنزاع الدائم بين أمراء مكة والمدينة، وبين أشراف مكة أنفسهم ، جعل فريقاً منهم يلجأ إلى دولة المماليك الناشئة الجديدة بينما ثبت فريق آخر على ولائه للرسوليين. (٢)

وكان أن استغل ذلك ملك اليمن المظفر يوسف بن عمر، فأرسل قائده مبارز الدين ابن برطاس في سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٤م إلى الحجاز للسيطرة على مكة، وقد لقيت هذه الحملة مقاومة عنيفة وفشلت في تحقيق غرضها ، وعادت إلى اليمن، مما دعا المظفر إلى قيادة حملة بنفسه إلى مكة سنة ٦٥٥هـ/١٢٥٧م، ودخل بها مكة وكسا الكعبة وتصدق بمال كثير، وأصلح بين الأمير أبي نمي وعمه، وبعد خروجه عاد النزاع بينهما على أشده، وبدأ أن المستقبل لأبي نمي الذي أدرك أهمية قوة المماليك النامية بمصر، فتطلع إليها تاركاً جانب المظفر الرسولي. (٣)

ثم إن نفوذ المماليك تسرب إلى المدينة المنورة عندما قدم بدر الدين بن مالك بن منيف ابن شيحة إلى القاهرة، فاستجاب السلطان الظاهر بيبرس لشكواه وأكرمه ثم أعطاه تقليداً بنصف الأمرة، وصار شريكاً فيها. (٤)

---

(١) بيبرس المنصوري، نائب السلطنة بمصر، مختار الأخيار، حققه وقدم له ووضع فهارسه: عبد الحميد حميدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٩٣م، ص٤١ وسيشار إليه لاحقاً: بيبرس المنصوري، مختار الأخيار، والمقريزي، السلوك، جـ١، ص ص٥٨٠-٥٨٢، ٧٠٦-٧٠٧.

(-٢) الخزرجي، العسجد المسبوك، ق٢٤٢؛ الفاسي، شفاء الغرام، جـ٢، ص٢٤٠؛ ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص ص ٧٤-٧٥.

(٣) الجزيري، الدرر الفرائد، جـ١، ص٥٩٩؛ باقاسي، عائشة بنت عبد الله، بلاد الحجاز في العصر الأيوبي، نادي مكة الثقافي، دار مكة، مكة المكرمة، ١٩٨٠م، ص٦٨ وسيشار إليه لاحقاً: باقاسي، بلاد الحجاز؛ السباعي، تأريخ مكة، جـ١، ص٢٨٨.

(٤) النويري، نهاية الأرب، جـ٢٨، ص٦٤؛ الفاسي، العقد الثمين، جـ١، ص٤٥٩؛ والمقريزي، السلوك، جـ١، ص٤٤٥، ٥١٢، ٥٦٠ ، مجهول، تاريخ الدولة الرسولية، ص ٣١؛بدر، عبد الباسط، التاريخ الشامل للمدينة المنورة، (د.ن)، المدينة المنورة، ١٩٩٣م، جـ٢، ص ص ٢٥٩-٢٦٠ وسيشار إليه لاحقاً: بدر، التاريخ الشامل.

أما مكة فقد تدخل السلطان الظاهر بيبرس في شؤونها عندما كاتبه أبو نمي فوعده بأن يوليه على مكة منفرداً، وأن يكتب لبني عمه أن لا يتدخلوا بالصراع بينه وبين عمه أدريس، لكن السلطان لم يجبه إلى لطلبة، بل اقترح عليه عقد صلح بين الأمير وعمه، ورأى بيبرس في التجاء أبي نمي إليه فرصته لتوطيد سيطرته وتأكيد سلطانه، فحج إلى مكة سراً سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٨م، فلما وصل المدينة لم يستقبله أميراها جماز بن شيحة وابن أخيه مالك بن منيف لأنهما لم يواجهاه خوفاً منه، بينما لقيه أهل مكة وأميرها إدريس بن قتادة بالترحاب، فخفف ذلك من وطأة غضبه. (١)

وقد تمكن الظاهر بيبرس من أحكام سيطرة المماليك على الحجاز أثناء حياته، وأراد من ذلك الوقوف في وجه الرسوليين في اليمن الذين دأبوا الإغارة على الحجاز، يعزلون ويولون كأنهم سادة الحجاز وأصحابه وقد أرسل الظاهر بيبرس إلى صاحب اليمن كتاباً طلب منه عدم التدخل في شؤون الحجاز، مؤنباً وموبخاً إياه على تصرفه ذلك. (٢)

٢- امتناع ملوك اليمن عن إرسال الهدية المعتادة إلى سلاطين المماليك في مصر.

حرص سلاطين بني رسول منذ عهد الملك المنصور نور الدين عمر بن علي بن رسول (٦٢٦-٦٤٧هـ/١٢٢٨-١٢٤٩م)، وابنه الملك المظفر يوسف (٦٤٧-٦٩٤هـ/١٢٤٩-١٢٩٤م)، ثم الملك الأشرف (٦٩٤-٦٩٦هـ/١٢٩٥-١٢٩٧م) على علاقاتهم الودية مع سلاطين المماليك في مصر، فأرسلوا سفارات وهدايا كثيرة

---

(١) ابن عبد الظاهر، محيي الدين، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق ونشر: عبد العزيز خويطر، الرياض، ١٩٧٦م، ص ص٣٥٤-٣٥٧؛ الخزرجي، العقود اللؤلؤية، جـ١، ص١٥٣؛ والفاسي، العقد الثمين، جـ١، ص٤٥٩؛ وشفاء الغرام، جـ٢، ص٢٤٠؛ المقريزي، السلوك، جـ١، ص ص٧٢٤-٧٢٥؛ السيوطي، حسن المحاضرة، جـ٢، ص١٥٨.

(٢) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٧١، وبيبرس المنصوري، نائب السلطنة بمصر، التحفة الملوكية في الدولة التركية ، نشر وقدم له ووضع فهارسه: عبد الحميد حميدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٨٧م، ص ص٦٦-٦٧ وسيشار إليه لاحقاً: بيبرس؛ المنصوري، التحفة الملوكية؛ النويري، نهاية الأرب، جـ٣٠، ص ص ١٦٦-١٦٧؛ ابن الوردي، زين الدين عمر بن المظفر، تاريخ ابن الوردي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦م، جـ٢، ص٢١٢ وسيشار إليه لاحقاً: ابن الوردي، تاريخه؛ ابن حبيب، درة الأسلاك، جـ١، ق ق٦٤ أ-ب؛ الخزرجي، العقود اللؤلؤية، جـ١، ص٤٤٠ الفاسي، المقنع، ص٧٧.

إلى مصر، من ذلك سفارة الملك المظفر سنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م إلى السلطان قلاوون تحمل هدية قيمة من العنبر والعود الصيني وغيرها، وقد ألح ذلك الوفد على السلطان قلاوون أن يمنحهم أماناً للملك المظفر، فلبى السلطان رغبتهم وأعطاهم أماناً نص فيه على ألا "تناله منا مضرة مدى الدهر وأعمارنا، ما دام ملازماً لشروط مودتنا".(١)

وفي الوقت نفسه حرص سلاطين المماليك في مصر على إرسال الرسل إلى اليمن ليذيعوا على أهلها ما أحرزوه من انتصارات باهرة، من ذلك إرسال السلطان محمد بن قلاوون أحد أمرائه ليبشر أهل اليمن بانتصاره على التتار في موقعة موج الصفر سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م. (٢)

ولكن العلاقات بين مصر واليمن فترت بعد وفاة السلطان المنصور قلاوون، إذ امتنع الملك المظفر عن مواصلة إرسال الهدية لمصر الأمر الذي أثار غضب الأشرف خليل بن قلاوون عليه، فأرسل إليه سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٣م كتاباً شديد اللهجة عنفه وهدده فيه، وأنذره بتجريد حملة إليه إذا لم يصله كتاب منه يعتذر له فيه، ويعود إلى إرسال ما اعتاده من الهدايا مرة أخرى، إلا أن المظفر لم يأبه بهذه الرسالة وسخر منها، ثم ما لبث أن توفي سنة ٦٩٤هـ/١٢٩٤م. (٣)

وبدأت العلاقات المصرية اليمنية بالتحسن من جديد منذ سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثانية، وخاصة بعد انتصاره على التتار في موقعة مرج الصفر سنة

---

(١) ابن الفوطي، كمال الدين أبي الفضل عبد الرزاق البغدادي، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، دار الفكر الحديث، بيروت، ١٩٨٧م، ص٦٥ وسيشار إليه لاحقاً: ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، وحمادة، محمد ماهر، الوثائق السياسية العائدة للجزيرة العربية خلال العصور الإسلامية المتتابعة(٤٠-٩٢٢هـ/ ٦٦-١٥١٦م)،مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٠م، ص٣٢٧ وسيشار إليه لاحقاً: حمادة، الوثائق السياسية العائدة للجزيرة، عاشور، سعيد عبد الفتاح، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٢م، ص ص ٣٣٩-٣٤٠ وسيشار إليه لاحقاً: عاشور، مصر والشام.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٨، ص ص٧٢-٧٦، وابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٣١، وعاشور، مصر والشام، ص ص ٣٤٠-٣٤١، وحمادة، الوثائق السياسية العائدة للجزيرة، ص ص٣٣١-٣٣٤.

(٣) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور ، ص ١١٧؛ المقريزي، السلوك، جـ١، ص ٧٢٩؛ العيني، عقد الجمان، جـ٣، ص ص٢١٠-٢١١، وحسن، علي إبراهيم، تاريخ المماليك البحرية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٣، ١٩٦٧م وسيشار إليه لاحقاً: حسن، تاريخ المماليك.

٧٠٢هـ/١٣٠٢م، فلما وصلت رسله بالبشرى إلى اليمن استقبلهم السلطان المؤيد بن المظفر الرسولي بحفاوة وتكريم وأنعم عليهم، وأرسل معهم كتاباً يهنئ فيه السلطان، وذلك لخشيته من سطوة السلطان الناصر وقوته العسكرية، فعندما كان الرسوليون يشعرون بقوة المماليك يرسلون لهم الهدايا، وعندما يشعرون بضعفهم يتمردون عليهم ويمتنعون عن إرسال الهدايا إلى مصر.(١)

ساءت العلاقة مرة ثانية بسبب نشوب الصراع حول منصب السلطنة والمؤامرات التي دبرت ضد الناصر محمد في مصر، فتوقف المؤيد الرسولي عن إمداد مصر بالهدية التي كان يرسلها كل عام، والتي بلغ مقدارها ستة آلاف دينار حسب ما أورده المقريزي والعيني(٢)، فأرسل إليه السلطان الناصر رسالة يهدده ويحمله عاقبة سوء تصرفه.(٣)

كما أرسل الخليفة المستكفي بالله في سنة ٧٠٧هـ/١٣٠٧م كتاباً مطولاً للسلطان اليمني أنذره فيه بضرورة العودة إلى طاعة الخليفة والسلطان، وإلا أرسل إليه جيشاً من المصريين لتأديبه ومنعه من "التصرف في البلاد والنظر في أحكام العباد".(٤)

صمم الناصر محمد بن قلاوون على تأديب سلطان اليمن لرفضه الاستجابة لمطالبه، ومطالب الخليفة، فعهد لأحد أمرائه بتجهيز حملة إلى اليمن، ولكنها تأجلت لوقوع الخلاف بين الناصر وبين أمرائه من جهة، ولتدخل تجار الكارم عند الناصر

---

(١) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، جـ٢، ص ص٣٤٨-٣٤٩.

(٢) المقريزي، السلوك، جـ٢، ص٧؛ العيني، عقد الجمان، جـ٤، ص ص٣٣٩-٣٤٠.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٦، ص ص٤٤٢-٤٤٦؛ القلقشندي، أحمد بن علي، مآثر الأنافة في معالم الخلافة، تح: عبد الستار فراج، عالم الكتب، بيروت، (د.ت)، ص ص ٢٥٦-٢٦٥ وسيشار إليه لاحقاً: القلقشندي، مآثر الأنافة؛ المقريزي، السلوك، جـ٢، ص ص٣٢-٣٣؛ حمادة، الوثائق السياسية العائدة للجزيرة، ص ص٣٢٧-٣٣١.

(٤) بيبرس المنصوري، التحفة الملوكية، ص٢٣٨؛ ابن عبد المجيد، بهجة الزمن ، ص ص ٢٤٤-٢٤٥؛ الخزرجي، العقود اللؤلؤية، جـ١، ص ص٣٠٣-٣٠٤؛ المقريزي، السلوك، جـ٢، ص ص٢٧-٢٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ٨، ص١٧١؛ ابن الديبع، قرة العيون، ق٢، ص٦٢؛ سعيد، إبراهيم حسن، البحرية في عصر سلاطين المماليك، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣، ص١٧٧ وسيشار إليه لاحقاً: سعيد، البحرية.

بأن يلجأ إلى الحلول السلمية. وسرعان ما عدل المؤيد الرسولي عن موقفه العدائي لمصر، وتغيرت علاقته معها، ودخلت طوراً جديداً وحلّ السلام والصفاء فيه محل النزاع والخلاف بين البلدين، وفي عهد ابنه الملك الأشرف أرسلت الهدية كالمعتاد، وتوطدت العلاقات بينهما، وسار خلفاؤه من بعده على نهجه.(١)

٢- القبض على الملك المجاهد الرسولي (٧٢١-٧٦٤هـ/١٣٢١م- ١٣٦٢م) أثناء أدائه فريضة الحج سنة ٧٥١هـ/١٣٥٠م.

توجه الملك المجاهد علي بن داود إلى مكة سنة ٧٥١هـ/١٣٥٠م بقصد الحج، وصحب معه الأمير ثقبة الذي كان لاجئاً عنده لانفراد أخيه عجلان بالحكم في مكة فزين له الاستيلاء على مكة، وبإعداد الكسوة، فأوجس أميرها عجلان خيفة من قدوم خصمه الأمير ثقبة معه، وظن أنه يريد أن يوليه على مكة. (٢)

وفي نفس موسم الحج هذا قدم مكة أمراء مصريون برفقة الحجاج، فحذرهم عجلان من غائلة صاحب اليمن وقال لهم: "أن صاحب اليمن يريد أن يقيم في مكة

---

(١) ابن عبد الظاهرة، الروض الزاهر، ص٣٨٩؛ الحمزي، إدريس بن علي، تأريخ اليمن من كتاب كنز الأخيار في معرفة السير والأخبار، دراسة وتحقيق: عبد المحسن المدعج، مؤسسة الشراع العربي، الكويت، ١٩٩٢م، ص١٣٦ وسيشار إليه لاحقاً: الحمزي، كنز الأخيار؛ بيبرس المنصوري، التحفة الملوكية، ص١٠٣، ٢٣٨؛ الخزرجي، العسجد المسبوك، ق٣٩٢، ٣٩٦؛ وابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص ص٤٨٥-٤٨٧، وابن الصيرفي، علي بن داود، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان،جـ١-٣، تح: حسن حبشي، مركز تحقيق التراث، وزارة الثقافة، جمهورية مصر العربية، دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٠-١٩٧٣م، جـ١، ص ص٤٤٤-٤٤٥ وسيشار إليه لاحقاً: ابن الصيرفي، نزهة النفوس.

(تجار الكارم: الكارم أو الكارمية: اسم أطلق على ملاك السفن المترددين على بلاد الهند والصين والساحل الشرقي لأفريقية، وبدأ نشاط هؤلاء التجار منذ العصر الفاطمي، ولكنهم بلغوا أوج قوتهم ونفوذهم في العصرين الأيوبي والمملوكي، وشكلوا أكبر قوة مالية آنذاك، وقد عمل المماليك على الإطاحة بهذه القوة التجارية والتقليل من نفوذهم الاقتصادي والاجتماعي، ومنعوهم من التمتع بالنفوذ السياسي، فلم يرغبوا بوجود قوة أخرى تناهض قوتهم (غوانمة، يوسف، العلاقات بين أيله (العقبة) وعدن في العصر الإسلامي، بحث مقدم إلى الندوة العلمية حول اليمن عبر العصور، جامعة عدن، جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية، من ٢٣-٢٥ أيلول (سبتمبر)، ١٩٨٩م، ص١٨ وسيشار إليه لاحقاً: غوانمة، العلاقات التجارية).

(٢) مجهول، تاريخ الدولة الرسولية، ص ٥٤الخزرجي، العقود اللؤلؤية، جـ٢، ص ص٦٥-٦٦، والجزيري، الدرر الفرائد، جـ١ ص٦٤٨؛ وأحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص٤٢٣؛ ودحلان، أحمد بن زيني، أمراء البلد الحرام، الدار المتحدة، بيروت، ١٩٨١م، ص٤٩ وسيشار إليه لاحقاً: دحلان، أمراء البلد الحرام.

بعد توجهكم ومراده ينتزع كسوة البيت، ويكسوها كسوة أحضرها من اليمن، ويريد أن يولي على مكة واليا من جهته، ويترك معه جندا من اليمن، ويغير أوضاعكم ولا يترك لكم في مكة أمراء، وهو في جمع يسير من اليمن، ولكن لا طاقة لنا بهم. ومن المصلحة أن لا يفوت، وأن لا تفعلوا قدمت معكم إلى مولانا السلطان وتركت مكة له وبرئت من العهدة"(١)، فبعث أمراء مصر إلى الملك المجاهد، كتابا قالوا فيه: "إنه من يريد الحج إنما يدخل بذل ومسكنة، وانت تريد تبتدع بدع فاحشة، ونحن لا نمكنك من الدخول على هذه الصفة، فإن أردت السلامة فأبعث إلينا الشريف ثقبة يكون عندنا حتى نقضي الحج""(٢)، فأجاب صاحب اليمن طلبهم وبعث ثقبة ليكون رهينة عندهم، وكان قد تم الاتفاق بينه وبين الملك المجاهد على أنه إذا رحل الأمير طاز من مكة، أوقعا ببزلار أمير الحج ومن معه، وقبضا على عجلان، وبذلك يصبح الطريق ممهدا لتسليم الأمير ثقبة أمرة مكة. (٣)

وظل عجلان يحث الأمراء المماليك على محاربة المجاهد وثقبة حتى استقر رأيهم على محاربته، واستغلوا فرصة افتراق عساكره عنه في منى، فأحاطوا به وبجماعة من أصحابه، غير أنه توقف عن الحرب رعاية لحرمة الزمان والمكان، وفر إلى جبل منى، وظل القتال دائرا حتى اضطر المجاهد إلى طلب الأمان وتسليم نفسه على ألا يتعرضوا لأحد غيره، وهرب ثقبة إلى اليمن، وخلا الجو للأمير عجلان بمكة. (٤)

---

(١) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، جـ٢، ص٨٤.

(٢) المقريزي، الذهب المسبوك، ص١١٥.

(٣) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، جـ٢، ص ص٧٦-٧٧؛ والعسجد المسبوك، ق ق٣٧٩-٣٨٠؛ الفاسي، شفاء الغرام، جـ٢، ص٣٩٥؛ السباعي، تأريخ مكة، جـ١، ص٢٧٤؛ الأكوع، إسماعيل بن علي، المدارس الإسلامية في اليمن، جامعة صنعاء، الكتاب (١) ، دار الفكر ، دمشق، ١٩٨٠، ص٧٤ ، وسيشار إليه لاحقا: الأكوع: المدارس.

(٤) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، جـ٢، ص ص٦٦-٦٧، والعسجد المسبوك، ق٢٦٦؛ الفاسي، العقد الثمين، جـ١، ص١٧٠، وشفاء الغرام، جـ٢، ص ص٢٤٧-٢٤٨؛ المقريزي، السلوك، جـ٢، ص ص٨٣١-٨٣٢، ابن قاضي شهبة، تقي الدين أبي بكر بن أحمد ، تاريخ ابن قاضي شهبة، مـج ٢-٣ تـح: عدنان درويش ، طباعة مشتركة بين المعهد الفرنسي للدراسات العربية، سورية -دمشق ، والجفان الجابي للطباعة والنشر، ليماسول – قبرص، ١٩٩٤م، مـج٣، ص ص١٠-١١ وسيشار إليه لاحقا: ابن قاضي-

وسلم الأمير طاز أمراء الملك المجاهد وحريمه للأمير عجلان، وأمره بإرجاعهم إلى اليمن آمنين، وسار برفقة المجاهد إلى مصر، وأنزل بحضرة السلطان، وفك قيده بعد أن شفع فيه كبار الأمراء، وأجريت له الرواتب السنية، ثم أن السلطان حسن بن محمد بن قلاوون أعاده إلى بلاده مكرماً عن طريق الحجاز. فلما تجهز المجاهد للسفر عهد السلطان حسن للأمير قشتمر شاد الدواوين بمصاحبته في سفره وللإبلاغ عن المريب من تصرفاته، وأثناء سفرهم أساء للأمير قشتمر، فأمر السلطان باعتقال المجاهد في حصن الكرك بالشام. وظل مقيماً فيه حتى شفع فيه نائب القلعة لدى السلطان الصالح بن محمد بن قلاوون، فغادر حصن الكرك وزار القدس والخليل، ووصل القاهرة في شعبان سنة ٧٥٢هـ/١٣٥١م، وخلع عليه السلطان الصالح، وتوجه إلى اليمن عن طريق عيذاب فبلغها في ذي الحجة من نفس العام. (١) ثم سادت العلاقات الطيبة بين الرسوليين والمماليك وتبادلوا الهدايا ومثال على ذلك: سفارة الملك الناصر احمد بن المجاهد وعودته من مصر بالهدايا والعسكر سنة ٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م، وكانت دولة المماليك تسعى إلى أن يسود تلك العلاقات الهدوء والمودة كي تبقى التجارة المارة عبر البحر الأحمر ميسرة. فقد كان

= شهبة، تاريخه؛ بامخرمة، عبد الله الطيب بن عبدالله ، تاريخ ثغر عدن ، جـ١ تح: منشورات المدينة، صنعاء، ط٢ ، ١٩٨٦م، ص١٤٧ وسيشار إليه لاحقاً: بامخرمة، تاريخ ثغر عدن؛ أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص٤٢٤.

(١) مجهول، تاريخ الدولة الرسولية، ص٦١ ؛القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٧، ص٤٣١؛ المقريزي، السلوك، جـ٢، ص٨٣٩-٨٤٠؛ ابن حجر، شهاب الدين أحمد، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، حققه وقدم له ووضع فهارسه: محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٦٦-١٩٦٧م، جـ٣، ص١١٩-١٢٠؛ وسيشار إليه لاحقاً: ابن حجر، الدرر الكامنة؛ ابن الديبع، قرة العيون، ق٢، ص٨٨؛ وبغية المستفيد، ص٩٣؛ والفضل المزيد، ص٩٨؛ أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص ص٤٢٤-٤٢٦؛ سرور، محمد جمال، دولة بني قلاوون في مصر، دار الفكر العربي، مطبعة الاعتماد، مصر، ١٩٤٧م، ص١٢٤ وسيشار إليه لاحقاً: سرور، دولة بني قلاوون، (الكرك: هو بلد مشهور وله حصن عالي المكان وهو أحد المعاقل بالشام التي لا ترام وعلى بعض مرحلة منه مؤته وبنسها قبل جعفر الطيار واصحابة رضي الله عنهم، وتحت الكرك واد فيه حمام وبساتين كثيرة وفواكهها مفضلة من المشمش والرمان والكمثرى وغير ذلك وهو على أطراف الشام من جهة الحجاز وبين الكرك والشوبك نحو ثلاث مراحل (ابو الفداء، تقديم البلدان، ص ٣٤٧))، (عيذاب: بليدة على ضفة بحر القلزم وهي مرسى المراكب التي تقدم من عدن إلى الصعيد (الحموي، معجم البلدان، جـ٤، ص١٧١)).

اقتصادها يعتمد اعتماداً كبيراً على تجارة الشرق الأقصى المارة عبر موانئ البحر الأحمر وعدن. (١)

كما تولى القاضي جمال الدين محمد بن علي الفارقي السفارة بين دولة المماليك ومصر والرسوليين في اليمن، حيث أرسله الملك الأفضل عباس بن علي بن داود (٧٦٤-٧٧٨هـ/ ١٣٧٢-١٣٧٦م) في عدة سفارات إلى مصر، وأستمر سفيراً إلى سنة ٧٧٠هـ/ ١٣٦٨م(٢)

ب- الأسباب الدينية.

١- رغبة الرسوليين والمماليك في كسوة الكعبة.

اعتلى السلطان الظاهر بيبرس عرش المماليك سنة ٦٥٩هـ/١٢٦٠م، وكانت الخلافة العباسية صاحبة الحق الشرعي في كسوة الكعبة قد زالت فأحياها وقام بدورها في كسوة الكعبة، وكان سلاطين بني رسول في اليمن قد حاولوا كسوة الكعبة نيابة عن الخلافة العباسية، فتصدى شيخ الحرم العفيف بن منعة بمكة للسلطان المنصور الرسولي، وامتنع عن قبول كسوته، وقال: "لا يكون هذا إلا من جهة الديوان يعني الخليفة العباسي"(٣). ومن هنا ظهر دور الكسوة في ميدان الصراع السياسي الديني حول الزعامة الدينية السياسية على العالم الإسلامي. (٤)

ولقد تطلع سلاطين الدولتين الدولة الرسولية ودولة المماليك إلى كسوة الكعبة. وبالتالي بسط نفوذهم على الحرمين والخطبة فيهما لهما. وقد استطاع ابن السلطان المنصور وخليفته المظفر يوسف أن يكسوا الكعبة كسوتين داخلية وخارجية، بقيت

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٥، ص٣٢؛ وأحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص ص٤٢٧-٤٣٣. (عدن: وهي مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن ردئة لا ماء بها ولا مرعى وشربهم من عين، بيتها وبين عدن مسيرة نحو اليوم وهو مع ذلك ردئ إلا أن هذا الموضع هو مرفأ مراكب الهند والتجار يجتمعون إليه لأجل ذلك فإنها بلدة تجارة (الحموي، معجم البلدان، جـ٤، ص٢٨٩).

(٢) مجهول، تاريخ الدولة الرسولية، ص ٦٧؛ الخزرجي، العقود اللؤلؤية، جـ٢، ص ١٣٠

(٣) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٧١؛ بيبرس المنصوري، التحفة الملوكية، ص ص٦٦-٦٧؛ النويري، نهاية الأرب، جـ٣٠، ص ص١٦٦-١٦٧؛ القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٢، ص٣٨١؛ المقريزي، الذهب المسبوك، ص١١٢.

(٤) الفاسي، شفاء الغرام، جـ٢، ص٣٨١؛ والعقد الثمين، جـ١، ص ص٥٩-٦٢.

الداخلية حتى سنة ٧٦١هـ/ ١٣٥٩م. بعد سقوط الخلافة العباسية، في موسم حج سنة ٦٥٩هـ/١٢٦٠م وبعد أن أتم حجة تشرف بغسل الكعبة ثم كساها كسوة يمنية، وكان بذلك أول ملك يكسو الكعبة بعد الخلفاء العباسيين. (١)

ثم إن أمراء مكة أحفاد الشريف قتادة الحسني عملوا على تدعيم استقلالهم بها، مدركين ضرورة توفر المساعدات الاقتصادية من كل من مصر واليمن، وكان المماليك هم الجانب الأقوى، أما الرسوليون فكانوا الأقرب إلى الحجاز. ومن هذا المنطلق جنحت سياسية أشراف الحجاز في هذا العهد إلى طابع يتسم بالازدواجية والتذبذب في الولاء بين الطرفين، أنى دعت الظروف لذلك. على أن النزاع على السيادة على الحرمين، لم يقتصر على المماليك والرسوليين فقط، وإنما دخل مغول فارس والعراق طرفا ثالثا في هذه السيادة، وكانت كسوة الكعبة إحدى المحاور الرئيسية التي دار حولها الصراع. (٢)

وقرر بيبرس سنة ٦٦١هـ/١٢٦٢م أن يضع سياسته نحو الحجاز موضع التنفيذ، فأمر بإعداد الكسوة للكعبة ثم طيف بها في أنحاء القاهرة في موكب عظيم، وقام بأداء الحج سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٨، وشارك بنفسه في تعليق الكسوة وعين نائبا له بمكة هو شمس الدين مروان. (٣)

وأشار الخزرجي إلى ان المظفر قد أرسل الكسوة في موسم ٦٦١هـ/١٢٦٢م وكسوة أخرى سنة ٦٧١هـ/١٢٧٢م، ومع أن المصادر المعاصرة للمماليك قد

---

(١) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، جـ٢، ص ص١٣٢-١٣٥، وابن فهد، أتحاف الورى، جـ٢، ص٢٤، والسباعي، تأريخ مكة، جـ١، ص٢٨٨، الأكوع، المدارس، ص ١٠٧

(٢) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ص٧١-٧٢، ٢٠٠؛ النويري، نهاية الأرب، جـ٣، ص ص١٦٦-١٦٧؛ الخزرجي، العقود اللؤلؤية، جـ١، ص١٤١،١٨٤، حسن، تاريخ المماليك البحرية، ص ص١٧٦-١٧٧؛ حلمي، إبراهيم، كسوة الكعبة المشرفة وفنون الحجاج، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية، الرياض، جودن ستار للطباعة، الرياض، ١٩٩٤م، ص ص٦٤-٧٩ وسيشار إليه لاحقاً: حلمي، كسوة الكعبة.

(٣) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٢٠١؛ الخزرجي، العقود اللؤلؤية، جـ١، ص ص١٤٠-١٤٢، ١٨٣-١٨٤. (شمس الدين بن مروان: هو نائب السلطان الظاهر بيبرس في مكة المكرمة، حيث عينه للإشراف على شؤون الحرم وفض المنازعات بين الأشراف وقيادة الحامية العسكرية المملوكية التي تركها بيبرس من مكة (ابن فهد، الإتحاف، جـ٣، ص ص ٩٣-٩٥).

تجاهل معظمها الحديث عن الكسوة اليمنية، فالظاهر أن أطماع الرسوليين في الحجاز لم تنته بإعلان بيبرس عن سياسته في تلك المنطقة. (١)

وقد ذكر الخزرجي أن السلطان المؤيد بن المظفر أرسل في سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٦م كسوة يمنية، وأنعم على أمير مكة وأهلها بثمانين ألف درهم عيناً ومن الغلة أربعمائة مد(٢). وهكذا كان على أمير مكة أن يقبل الكسوتين اليمنية والمصرية، وتعليقهما فوق بعضهما البعض بحيث تغطي كسوة المماليك الكسوة الرسولية. (٣)

وشدد خلفاء بيبرس قبضتهم على الحجاز، ومنهم السلطان المنصور قلاوون حيث أجبر الشريف أبو نمي على أن يقسم له يميناً بالولاء والطاعة سنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م، ويدلل هذا اليمين على الامتيازات التي أخذت ترمز إلى نفوذ المماليك في الحجاز وتؤكده وهي: كسوة الكعبة والخطبة والسكة، وأرغم فيه أمير مكة على عدم قبول أي كسوة للكعبة عدا كسوة دولة المماليك(٤). وخير مثال على

---

(١) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٢٠٠؛ الخزرجي، العقود اللؤلؤية، جـ١، ص١٣٠، ٣٣٥.

(٢) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، جـ١، ص٣٣٥، (المد: كان المد الشرعي في المدينة المنورة في فجر الإسلام يساوي ¼ صاع، وفي قول أبي حنيفة يتسع لرطلين بغداديين، ومن قول أبي يوسف ١,٣٣ رطل، والمقصود هو رطل المدينة بالتأكيد وهو يساوي ٨١٢,٥ غم قمح، ولو حسب ٧٧ كغم قمح للمائة لتر لكان المد الشرعي يساوي ١,٠٥ لتر (الأنصاري، أبي العباس نجم الدين بن رفعة، الإيضاح والتبيان في معرفة المكيال والميزان، حققه وقدم له: محمد أحمد الخاروف، جامعة الملك عبد العزيز، مركز البحث وإحياء التراث الإسلامي، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، مكة المكرمة – السعودية، من التراث الإسلامي الكتاب (١٠)، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٠م، هامش٢، ص ص٥٦-٥٧ وسيشار إليه لاحقاً: الأنصاري، الإيضاح والتبيان، وهنتس، فالتر، المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها بالنظام المتري، ترجمة عن الألمانية: كامل العسلي ، دليل الاستشراق يتولى إصداره بيرتولد ثبول، المجلد الملحق (١) الكراس (١)، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٧٠م، ص ص٧٤-٧٦ وسيشار إليه لاحقاً: هنتس، المكاييل والأوزان).

(٣) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، جـ١، ص١٦٣؛ والعسجد المسبوك، ق٢٤٥؛ الفاسي، شفاء الغرام، جـ٢، ص٣٨١؛ الجزيري، الدرر الفرائد ، جـ١، ص٧٣٦، وجـ٢، ص ص١٤٩٧-١٤٩٨، وجـ٣، ص١٦١٦؛ عبد الغني، تاريخ أمراء مكة المكرمة، ص ص٥٢٩-٥٣١.

(٤) ابن الفرات: ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم، تاريخ ابن الفرات المسمى تاريخ الدول والملوك، تح: قسطنطين زريف ونجلاء عز الدين، المطبعة الأميركانية، بيروت، ١٩٣٦-١٩٤٢م، جـ٧، ص ص٢٤٧-٢٤٨ وسيشار إليه لاحقاً: ابن الفرات، تاريخه.

ذلك قصة اعتقال الملك المجاهد عندما أحضر الكسوة للكعبة، وتم القبض عليه من قبل أمير الحج المصري سنة ٧٥١هـ/١٣٥٠م، ومنذ ذلك الوقت تزايد نفوذ المماليك في الحجاز، وضعف أمر الرسوليين وكان للنزاعات الداخلية السبب الأهم في ضعفهم هذا والتي أدت فيما بعد إلى سقوط دولتهم سنة ٨٥٨هـ/١٤٥٤م. (١)

٢- الاختلاف المذهبي

كان للاختلاف المذهبي دورٌ كبيرٌ في تأخير سيطرة المماليك الكاملة على الحجاز، إذ كان المماليك على المذهب السني كأسيادهم الأيوبيين، في حين كان أشراف مكة شيعة من سلالة علي وفاطمة رضي الله عنهما، وكان الرسوليون شيعة زيدية مثل أمراء الحرمين(٢). في ضوء ذلك نستطيع أن نفهم الوحشة بين الأشراف من ناحية، وخلفاء بني العباس من ناحية أخرى، فالأشراف لم يعترفوا بالسلطة للعباسيين، حيث كانوا يدعون لسلطان المماليك ثم لأنفسهم دون ذكر لخلفاء بني العباس بالقاهرة. (٣)

ففي سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م أرسل السلطان الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر مع أمير الحاج برلقي الأشرفي أحد مماليك السلطان الأشرف إلى أميري مكة أبو الغيث بن أبي نمي وأخوه عطيفة بأن لا يمكنوا من الأذان بحي على خير العمل، ولا يتقدم في الحرم إمام زيدي، ولا يمكن أحداً من مسّ المسمار الذي كان في وسط الكعبة ويقال له سرة الدنيا(٤). ولما ساءت العلاقات بين سلطان مصر والرسوليين وأمراء الحرمين، كتب إلى أمير مكة الشريف عطيفة بن أبي نمي سنة

---

(١) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب، والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية، بيروت،١٩٩٢م، جـ٥ ص ٦٤، وسيشار إليه لاحقاً: ابن خلدون، العبر؛ ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٢، ص ص٧١-٧٢.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١١، ص١٣٩.

(٣) الفاسي، العقد الثمين، جـ١، ص١٩٩.

(٤) الفاسي، العقد الثمين، جـ١، ص٢٠٠؛ الجزيري، الدرر الفرائد، جـ١، ص٦١٦؛ عبد الغني، تاريخ امراء مكة، ص ص٥٥٤-٥٥٥.

٧٢٣هـ/١٣٢٣م بإبطال مقام الزيدية في مكة، وبإخراج رئيس الزيدية في مكة منها، فتم له ذلك. (١)

وفي سنة ٧٥٥هـ/١٣٥٤م قام أمير الركب المصري عز الدين أزدمر الخازندار بإجبار إمام الزيدية أبو القاسم، بحضور قاضي القضاة عز الدين بن جماعة، وعامة أهل مصر ومكة على التوبة مما هم عليه من مذهب الزيدية وتم ذلك في مجلس عقد بالحرم الشريف، وأشهد الحاضرين على نفسه بأنه رجع عن مذهب الزيدية، وأنه يواظب على الجمعة والجماعة مع أئمة الحرم. (٢)

ونجد أن للدين دوراً كبيراً في تثبيت السيطرة وتأكيد الشرعية في الحكم والسيادة، فعندما أحس سلطان المماليك بأن الرسوليين حاولوا نشر مذهبهم الزيدي في الحرمين الشريفين ليتمكنوا من مد نفوذهم إليه بشكل أكبر، لجأ المماليك إلى تقليص ذلك النفوذ من خلال إبطال مقام الزيدية، وإبطال أذانهم، وإجبار إمامهم على اعتناق المذهب السني، وكان لذلك أثره في تقليص النفوذ اليمني في الحجاز. (٣)

ولا شك أن للأسباب المذهبية أثرها في إعاقة سيطرة المماليك الكاملة في الحجاز، فالأشراف لم يعترفوا بالمماليك إلا مضطرين، وكانوا ينقضون ذلك عندما تسنح لهم الفرصة، فالرسوليون كانوا على المذهب الزيدي الشيعي لذا تعاطف معهم أشراف مكة، ومن هنا أصبحت فرصتهم في السيطرة على الحجاز أكبر من فرصة المماليك، لذا بادل المماليك أشراف الحجاز حذراً بحذر، فلم يأمنوا لهم، وكان من مآخذهم على أبي نمي أنه زيدي. (٤)

---

(١) ابن فهد، غاية المرام، جـ١، ص١١٨؛ ابن القاسم، غاية الأماني، ق١، ص٥٠٠.

(٢) ابن فهد، غاية المرام، جـ٢، ص ص١١٨-١١٩؛ الجزيري، الدرر الفرائد، جـ١، ص٦٥٦. (الخازندار: هو الذي يتولى أعمال خزانة السلطان أو الأمير أو غيرهما وفي عهدته ما لها من أموال وغلال (البقلي، التعريف، ص ١١٣).

(٣) ابن فهد، غاية المرام، جـ٢، ص ص١١٩-١٢٠؛ الجزيري، الدرر الفرائد، جـ١، ص٦١٦، ٦٥٦.

(٤) الفاسي، العقد الثمين، جـ١، ص٤٦٧.

جـ- الأسباب الاقتصادية

١- الصراع على البحر الأحمر.

لعب البحر الأحمر دوراً اقتصادياً هاماً بالنسبة لدولة المماليك من ناحية، وبالنسبة للتجارة الدولية بين الشرق والغرب من ناحية أخرى، ونتيجة لذلك فقد اهتم السلاطين المماليك بمنطقة البحر الأحمر، واتبعوا سياسة واضحة ثابتة تقوم على تأمين التجارة بمنطقة البحر الأحمر، وضمان سلامة الحجاج والتجار فيه، وكثيراً ما دفعتها تلك السياسة في فترات قوة سلاطينها إلى التدخل عسكرياً في حكم تلك البلاد لضمان السيطرة على هذا الشريان الحيوي مما نتج عنه الصراع حول السيطرة عليه. [(١)]

وقد أدرك ذلك بنو رسول حكام اليمن، فاستولوا على مكة سنة ٦٣٧هـ/١٢٣٩م محاولين بذلك السيطرة على تجارة البحر الأحمر وموانئه[(٢)]، لما تدره تلك الموانئ من دخل اقتصادي كبير من المكوس المفروض على التجارة المارة من خلاله. وكانت رسالة الظاهر بيبرس[(٣)] بمثابة هزة قوية للسلطان الرسولي في عدم منافسته في السيطرة على الحجاز والبحر الأحمر المتحكم في التجارة

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٣، ص٥٢٠؛ سالم، السيد عبد العزيز والعبادي، أحمد مختار، تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٣م، ص٢٥٩ وسيشار إليه لاحقاً: سالم، تاريخ البحرية؛ سعيد، حسين إبراهيم، الصراع حول السيطرة على البحر الأحمر (العلاقات اليمنية المصرية في عصر سلاطين المماليك)، بحث ألقي في الندوة العلمية حول اليمن عبر التاريخ المنعقدة في عدن (ج.ي.د.ش)، عدن ٢٣-٢٥ سبتمبر ١٩٨٩م، ص ص١٥٥-١٧٠ وسيشار إليه لاحقاً: سعيد، الصراع.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٤، ص٢٧٢.

(٣) نص رسالة الظاهر بيبرس هو: ("سطرتها من مكة المشرفة وقد أخذت طريقها في سبع عشرة خطوة (منزلة)، ويقول: الملك هو الذي يجاهد في الله حق جهادة، ويبذل نفسه في الذب عن حوزة الدين، فإن كنت ملكاً فأخرج والق التتر"، المقريزي، الذهب المسبوك، ص٩٢).

الدولية. وكان قديماً ينافس بحر عُمان وكانت تزداد أهمية أحدهما على حساب الآخر وذلك وفقاً للظروف القائمة والقوى المتحكمة في كل منهما. (١)

وقد امتدت سياسة السلطان الظاهر بيبرس في عصر المماليك إلى اليمن استكمالاً لأحكام السيطرة على البحر الأحمر، نظراً لوقوع اليمن في الركن الجنوبي الغربي من جزيرة العرب بحيث تتحكم في باب المندب المدخل الجنوبي للبحر الأحمر، فضلاً عن ميناء عدن الذي يعتبر من أهم ثغور اليمن، وأعظم مركز تجاري في المحيط الهندي، حيث كانت المرسى الرئيسي للدولة الرسولية، والتي تتردد عليها مراكب الهند والصين والسند وكرمان وفارس وعُمان. (٢)

وكانت علاقة المماليك باليمن ضرورية، وذلك لتدعيم سياستهم في البحر الأحمر ولبسط نفوذهم السياسي والاقتصادي والديني على الدول المطلة على سواحله، وتأمين الملاحة فيه بقصد إنعاش الحركة التجارية، وحماية المقدسات الإسلامية وتيسير الحج على المسلمين.(٣)

وقد بلغت موانئ الحجاز المطلة على البحر الأحمر أوج ازدهارها في عصر دولة المماليك وخاصة ميناء ينبع بسبب الإصلاحات الكثيرة التي أدخلت عليه لأنه أصبح ميناءً للحجاج وقد أدت هذه الإصلاحات إلى ازدياد عدد الحجاج، وكانت ينبع المحطة البرية والبحرية معاً لحجاج مصر والشام، فصارت سوقاً هاماً لبيع وشراء مختلف السلع، وقصدها التجار فلعبت دوراً جيداً في تجارة البحر الأحمر أيام

---

(١) المقريزي، السلوك، جـ١، ص١٧٠؛ سعيد، البحرية، ص١٦٧، جرادات، وليد محمد، الأهمية الاستراتيجية للبحر الأحمر بين الماضي والحاضر، دار الثقافة، قطر-الدوحة، ١٩٨٦م، ص ص٥٧-٦٣ وسيشار إليه لاحقاً: جرادات، الأهمية الاستراتيجية؛ جرجس، أجيه يونان، البحر الأحمر ومضايقة بين الحق العربي والصراع العالمي، مكتبة غريب للطباعة، القاهرة، ١٩٧٧م، ص ص٣٠-٣١ وسيشار إليه لاحقاً: جرجس، البحر الأحمر؛ سالم، السيد عبد العزيز، البحر الأحمر في التاريخ الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٣م، ص ص١٢-٢٠ وسيشار إليه لاحقاً: سالم، البحر الأحمر.

(٢) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، جـ١، ص ص٢١٨-٢١٩؛ شهاب، حسن صالح، عدن فرضة اليمن، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ١٩٩٠م.

(٣) أبو شامة، الروضتين، جـ٢، ص ص٣٦-٣٧؛ النويري، نهاية الأرب، جـ٣١، ص٤٠؛ الخزرجي، العقود اللؤلؤية، جـ١، ص٢١٣؛ سالم، البحر الأحمر، ص ص٣٩-٦٣؛ سعيد، البحرية، ص١٧١.

المماليك، حتى بلغ من ازدهارها أن قدرت عائدات نيابتها من التجارة بثلاثين ألف دينار سنويا. (١)

كما أصبحت جدة أكبر موانئ الحجاز كله، وكانت أهميتها في كونها الميناء الذي يتلقى إمدادات الحبوب والمؤن التي يبعثها سلاطين المماليك إلى الحرمين، وهي كثيرة لكثرة الأزمات الاقتصادية والمجاعات التي تعرض لها الحجاز، كما أن السفن القادمة من الشرق الأقصى أو عدن كانت ترسوفية. (٢)

وبذلك سيطر المماليك على البحر الأحمر ووارداته الاقتصادية، وحرموا الرسوليين في اليمن منها، لأن اليمن أصبحت تابعة لدولة المماليك بعد التقليد الذي منحه الخليفة المستكفي بالله في القاهرة لبيبرس. (٣) وحرص المماليك على البقاء في الحجاز وموانئه وحماية تجارته لأنها أصبحت عمادا من أعمدة اقتصاد الدولة، فبالإضافة إلى المكوس الباهظة التي تقاضوها من التجار، كان لهم في عصر دولة المماليك الثانية (الجراكسة) تجارتهم الاحتكارية الخاصة بهم وزكاة الحرمين. (٤)

٢- تضييق الملك المجاهد علي بن داود الرسولي على مكة اقتصاديا انتقاما من أمرائها.

كان للقبض على الملك المجاهد وأسره وإرساله إلى مصر من قبل أمير الحاج المصري بالتعاون مع أمير مكة الشريف عجلان سنة ٧٥١هـ/١٣٥٠م. (٥) أثر كبير في غضبه وحنقه على أمراء مكة. فصمم على الانتقام منهم، لذلك منع المراكب التجارية اليمنية من الرسو بجدة، ومنع التجار اليمنيين من التعامل مع أهل مكة، مما سبب أزمة اقتصادية خانقة فيها(١). وقد أدى ذلك إلى أن يقوم الشريف

(١) الفاسي، شفاء الغرام، جـ١، ص٢٧٨؛ الجاسر، حمد، بلاد ينبع، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، السعودية، الرياض، ١٩٦٥م، ص ص٣٢-٦٧ وسيشار إليه لاحقا: الجاسر، بلاد ينبع.

(٢) المقريزي، السلوك، جـ٤، ص٤٨٦؛ غوانمة، أيله (العقبة)، ص٧٤.

(٣) المقريزي، السلوك، جـ١، ص٤٥١؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ٧، ص١١٣؛ سرور، دولة بني قلاوون، ص١٢٩.

(٤) الفاسي، شفاء الغرام، جـ١، ص٢٧٨؛ المقريزي، السلوك، جـ١، ص٧٢٤.

(٥) المقريزي، السلوك، جـ٢، ص ص٨٣١-٨٣٢؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٣، ص ص١١٩-١٢٠؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١، ص ص١٧٨-١٧٩؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١، ص٥٣٧؛ ابن الديبع، بغية المستفيد، ص٩٣؛ والفضل المزيد، ص٩٨.

سبب أزمة اقتصادية خانقة فيها[1]. وقد أدى ذلك إلى أن يقوم الشريف عجلان في سنة ٧٥٥هـ/١٣٥٤م بفرض ضريبة على نخيل الأراضي التي تقع تحت سيطرته لتعويض ذلك، فجمع مالاً كثيراً. وعلل عجلان هذا العمل بمنع المجاهد صاحب اليمن تجار اليمن من السفر إلى مكة، انتقاماً من أمرائها للدور الذي لعبوه في أسره وحمله مقيداً إلى مصر، فلما أطلق سراحه حاول أن يعاقب أمراء مكة بتعطيل طريق التجارة بين اليمن والحجاز.[2]

فكلما استمر المجاهد في منع المراكب والتجار من الورود إلى مكة استمر الشريف عجلان في زيادة الضرائب، حتى ضاق الحجاج والسكان والتجار ذرعاً بذلك، فوصلت شكواهم إلى السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون الذي كان ساخطاً على الأشراف ونظامهم بمكة، فأرسل سنة ٧٦٠هـ/١٣٥٨م جنداً رأى ابن تغري بردي أنهم كانوا يهدفون إلى إزالة الأسرة الحسنية كلها من مكة[3]، فعمل أمير الجند على إعادة الأمور إلى طبيعتها، فألغى المظالم وأسقط المكوس المأخوذ عن المأكولات من الحب والتمر والغنم والسمن ودام هذا الإلغاء مدة إقامة الحملة بمكة سنة ٧٦١هـ/١٣٥٩م[4].

---

(١) المقريزي، السلوك، جـ٢، ص٨٦٧.

(٢) المقريزي، السلوك، جـ٢، ص٨٨٧؛ ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص١٨٨.

(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١، ص٢١٦.

(٤) الفاسي، شفاء الغرام، جـ١، ص٢٨٤؛ والعقد الثمين، جـ١، ص١٩٥؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١، ص٢١٦.

ثانياً: نتائج الصراع

وقد أدى هذا الصراع إلى نتائج انعكست سلباً على الحجاز ودولة الرسوليين في اليمن نذكر من ذلك:-

١- وقوع الحجاز بكاملها تحت سيطرة ونفوذ دولة المماليك في مصر وبلاد الشام. (١)

٢- سقوط الدولة الرسولية لضعف مواردها الاقتصادية لكثرة الأموال التي بذلتها في بداية تأسيسها في محاولاتها للسيطرة على الحجاز، ومن ذلك خزائن الأموال التي كان يرسلها الملك المنصور مع الشريف راجح وإليه مع قادته من اليمن. (٢)

٣- ضعف موارد دولة المماليك بسبب تحويل تجارتهم إلى موانئ وطرق أخرى بدلاً من الطرق والموانئ المؤدية إلى الحجاز بسبب ارتفاع نسبة المكوس، وبالتالي ضعف مواردها المالية من سلطنة الحجاز، الأمر الذي كان بداية النهاية لدولتهم. (٣)

٤- خسارة الحجاز للكثير من رجالاتها الأشراف الذين ذهبوا ضحية المؤامرات والاغتيالات من قبل سلاطين المماليك والرسوليين، هذا عدا مئات الحجاج الذين راحوا ضحايا للفتن عبر تلك الفترة. (٤)

٥- حدوث أزمات اقتصادية ومجاعات بين الحجاج أدت إلى وفاة الكثيرين منهم. (٥)

---

(١) ابن الفرات، تاريخه، جـ٩، ص ص٤١٣-٤١٤؛ الفاسي، العقد الثمين، جـ٤، ص ص٨٧-٩٤؛ المقريزي، السلوك، جـ٣، ص٨٥٥.

(٢) النويري، نهاية الأرب، جـ٢٩، ص٢٠٧؛ الخزرجي، العقود اللؤلؤية، جـ١، ص٤٥، ٥٥؛ الفاسي، شفاء الغرام، جـ٣، ص٢٣٧؛ ابن فهد، غاية المرام، جـ١، ص٦٠١.

(٣) ابن حبيب، درة الأسلاك، جـ١، ق٤٠؛ ابن دقماق، الجوهر الثمين، جـ١، ص١٠٨؛ المقريزي، السلوك، جـ١، ص٧٢٤؛ المقريزي، الذهب المسبوك، ص ص ٨٦-٨٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ٧، ص١٤٦.

(٤) الفاسي، العقد الثمين، جـ٤، ص٢٤٥؛ المقريزي، السلوك، جـ٢، ص٢٠٩.

(٥) ابن الفرات، تاريخه، جـ٧، ص٢٤٧؛ الفاسي، العقد الثمين، جـ١، ص ص٤٦٢-٤٦٣؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٧، ص١٦٧؛ ابن القاسم، غاية الأماني، ق٢، ص٥١٦؛ دحلان، خلاصة الكلام، ص٢٧؛ سرور، دولة بني قلاوون، ص ص١٢٢-١٢٤.

ثالثاً: دور أشراف مكة في هذا الصراع

استطاع الظاهر بيبرس بفضل إحيائه الخلافة العباسية في مصر، وحرصه على التوفيق بين أمراء مكة المكرمة والمدينة المنورة، وإمدادهما بالأموال والصدقات لأهل الحرمين والمجاورين أن يستعيد مكانة مصر في بلاد الحجاز[1]. ولما استقرت الأمور للسلطان الناصر محمد بن قلاوون بسط نفوذه على مكة والمدينة بسبب ذلك الخلاف الذي كان بين أمراء كل منهما، وما كان من التجاء المنهزم منهم إليه ليستمد منه قوةً وسلطاناً. [2]

وفي عام ٧٤٤هـ/١٣٤٣م استدعى السلطان الصالح إسماعيل الأمير ثقبة إلى مصر وقبض عليه، وأعاد الشريف رميثة إلى أمرة مكة، ولما علم بذلك عجلان رحل إلى اليمن واستقبله سلطانها بالإكرام، ثم عاد عجلان إلى مكة واصطلح مع أبيه، ثم استقل بإمرتها بعد وفاته. [3]

وتعتبر قضية الملك المجاهد واعتقاله ومن ثم أسره وإرساله إلى مصر أكبر دور لعبه أشراف مكة في هذا الصراع، وقد ترتب عليه دخول مصر واليمن في تنافس قوي حول الحجاز، حيث حاول سلاطين الدولتين شراء ولاء أشراف الحجاز بإرسال الأموال والهبات والصدقات لهم ولأهل الحرمين. [4]

وكان أن احتدم الصراع الداخلي بين أمراء مكة والمدينة، ثم بين أمراء مكة بعضهم ببعض، وقد أدى هذا الصراع إلى زوال دولة الهواشم أولاً، ثم نشوب كثير من الفتن في مواسم الحج وغيرها ثانياً، كما سمح للمماليك والرسوليين بالتدخل في شؤون الحجاز بحجج مختلفة، إذ كان يحدث أحياناً أن يلجأ أحد أمراء البيت الحاكم

---

(١) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، جـ٣، ص٤٥٥؛ ابن فهد، أتحاف الورى، جـ١، ص٩٩؛ قاسم، عبده قاسم، الأيوبيون والمماليك، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الرياض، ١٩٩٥م، ص ص١٥٠-١٥١ وسيشار إليه لاحقاً: قاسم، الأيوبيون والمماليك؛ حته، محمد كامل، في ظلال الحرمين، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧م، ص٣٥٩ وسيشار إليه لاحقاً: حته، في ظلال الحرمين.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١١، ص٩٤؛ والمنهل الصافي، جـ٤، ص١٠١.

(٣) ابن الوردي، تاريخه، جـ٢، ص٢٩٥؛ الجزيري، الدرر الفرائد، جـ١، ص٢٦٠.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٤، ص٣٢؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، جـ٢، ص ص٤٤٩-٤٥٠؛ الجزيري، الدرر الفرائد، جـ١، ص ص٢٦١-٢٦٣.

إلى مصر واليمن أو يدعي الطرفان المتنافسان أن حجّاجه قد أهينوا أو اضطهدوا.[1] ويتضح لنا من مجريات الأحداث أن الأشراف كانوا يأنفون أن يسيطر عليهم المماليك والرسوليون، بيد أنهم لم يستطيعوا أن يوحدوا صفوفهم. ودفع بهم حب السيطرة إلى الاستعانة بالرسوليون حيناً والمماليك حيناً آخر، مما أدى إلى تذبذب ولائهم بين الدولتين، وكانوا يطمعون من وراء هذه السياسة أن يمدهم أحد الفريقين بقوة يستطيعون بها الثبات في وجه منافسيهم. في الوقت الذي كان فيه حكام المماليك لا يثقون في أحد من أولئك الأشراف ولا يأمنون غدرهم. وحسبنا أن نشير إلى أن أبا نمي (٦٥٤هـ-٧٠١هـ/١٢٥٦-١٣٠١م) الذي كان أول من دعا للمماليك على منابر مكة، وأعلن ولاءه لهم وخرج عن طاعتهم مراراً، حتى خشوا سطوته وتخوفوا من نزعته الاستقلالية فلم يتحمسوا كثيراً لتأييده، الأمر الذي جعله يعتدي على الحجاج المصريين سنتي ٦٨٣هـ/١٢٨٤م و٦٨٩هـ/١٢٩٠م لشكه فيهم.[2]

ثم إن رغبة أبو نمي في الانتقام من حكام مصر دفعته للإعلان عن ولائه لليمنيين لفترة من الزمن[3]، بل لقد أعلن ولاءه للحفصيين في تونس فيما بين سنتي ٦٥٦-٦٥٩هـ/١٢٥٨-١٢٦٠م. وامتدت الصراعات لتشمل أمراء المدينتين المقدستين، وهم أبناء بيت واحد للفوز بالسيطرة على الحجاز بأجمعه فقد لجأ الطرفان في أحيان كثيرة إلى أحد سلاطين الدولتين في الدولة المملوكية والدولة الرسولية[4]، مما أدى إلى تأجيج الصراع بين المماليك والرسوليين بسبب أشراف

---

(١) الفاسي، شفاء الغرام، جـ١، ص٢٧٥؛ حسين، دراسات، ص ص٢٢٦-٢٤٢؛ عنقاوي، عبد الله عقيل، مكة في عهد الشريف قتادة الحسني (٥٩٧-٦١٧هـ/١٢٠٠-١٢٢٠م)، مجلة كلية الأداب، جامعة الملك سعود، الرياض، مجـ١٢، ع١، ١٩٨٥م، ص ص٨٤-٨٦ وسيشار إليه لاحقاً: عنقاوي، مكة في عهد الشريف قتادة الحسني.

(٢) الفاسي، العقد الثمين، جـ١، ص٤٦٦؛ الحداد، محمد حمزة، السلطان المنصور قلاوون صفحات من تاريخ مصر (٢٢)، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٣م، ص ص١٠٢-١٠٣ وسيشار إليه لاحقاً: الحداد، السلطان المنصور.

(٣) الفاسي، العقد الثمين، جـ١، ص٤٦٤.

(٤) المقريزي، السلوك، جـ١، ص٦٠١؛ عاشور، الظاهر بيبرس، ص١١٢ (الحفصيون: أسست إمارة لهم في تونس سنة ٦٢٥هـ /١٢٢٧م، على يد أبو زكريا يحيى الأول، وأتخذ لنفسه لقب الأمير، وفي عهد الأمير أبو زكريا يحيى الثاني، اعلن الخلافة حيث تلقب بالواثق واتخذ لنفسه لقب الخليفة وأمير المؤمنين وذلك=

الحجاز ورغبتهم في دعم أحد الطرفين. لكي يحتفظ كل منهما بحكم مدينته والوقوف في وجه هجمات الآخر.*[1]

من ذلك أيضا وصول الشريف علي بن كبيش من مكة إلى اليمن طالبا العون والمساعدة من الملك الناصر أحمد الرسولي (٨٠٣-٨٢٧هـ/ ١٤٠٠-١٤٢٣م) فكان ذلك في سنة ٨١٣هـ/ ١٤١٠م، فوعده بذلك[2]

كما وصل زين الدين شكر عبد الشريف حسن بن عجلان صاحب مكة سفيرا إلى اليمن سنة ٨١٥هـ/١٤١٢م، يطلب من السلطان الناصر الرسولي أن يساند الشريف حسن ضد أعدائه من الأشراف بناء على طلب سيده [3]

ولأهمية العمق اليمني للاشراف في مكة المتمثل بالدولة الرسولية أعاد الشريف حسن بن عجلان المال الذي قد أخذه من التجار اليمنيين سنة ٨١٦هـ/ ١٤١٣م، حيث أرسلها برفقه القاضي زين الدين مفلح التركي إلى اليمن معتذرا عما صدر منه، وكان برفقة القاضي التجار ومعهم هدية تكونت من ٤٠٠ مملوك واكاديش وبغال وتحف حيث وصل إلى اليمنفي سنة ٨١٧هـ/ ١٤١٤م[4]

وفي موسم سنة ٨١٨هـ/ ١٤١٥م لم يحج أحد من اليمن، وكان السبب في ذلك الخلافات بين أشراف مكة وحاكم الدولة الرسولية[5]

---

*بعد أن سقطت الخلافة العباسية في بغداد على يد التتار سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م ، حيث دعا له شريف مكة الأمير أبو نمي بعد أن خلع طاعة المماليك والرسوليون مابين سنتين ٦٥٦هـ -٦٥٩هـ / ١٢٥٨-١٢٦٠م(زامباور، ادوارد، الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، أخرجه : زكي حسن وأخرون ، أختارته وأنفقت على ترجمتة: الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية، مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة، ١٩٥١م. ص ص ١١٥-١١٧ وسيشار إليه لاحقا: زامباور، الاسرات الحاكمة)).

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٤، ص٣٠٢.

(٢) مجهول ، تاريخ الدولة الرسولية، ص ١٦٠.

(٣) مجهول تاريخ الدولة الرسولية، ص ١٦٦.

(٤) مجهول، تاريخ الدولة الرسولية، ص ١٦٧

(٥) مجهول، تاريخ الدولة الرسولية، ص ١٧٩

وتسلم الحكم فيما بعد الملك المظفر هزقبر الدين يحيى بن الأشرف إسماعيل بن العباس ابن داود(٨٣١-٨٤٢هـ/ ١٤٢٧-١٤٣٨م) وكانت العلاقات في عهده طيبه مع الأشراف في مكة وسلاطين الدولة الملوكية في مصر[(١)]

أدرك سلاطين المماليك أن أمراء مكة والمدينة سلاح ذو حدين، إذ بإمكان الرسوليين استخدامهم كما يفعلون هم. لذلك آثروا إضعافهم ثم عمدوا إلى تولية أمير مكة شئون المدينة وخاصة أيام الجراكسة عندما فرض المماليك أموالاً على الأمراء يدفعونها سنوياً مقابل بقائهم في إماراتهم. وكانوا يؤثرون بالإمارة من يدفع أكثر، في الوقت الذي كان أمراء مكة أيسرها حالاً من أشراف المدينة. [(٢)]

---

(١) مجهول، تاريخ الدولة الرسولية، ص ١٨٠-١٨٣

(٢) النويري، نهاية الأرب، جـ٢٨، ص٦٤؛ الفاسي، العقد الثمين، جـ١، ص٤٥٩؛ المقريزي، السلوك، جـ١، ص٥٨١؛ ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص ص٩١-٩٣.

الفصل الرابع

الإدارة في الحجاز في عصر دولة المماليك

أ- الوظائف الإدارية في الحجاز:-

١-إمارة مكة المكرمة. ٢- إمارة المدينة المنورة.

٣-نيابة السلطنة الحجازية. ٤- ناظر مدينة جدة.

٥-ناظر مدينة ينبع.

٦-متولى العمارة في الحرم (شاد العمارة).

ب- الوظائف الدينية:-

١- ناظر الحرم الشريف. ٢- القضاة.

٣-مشيخة الحرم الشريف. ٤- الخطابة.

٥-التداريس. ٦-المؤذنون.

٧-خدام الحرمين. ٨-الحسبة.

٩-ناظر الأوقاف. ١٠- ناظر الأربطة.

١١-ناظر الصدقات. ١٢- شيخ السدنة.

جـ- الوظائف العسكرية (الجيش في الحجاز).

أ- الوظائف الإدارية في الحجاز.

١- إمارة مكة المكرمة.

كانت إمارة مكة في بني الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وكانت تولى من أبواب الخلافة العباسية ببغداد حتى سقوطها ٦٥٦هـ/١٢٥٨م. ثم استقر الأمر بها من قبل سلاطين المماليك، ما عدا فترات ضعفهم وصراعهم مع منافسيهم من الرسوليون في اليمن والخانية فارس في العراق. (١)

ونستخلص من المراسيم الشريفة لأمراء مكة مهمات وواجبات الأمير وهي: أن يحكم بين الناس بالعدل كونه شعار السلطنة، وأن يحسن إلى أهل بلده ويقضي حوائجهم، وأن يعفو عن المسيء منهم ويجازي المحسن على إحسانه، وأن يعيّن أصحاب الكفاءات العالية في مناصب الإمارة، وأن يقدم فيها من كان مقدماً وتسعفه خبرته في سلوك سبيل الخير، وأن يزيل المظالم، وأن يطهر الإمارة من كل خارج على الشرع، وأن لا يجعل في بطانته أشخاصاً معروفاً عنهم النفاق والفساد، وأن يصون أعراض وأموال ودماء الناس من الاعتداء؛ وأن يرحب بحجاج بيت الله الحرام ويقدم لهم السقاية والرفادة، وأن يشيع الأمن بينهم منتهجاً بذلك نهج آبائه وأجداده في إكرام ضيوف الرحمن. وأن يجبر الخائف ويخفف عليه حتى يطمئن، وأن يقدم الولاء والطاعة دائماً أمام أمراء الحج المصري أثناء استقباله محمل الحج؛ وأن يقضي على أعمال الشغب في أمارته من قطع طريق يقوم بها الأعراب، أو

---

(١) ابن الجوزي، أبو الفرج بن عبد الرحمن، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تصحيح: هاشم الندوي وآخرون، حيدرآباد، دائرة المعارف العثمانية، ١٩٣٩م، جـ٦، ص ص٢٢٣-٢٢٤، وسيشار إليه لاحقاً: ابن الجوزي، المنتظم؛ ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م-١٩٧٢م، جـ٥، ص٥٨ وسيشار إليه لاحقاً: ابن خلكان، وفيات الأعيان؛ ابن رسول، السلطان الأشرف عمر بن يوسف ، طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب ، حققه: ك. و. سترستين ، المجمع العلمي العربي، بدمشق، مطبعة الترقي، دمشق، ١٩٤٩م، ص ص١٠٥-١٠٨ وسيشار إليه لاحقاً: ابن رسول، طرفة الأصحاب؛ ابن فضل الله العمري، أحمد بن يحيى، التعريف بالمصطلح الشريف، عنيه بتحقيقة وضبطه وتعليق حواشيه: محمد حسين شميس الدين، دار الكتب العلمية، لبنان- بيروت، ط١، ١٩٨٨م. ص ص٣٣-٣٤، وسيشار إليه لاحقاً: ابن فضل الله العمري، التعريف؛ ابن خلدون، العبر ، جـ٤ ،ص ص ٩٩-١٠٠ سرور، محمد جمال الدين، سياسة الفاطميين الخارجية، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٦م، ص٢٠ وسيشار إليه لاحقاً: سرور، سياسة الفاطميين.

نهب ولصوصية تجري على يد العبيد والموالي. وأن يعامل التجار القادمين إلى مكة معاملة حسنة، وأن يخفض عنهم المكوس ويرفع عنهم الظلم ولا يوقع غرامة عليهم، ويوفر الأماكن المناسبة لهم ولبضائعهم لأن بقدومهم ينتعش أهل مكة والحجاج. وأن يطبق شعائر الإسلام وأوامره ونواهيه على سيرة السلف الصالح، وأن لا يأخذ برأي الزيدية في اليمن ويكف أطماعها. (١)

ومن صفاته، أن يكون ورعاً تقياً ليلقى وجه الله أغراً أبيض الوجه، وأن يتبع سنة جده المصطفى ﷺ التي حث في السير عليها، وأن يكون من أهل بيت النبوة وعترته، وأن يكون جواداً كريماً اقتداءاً بأجداده وآبائه. (٢)

٢- إمارة المدينة المنورة

إمارتها في بني الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، ومهمات الأمير فيها على ما مر في إمارة مكة. (٣)

ونستشف من نسخ تقليد الأشراف لإمرة المدينة والتي أرسلها سلاطين المماليك إليهم، مهمات ووظائف الأمير فيها، وهي مشابهة لوظائف ومهمات أمير مكة التي أوردناها سابقاً، ولكن لأمير المدينة وظائف غير التي ذكرت في إمارة مكة تقتضيها ظروف المدينة المنورة، وهي: أن لا يعتنق ما نادى به الروافض غير السنة من بدع وتطهير المدينة منهم، وأن يمنع الأمامية من إقامة شعائرهم الدينية، وأن لا يتعرض لأحد ممن خالطهم، وأن يتوصى خيراً بأهل المدينة، وأن يقرب إليه أهل باديتها. وعليه أن يكون على أهبة الاستعداد لجهاد أعداء الله متى طلب منه ذلك، وأن يكرم شيخ الحرم وخدمة ويحسن إليهم، وأن يحافظ على أموال الحرم

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ١٢، ص ص٢٣١-٢٣٥؛ ابن فضل الله العمري، التعريف، ص ص ١٤٢-١٤٤.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ١٢، ص ص٢٣٠، ٢٣٢، ٢٣٤-٢٣٥؛ ابن فضل الله العمري، التعريف، ص١٤٤.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى ، جـ١٢، ص٢٤٢؛ ابن فضل الله العمري، التعريف ، ص٣٥.

الشريف ومخازن الحبوب فيه من التبذير وأن لا ينفقها إلا بالحق، وأن لا يحدث ولا يتدخل في الفتن ما ظهر منها وما بطن ليصون شرفه ونسبه الذي ينتسب إليه. (١)

٣- نيابة السلطنة الحجازية.

نائب السلطنة: الجمع نواب السلطنة: وقد كانت دولة المماليك تنقسم إلى جملة أقاليم كل منها يسمى مملكة، ولذلك كانت تسمى في مجموعها بالممالك الإسلامية فمثلاً قسمت الشام إلى ممالك، وأن عرفت أيضاً بالنيابات، وعرفت الحجاز بالنيابة سنة ٨١١هـ/ ١٤٠٨م عندما بدأ سلاطين المماليك يعينون نواباً عنهم فيها. (٢)

أصبحت الحجاز نيابة مملوكية وذلك عندما أدخل السلطان الناصر فرج بن برقوق تطويراً إدارياً جديداً تضمن تحويل الحجاز بكافة الإمارات التابعة له إلى نيابة، وبذلك صارت الحجاز تابعة لسلطان المماليك في مصر مباشرة. وقد عين السلطان الناصر فيها الشريف حسن بن عجلان سنة ٨١١هـ/ ١٤٠٨م حيث وسع سلطاته ليصبح نائب السلطنة في الأقطار الحجازية، وضم إلى حكمه المدينة وينبع وخليص والصفراء وأعمالها، وعين ابنيه بركات وأحمد نائبين عن أبيهما في أمرة مكة. (٣)

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى ، جـ١٢، ص ص٢٤٨-٢٥٧؛ ابن فضل الله العمري، التعريف ، ص ص ١٤٤-١٤٦.

(٢) البقلي، محمد قنديل، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٣م، ص٣٤٤ وسيشار إليه لاحقاً: البقلي، التعريف.

(٣) الفاسي: العقد الثمين، جـ٤، ص١٠٥؛ المقريزي، السلوك، جـ٤، ص ٧٦؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٥، ص١٣٥؛ مورتيل، ريتشارد، الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي، عمادة شؤون المكتبات ، جامعة الملك سعود، مطابع جامعة الملك سعود، السعودية- الرياض ، ١٩٨٥م، ص ١٢٥ وسيشار إلأيه لاحقاً : مورتيل، الأحوال السياسية.

ثبت الشريف حسن سيطرته على الحجاز، فمارس سلطته كنائب لسلطنة دولة المماليك الأول مرة عندما فوض الشريف عجلان بن نعير إمرة المدينة المنورة في نهاية شهر ربيع الآخر من سنة ٨١١هـ/١٤٠٨م. (١)

وأما مهمات ووظائف نائب السلطنة الحجازية فهي نفس مهمات ووظائف أميري مكة المكرمة والمدينة المنورة. (٢)

عزل السلطان الناصر فرج الشريف حسن عن نيابة السلطنة الحجازية وأبنيه بركات وأحمد عن أمرة مكة سنة ٨١٢هـ/١٤٠٩م، ثم أعاده إلى منصبه في نفس العام بعد أن ألزمه السلطان بدفع ضريبة سنوية يؤديها إليه، وأرسل له خلعة السلطنة، فأرسل إليه الشريف حسن هدية قيمة سنة ٨١٤هـ/١٤١١م تعبيراً عن ولائه وطاعته للسلطان. (٣)

سار السلطان الملك المؤيد شيخ المحمودي على سياسة السلطان الناصر فرج إزاء الأشراف في الحجاز في بداية عهده، ويؤكد ذلك إرساله خلعاً للشريف حسن وابنيه: بركات وأحمد ومعها كتاب يجدد فيه ثقته بهم وإقرارهم في وظائفهم وكان ذلك في شهر شوال سنة ٨١٥هـ/١٤١٢م. (٤) ثم ما لبث أن عزله وابنيه عن نيابة الأقطار الحجازية وأمرة مكة، وولى بدلاً منهم رميثة بن محمد بن عجلان في هذين المنصبين، حيث قرئ توقيعه بنيابة السلطنة بالأقطار الحجازية وأمرة مكة بالمسجد الحرام في موسم حج سنة ٨١٨هـ/١٤١٥م. ويبدو أن السلطان غضب على الشريف حسن للأحداث التي قامت في موسم الحج السابق، ولعجز الشريف من

---

(١) الفاسي، العقد الثمين، جـ٤، ص١٠٥؛ المقريزي، السلوك، جـ٤، ص٧٥؛ مورتيل، الأحوال السياسية، ص١٢٦.

(٢) انظر: نفس الفصل الصفحات ٦٠-٦١.

(٣) الفاسي، العقد الثمين، جـ٤، ص١١١؛ ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص ص٤٩٠-٤٩١؛ مورتيل، الأحوال السياسية، ص١٢٧.

(٤) الفاسي، العقد الثمين، جـ٤، ص١١٢؛ ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص ص٤٩٦-٤٩٧؛ ومورتيل، الأحوال السياسية، ص١٢٨.

حسم الخلافات التي بينه وبين إبن اخيه رميثه الأمر الذي أدى إلى اضطراب الأمور في الحجاز وعدم استقرارها. (١)

شهدت فترة حكم الشريف حسن الثانية (٨١٨هـ/١٤١٥م-٨٢٩هـ/١٤٢٥م) لنيابة السلطنة كثيراً من الفوضى واضطراب الأمن أحياناً في الحجاز، الأمر الذي أدى بسلاطين المماليك إلى عزل الشريف حسن عدة مرات ثم أعادته إلى منصبه في كل مرة لثقتهم القوية بقدرته في السيطرة على الوضع بالحجاز. (٢)

وفي موسم حج سنة ٨٢٩هـ/١٤٢٥م، استقبل الشريف حسن محمل الحج المصري وأمرائه وإكرام رفادتهم، وبعد انتهاء الموسم سافر معهم إلى القاهرة لمقابلة السلطان وأناب عنه ابنه بركات، حيث أدركته منيته بالقاهرة. (٣) وفي نفس العام استدعى السلطان الأشرف برسباي الشريف بركات وأخوه الشريف إبراهيم حيث قام بتعيين الشريف بركات أميراً على مكة، وحلف أخوه إبراهيم على طاعته وعدم الخروج عليه، فعندما كان يغضب السلطان على الشريف بركات يقوم بعزله وتعيين أحد أخوته مكانه. (٤)

ظل الشريف بركات بالإمارة إلى أن شعر بكبر سنه فطلب من السلطان تعيين ابنه الشريف محمد مكانه في إمارة مكة، فوافق السلطان وكان ذلك في سنة ٨٥٩هـ/١٤٥٤م.(٥)

---

(١) الفاسي، العقد الثمين، جـ٤، ص١٢٢؛ المقريزي، السلوك، جـ٤، ص٢٩١، ٣٤٢؛ مورتيل، الأحوال السياسية، ص١٣١.

(٢) الفاسي، العقد الثمين، جـ٤، ص١٢٢؛ المقريزي، السلوك، جـ٤، ص ص٣٦٦-٣٦٧؛ ابن حجر، أنباء الغمر، جـ٣، ص٩٨.

(٣) الفاسي، العقد الثمين، جـ٤، ص ص١٥٢-١٥٣؛ المقريزي، السلوك، جـ٤، ص ٧٠٦؛ ابن حجر، أنباء الغمر، جـ٣، ص٣٦٤، ٣٦٧.

(٤) ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص ص٦٢٩-٦٣٠؛ المقريزي، السلوك، جـ٤، ص٧٣٤؛ ابن حجر، أنباء الغمر، جـ٣، ص٣٧٦.

(٥) ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٤، ص ص٣٥٠-٣٥٤.

٤- ناظر مدينة جدة

في اللغة: **الناظر** : الحافظ ، وناظر الزرع والنخيل وغيرهما: حافظة. (١)

وفي الاصطلاح: هي وظيفة أو مرتبة استحدثت في العصر الأيوبي واستمرت في العصر المملوكي وكان يتولاها أمير برتبة كبيرة، وفي أحيان يعدُ صاحبها من أرباب الوظائف الدينية كناظر الحرمين الشريفين، وأحياناً من أرباب الوظائف الإدارية نذكر منهم: ناظر مدينة جدة والذي ينظر بجمع عشور(٢) جدة، وناظر ينبع الذي يدبر أمور ميناء ينبع، وغير ذلك من الوظائف مثل ناظر الأحباس، وناظر الأوقاف، وناظر الأشراف وغيرها. (٣)

في العشرينات من القرن التاسع الهجري/الرابع عشر الميلادي شهد ميناء جدة حركة تجارية عظيمة لكثرة ما ورد إليها من مراكب تجارية مليئة بالبضائع المختلفة، فحصل منها أمير مكة أموالاً طائلة، فسمع السلطان الأشرف برسباي بعظم الأموال التي يجبيها الأمير من المكوس، فقرر سنة ٨٢٨هـ/١٤٢٤م مشاركته فيها، فبعث من قبله رجلاً يدعى سعد(٤) الدين بن المرة ليأتيه بنصيبيه من عشور التجارة بجدة. فبلغ ما حصله في تلك السنة سبعين ألف دينار، فأصبح نظر جدة منذ ذلك

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، ص ٢١٨.

(٢) أموال العشور: هي الضرائب التي تأخذ وتحصل من التجار القادمين من الهند وغيرها إلى جدة على البضائع الواردة إليها، ويعين لها ناظر خاص وله أعوان ومساعدين، ويتم تحصيلها في موسم الحج لكثرة الحركة التجارية فيه، وتقدر بعشرة بالمائة من أثمان البضائع ونسبة لذلك عرفت بالعشور (مورتيل، الأحوال السياسية، ص١٨٣).

(٣) الخطيب، مصطفى عبد الكريم، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٦م، ص٤٩ وسيشار إليه لاحقاً: الخطيب، معجم المصطلحات.

(٤) سعد الدين بن المرة: ولي نظر المفرد في عهد السلطان برسباي، ثم أصبح ناظر جدة في شهر ربيع الأول من سنة ٨٢٨هـ/ ١٤٢٥/ حيث اختص بتحصيل الضرائب من تجار الهند القادمين إلى جدة، وأرسال هذا المال إلى القاهرة ، وحصل من هذه الوظيفة ثروة طائلة، توفي في القاهرة في شهر ربيع الأخر من سنة ٨٤٤هـ/ ١٤٤٠م.(المقريزي، السلوك، جـ٤ ، ص ٨٧٣؛ ابن حجز ، انباء الغمر ، جـ٨، ص ص ٢٢٨-٢٢٩؛ ابن فهد، اتحاف الوراء، جـ٣ ص ٦٢٠؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ١٠ ، ص ص ١٨٤-١٨٥؛ مورتيل ، الأحوال السياسية والإقتصادية ، ص١٨٣).

الوقت وظيفة سلطانية يخلع على متوليها، ويتوجه في كل سنة إلى مكة في أوان ورود المراكب إلى جدة، فيأخذ عشور التجارة، ثم يقفل عائداً إلى القاهرة. (١)

وأما مهمات ناظر جدة فهي: تحصيل المكوس من المراكب التجارية الواردة إلى ميناء جدة(٢)، وإرسال نصيب السلطان من المكوس إلى القاهرة(٣)، كما كان عليه متابعة التجار ومنعهم من الرسو في غير ميناء جدة(٤)، ويقوم كذلك بإلزام التجار بدفع رسوم إضافية أخرى، كانت تدفع رواتب للموظفين الذين كانوا يساعدون ناظر جدة في عمله مثل الشاد وشهود القبان والصيرفي وأعوانه وغيرهم. (٥)

وكان سعد الدين بن المرة أول من تولى هذه الوظيفة، وكان ماهراً في المسائل المالية شديد القسوة على التجار، وقد جمع من استغلال منصبه أموالاً طائلة، إلا أنه لم يكن أمهر من السلطان برسباي الذي صادره سنة ٨٣٨هـ/١٤٣٤م، ثم عاد فولاه مرة أخرى لأنه لم يجد من يضاهيه في خبرته وذكائه. (٦)

ومن محصلي جدة أيضاً بكار الخاصكي الذي خلف ابن المرة في منصبه(٧)، فدفع رشوة ضخمة ثم ما لبث سعد الدين بن المرة أن عاد لأنه قدم للسلطان أكثر. ثم نافسه على المنصب الأمير كريم الدين بن كاتب المناخ ففاز به لسنة

(١) المقريزي، السلوك، جـ٤، ص ص٦٢٣-٦٢٤، ٦٨٠-٦٨١؛ ابن شاهين الظاهري، غرس الدين خليل، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، وضع حواشيه : خليل منصور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٧، ص ١٤ وسيشار إليه لاحقاً: ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك.
(٢) المقريزي، السلوك، جـ٤، ص ص٦٢٣-٦٢٤.
(٣) الفاسي، العقد الثمين، جـ٤، ص٤٢٥؛ ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص٦٤٩.
(٤) ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٤، ص ص٧٨-٨٦؛ السخاوي، محمد بن عبد الرحمن ، التبر المسبوك في ذيل السلوك مطبعة بولاق، القاهرة ، ١٨٩٦، ص ٧٥ وسيشار إليه لاحقاً: السخاوي ، التبر المسبوك.
(٥) المقريزي، السلوك، جـ٤، ص ص٦٢٣-٦٢٤؛ ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص٦٤٩.
(٦) المقريزي، السلوك، جـ٤، ص٩٢٨؛ ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص ص٦٢٠-٦٢٣، ٦٣٣، ٦٤١.
(٧) المقريزي، السلوك، جـ٤، ص٩٢٨؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٩٦، ١٠٣، ١٢٣، ١٨١.

٨٣٩هـ/١٤٣٥م[١]، ثم عاد ابن المرة سنة ٨٤٠هـ/١٤٣٦م في منصبه من جديد. [٢]

وكان ريحان بن عبد الله من الذين أثروا بعد أن تولى هذا المنصب، حيث يقول الفاسي عنه: "وحصل دنياً وأملاكاً ثم ذهب غالب ذلك منه".[٣]

٥- نيابة مدينة ينبع

استحدثت هذه الوظيفة في عصر دولة المماليك، وكانت نيابتها في بني الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، ويذكر القلقشندي أنه: (عدل بها عن لفظ الأمارة إلى لفظ النيابة تصغيراً لشأنها عن مكة والمدينة، ويكتسب لنائبها مرسوم شريف في قطع الثلث "بالمجلس السامي").[٤]

ويتبين لنا من خلال مرسوم شريف بنيابة ينبع كتب به لمخذم بن عقيل في عاشر رجب سنة ٧٣٤هـ/١٣٣٣م من إنشاء المقر الشهابي بن فضل الله، الصفات التي يجب أن يتمتع بها نائب ينبع هي: أن يكون موالياً ومطيعاً للسلطان في مصر كما عهد ذلك في أبيه وجده، وأن يتحرى العدل بين أهل بلده، وينشر الأمن والسكينة في نفوس أهلها، وأن يقدم تقوى الله على كل شيء. [٥]

أما مهام نائب ينبع من خلال المرسوم السلطاني الذي ذكره القلقشندي فهي: أن يحكم بين الناس بالعدل ولا تأخذه في قول الحق لومة لائم، وأن يحافظ على أمن الطرق المؤدية إلى الحرمين، وأن يقدم كافة التسهيلات الممكنة للحجاج فهم ضيوف الرحمن، فعليه أن يكرم وفادتهم ويوفر الأماكن المناسبة لمبيتهم وتخزين بضائعهم، ويحفظ الأمانات التي تودع عنده من قبل الحجاج والتجار، وردها إليهم عندما يطلبونها، وأن تكون سيرته مع التجار حسنه، لأن قدومهم يوسع على أهل الحرمين.

---

(١) المقريزي، السلوك، جـ٤، ص٩٦٥؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٨، ص ص٢٢٨-٢٢٩؛ الصيرفي، نزهة النفوس، جـ٣، ص ص٢١٨-٢٢٠.

(٢) المقريزي، السلوك، جـ٤، ص ص٩٩٥، ١٠٠٠.

(٣) الفاسي، العقد الثمين، جـ٤، ص٤٢٥.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ١٢، ص٢٦٢.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ١٢، ص٢٦٢-٢٦٤.

كما عليه أن يوصل أبناء السبيل إلى مأمنهم إذا انقطعوا من الأموال والرحال، وأن يخص أهل بلده بالعدل والإحسان إليهم، وأن يرفق بهم وينشر الأمن بينهم. وعلى النائب أن يتأنى في معرفة الحق من الباطل، فإن معرفته كمعرفة الصوم من الإفطار، وأن يلزم الجماعة فقد بارك الله فيها لأنه يد الله مع الجماعة، ويجب عليه أن يقدم الخدمة لكل من يحط رحاله في البلاد دون تقصير، وأن يحارب كل من يقدم على ارتكاب المحذورات والمحظورات والمخالفين للشرع. (١)

وفي نهاية المرسوم حذره السلطان من مخالفة الشرع، والخروج عن طاعته، لأن ذلك يؤدي به إلى غضب السلطان عليه وبالتالي عزله وفي بعض الأحيان تؤدي إلى مقتله، ويضيف السلطان قائلاً: "وقد رأيت كيف طريقتنا المثلى وسيرتنا التي لا تجد لها مثلاً، فاسلك هذه الحجة، وحسبك أن تتخذ بينك وبين الله حُجَّة، وفي هذا عن بقية الوصايا غنى، والله يزيل عنك الخوف في الخيف، ويبلغك المنُى في منى".(٢)

٦- متولي العمارة في الحرم (شاد العمارة).

الشد: تعني التفتيش، ويسمى متولي هذه الوظيفة الشاد مضافاً إليها جهة الاختصاص مثل شاد العمائر وشاد الجوالي وغيرها. (٣)

شد العمائر: هي وظيفة دينية ولكن يتولاها أحد الأمراء المماليك، ولصاحبها الأشراف والرعاية على العمائر السلطانية مما يختار السلطان إنشاؤه، أو تجديده من القصور والمنازل والأسوار، وهي أمرة عشرة. (٤)

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى جـ١٢، ص ص٢٦٢-٢٦٤.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى جـ١٢، ص ص٢٦٥.

(٣) البقلي، التعريف، ص١٩٣. (شاد الجوالي: الذي يقوم بتحصيل الرسوم المفروضة على أهل الذمة وعليه أن يطبق أحكام الإسلام فيها وتوليته بتوقيع (البقلي، التعريف ، ص ١٩٣).

(٤) البقلي، التعريف، ص١٩٥ (أمرة عشرة: تسمى وظيفتهم أمريات عشرة، وليس لهم الحق في دق الطبول تشرفاً لهم، وكان لكل أمير من هؤلاء عشرة مماليك خاصة بهم، وهؤلاء الأمراء معظمهم من أبناء الأمراء الخمسات أو الخمسوات تقديراً لخدمات آبائهم (البقلي، التعريف، ص٤٤).

وجدت هذه الوظيفة في الحجاز في العصر المملوكي، حيث اهتم سلاطين المماليك بإرسال من يقوم بعمارة ما يخرب سنوياً في الحرمين الشريفين وما حوله من مدن، وكان إرسال متولي العمارة يتم عادة قبل الحج لعمارة ما يحتاج إلى ترميم وإصلاح حتى يسهلوا على الحجاج ولتجنب حدوث أزمات خانقة في موسم الحج.[(١)]

ومن مهمات ووظائف شاد العمارة هي: عمارة المساجد ومن ذلك ما قام به الأمير يلبغا الخاصكي شاد العمائر زمن السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون من بناء مسجد المزدلفة سنة ٧٦٠هـ/١٣٥٨م، وبناؤه مسجداً على جبل الرحمة زمن السلطان الظاهر برقوق سنة ٧٩٩هـ/١٣٩٦م.[(٢)] وإنشاء خزانات المياه في طريق الحجاج، ومن ذلك ما أنشأه الأمير يلبغا الخاصكي على جبل الرحمة أحد جبال عرفة بمكة سنة ٧٩٩هـ/١٣٩٦م.[(٣)] كما عليه أن يقوم بتجديد مآذن ومنارات المساجد في الحجاز، ومن ذلك ما قام به ناظر جدة سعد الدين ابن المرة من تجديد مئذنة جامع جدة سنة ٨٢٩هـ/١٤٢٥م بأمر السلطان الأشرف برسباي.[(٤)] ويتولى الشاد عادة إصلاح وترميم الأوتاد الخشبية الموضوعة في سطح الكعبة والتي تستعمل لشد حبال الكسوة إذا تآكلت، ومن ذلك ما قام به شاد العمائر سودون المحمدي في زمن السلطان الظاهر جقمق سنة ٨٤٣هـ/١٤٣٩م من تغيير الأوتاد الخشبية الخاصة بالكسوة.[(٥)] كما عليه أن يقوم بإصلاح رخام الحجر الأسود والكعبة وعمارته، وتبييض مآذن المساجد وأبواب الكعبة، وإصلاح الطرق التي يسلكها

---

(١) ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص٢٧٩، ٤٠٦، ٦٢٠-٦٢٣، ٦٣٣، ٦٤١.

(٢) الفاسي، العقد الثمين، جـ٣، ص٢٧٥؛ وشفاء الغرام، جـ١، ص٣١٤؛ ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص٢٧٩، ٤٠٦.

(٣) الفاسي، العقد الثمين، جـ٣، ص٢٥٧؛ وشفاء الغرام، جـ١، ص٣٠٤؛ ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص٤٠٦؛ الجزيري، الدرر الفرائد، جـ١، ص٣١٦.

(٤) المقريزي، السلوك، جـ٤، ص ص٦٨٠-٦٨٤؛ ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص ص٦٢٠-٦٢٣، ٦٤١.

(٥) الفاسي، العقد الثمين، جـ١، ص ص٨٤-٨٥؛ شفاء الغرام، جـ١، ص٨٨، ٩٥-٩٦، ٣٢٦؛ ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص ص٥٣٧-٥٣٨، ٥٨٧، ٥٩٩-٦٠٠؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ٣، ص٦؛ التحفة اللطيفة، جـ١، ص٥٧.

الحجاج[1]. ويجب عليه إصلاح بوابات الحرم الشريف، ومن ذلك ما قام به الأمير مقبل القديدي بأمر السلطان المؤيد شيخ المحمودي سنة ٨٢٦هـ/١٤٢٢م. [2]

وممن تولوا وظيفة شاد العمارة: الأمير علاء الدين علي بن هلال زمن السلطان الناصر محمد بن قلاوون[3]، وأبو بكر بن سنقر في عهد السلطان الأشرف شعبان[4]، والأمير بيسق الشيخي أيام السلطان الناصر فرج[5]، والأمير مقبل القديدي وسودون المحمدي في عهد السلطان الأشرف برسباي. [6] حيث انتشرت على أيدي هؤلاء عمارة المماليك، على أوسع نطاق في الحجاز لرغبة سلاطين المماليك بأن تبقى مآثرهم الدينية شاهدة عليهم عبر التاريخ.

---

(١) النهروالي،الشيخ قطب الدين محمد بن أحمد ، الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، ضمن كتاب أخبار مكة المشرفة، جـ٣ ، روائع التراث العربي(٢)، مكتبة الخياط ، بيروت ، ١٩٦٤م، ص ص ٢١٠-٢١٣، ٢١٦-٢١٩وسيشار إليه لاحقاً: النهرواني، الإعلام؛ الجزيري، الدرر الفرائد، جـ١، ص ص٧٢١، ٧٢٣-٧٢٤، ٧٢٨؛ باسلامة، حسين عبدالله ، تاريخ عمارة المسجد الحرام، الكتاب العربي السعودي(١٦) تهامة للطباعة والنشر والتوزيع، السعودية – جدة ، ط٣ ، ١٩٨٠م، ص ص٧٢-٧٣وسيشار إليه لاحقاً: باسلامة، تاريخ العمارة ؛ دحلان، أمراء البلد الحرام، ص٦٢

(٢) الفاسي، العقد الثمين، جـ١، ص ص٨٣-٨٤؛ شفاء الغرام، جـ١، ص ص ٩٥-٩٦؛ باسلامة، تاريخ العمارة، ص٧٣. (مقبل القديدي: هو شاد العمارة في زمن السلطان المؤيد شيخ المحمودي.حيث أمره السلطان بإصلاح رخام الحجر الأسود والكعبة وعمارته، وقام بتبيض مآذن المساجد وأبواب الكعبة وأبواب الحرم الشريف (الفاسي، العقد الثمين ، جـ١ ، ص ص ٨٣-٨٤).

(٣) ابن الوردي، زين الدين عمر بن المظفر، تتمة المختصر في أخبار البشر، إشراف وتحقيق: أحمد البدراوي ، دار المعرفه ، بيروت، ١٩٧٠، جـ٢، ص٢٨٤ وسيشار إليه لاحقاً: ابن الوردي، تتمة المختصر؛ المقريزي، السلوك، جـ٢، ص٢٠٩، ٣٠٣؛ ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص١٨٥؛ المراغي، ابي بكر بن الحسين بن عمر ، تحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة، صححه وحققه: محمد عبد الجواد الأصمعي، المكتبة العلمية، المدينة المنورة، ط١ ، ١٩٥٥م، ص ص٨٥-٨٦ وسيشار إليه لاحقاً: المراغي، تحقيق النصرة .

(٤) الفاسي، شفاء الغرام، جـ١، ص٢٤٠؛ المقريزي، السلوك، جـ٣، ص١٨٥؛ ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص ص٣١٢-٣١٣، ٣٢١-٣٢٢.

(٥) الفاسي، العقد الثمين، جـ٤، ص٩٨؛ شفاء الغرام، جـ١، ص٢٠٤، ٢٢٨؛ ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص٤١٢، ٤٢٧، ٤٥٧؛ عبد الغني، تاريخ أمراء مكة المكرمة، ص٦٠١، ٦١٤؛ باسلامة، تاريخ العمارة، ص ص٧٠-٧٣.

(٦) الفاسي، شفاء الغرام، جـ١، ص١٠٤؛ العقد الثمين، جـ١، ص٥٢؛ ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص٤١٣، ٥٢٨؛ النهروالي، الأعلام، ص٢٠٤.

أما عمارة سلاطين بني رسول، فقد كانوا يقومون بها بأنفسهم عند قدومهم لأداء الحج والعمرة، أو تكليف أحد الأشراف في مكة والمدينة بالقيام بالعمارة نيابة عنهم وإرسال الأموال إليه لهذه الغاية. (١)

(١) ابن حاتم اليامي، السمط الغالي، ص٣٧٨؛ الخزرجي، العقود اللؤلؤية، جـ١، ص١٦٩؛ العسجد المسبوك، ق ق٢٤٢-٢٤٣؛ الفاسي، شفاء الغرام، جـ١، ص٢٧، ١٠٣-١٠٤، ١١٥؛ العقد الثمين، جـ١، ص ص٥٠-٥٢؛ ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص٩٢؛ الجزيري، الدرر الفرائد، جـ١، ص٢٨١.

ب- الوظائف الدينية

١- ناظر الحرم

من أهم صفات متولي وظيفة ناظر الحرم: أن يكون شافعي المذهب وذلك لأنها أنيطت بأصحاب المذهب الشافعي دون غيرهم، ويظهر ذلك بوضوح منذ ولاية الضياء الحموي سنة ٧٥٩هـ/ ١٣٥٧م، وظلت في الشافعية حتى نهاية عصر المماليك، وكان عليه أن يتصف بصفات الورع والتقوى والعلم. (١)

ونستخلص من خلال ما أوردته المصادر التاريخية عن ناظر الحرم، مهماته ووظائفه التي كانت منوطة به في عصر المماليك، وهي: الاهتمام بمصالح الحرم، والإشراف على عمارته، والنظر فيما يخص الخليفة في الحرمين، ونتبين ذلك من التقليد الذي أرسله الخليفة المستنصر العباسي بالقاهرة في سنة ٦٥٩هـ/١٢٦٠م إلى عبد الرحمن بن عبد المعطي الأنصاري وابن أخيه عبد المعطي بن أحمد الأنصاري. (٢) والإشراف على صيانة المسجد الحرام ورعايته وتهيئته للمسلمين حتى يتمكنوا من الصلاة فيه، كما فعل الضياء الحموي ناظر الحرم عندما غسل الكعبة في حادثة سيل القناديل في سنة ٧٣٨هـ/١٣٣٧م. (٣) ويقوم الناظر بمراقبة سلامة المسجد الحرام من وجود خراب معماري فيه، كما حدث مع تنم ناظر الحرم حيث هدم الدكة التي كانت عند باب البغلة بالمسجد الحرام لما تسببه من ضرر للمارة. (٤) وعليه المشاركة في حماية البلد من الغزو، كما حدث عندما غزا السيد زاهر بن الشريف أبو القاسم مكة سنة ٨٤٧هـ/١٤٤٣م إذ تصدى له ناظر الحرم. (٥) وأن يقوم بإجراء التحسينات في المسجد الحرام أو الكعبة فيما لا يتصل بالعمارة،

---

(١) الفاسي، العقد الثمين، جـ٥، ص٤٩٦، جـ٦، ص٥٨.

(٢) ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٤، ص ص٢١٣-٢١٤.

(٣) ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص ص١٧، ١٧٤، ١٨٤.

(٤) ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٤، ص ص٢١٠-٢١١.

(٥) ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٤، ص٢٧٣. (زاهر بن الشريف ابو القاسم: تولى امرة مكة نيابة عن ابيه حيث كان له سطوة وجاه في أيامه، وقد عامل أهل مكة بقساوة وظلم، فشكوه إلى أبيه الأمر الذي دعاه إلى تقيده ثم أطلق سراحه بعد أن تعهد بتحسين سيرته ، غزا مكة في ١٠ شعبان من سنة ٨٤٧هـ/١٤٤٣م=

ومن ذلك ما قام به بيرم خجا ناظر الحرم وتحليته لباب الكعبة المشـــرفة بالفضـــة وطلائه بالذهب[1]. ومن مهامه أيضاً: حضور قراءة المراسيم السلطانية التي تـــقرأ في المسجد الحرام، فقد جاء في أتحاف الورى أن طوغان ناظر الحرم حضر قراءة أربع مراسيم بالمسجد الحرام. [2]

أما أول من تولاها فهو منصور بن منعه، إذ قلـــد أمـــر الحـــرم مـــن ســـنة ٦٢٤هـــ/١٢٢٦م وظل فيها حتى وفاته سنة ٦٦٤هـــ/١٢٦٥م[3]، وبعد وفاته تولـــى أمر الحرم ابن أخيه محمد بن عبد الله الطائي ابن منعه حيث بقي فيها إلى وفاته سنة ٧٠٨هـــ/١٣٠٨م. [4]

وتصمت المصادر التاريخية عن ذكر من تولى هـــذه الوظيفـــة حتـــى ســـنة ٧٥٩هـــ/١٣٥٧م، حيث تولاها الضياء الحموي ومنذ ذلك الوقت بدأ لفـــظ النـــاظر يطلق على متوليها، حيث جاء مرسوم من صاحب مصر للحموي ذكر فيه أن يتولى مع القضاء المشاركة في نظر الحرم ومشيخته. [5] وبعد عزله ولى الســـلطان فيـــها قاضي مكة التقي الحرازي، وهو أول قاضٍ تسند إليه هذه الوظيفـــة. ومـــن عـــهده أصبحت وظيفة ناظر الحرم تقلد للقضاة غالباً[6]، وعزل الحـــرازي مـــن القضـــاء والخطابة ونظر الحرم بالقاضي محمد بن أحمد بن عبد العزيز النويري الشـــافعي. وفي أيامه بدأ لفظ ناظر الحرم يأخذ الاستقلالية، وأصبح مصطلحاً خاصـــاً بمتولـــي

=وتتبعه المماليك وهرب إلى الصحراء (ابن فهد، إتحاف الورى، جـــ٤، ص ص ١٧٨-١٧٩، السخاوي ، الضوء اللامع، جـــ٣، ص ٢٣٢).

(١) ابن فهد، أتحاف الورى، جـــ٤، ص٢٢٨. (بيرم خجا بن قشتدي: أصلي الشاد ولي نظر المسجد الحـــرام في أواخر سنة ٨٥٠هـــ عوضاً عن الخواجا الظاهر، وسمع على ابي الفتح المراغي، ووليها مرة ثانية فـــي سنة ٨٥١هـــ وله سبيل بالمعلاة وكان شديد البأس توفي بمكة في صفر سنة ٨٦٠هـــ، (السخاوي ، الضوء اللامع، جـــ٤، ص ٢٢).

(٢) ابن فهد، اتحاف الورى، جت٤، ص ٢٢٨، وانظر لمزيد من المعلومات: الفاسي، العقد الثمين، جـــ٢، ص ص٨٦-٨٨.

(٣) الفاسي، العقد الثمين، جـــ٧، ص٢٨٥.

(٤) الفاسي، العقد الثمين، جـــ٢، ص ص٧٥-٧٦.

(٥) الفاسي، العقد الثمين، جـــ٢، ص ص٨٦-٨٨.

(٦) الفاسي، العقد الثمين، جـــ١، ص٣٦٧؛ ابن فهد، أتحاف الورى، جـــ٣، ص٢٨٦.

أمر النظر في شئون الحرم، وأوضح الفاسي ذلك بقوله: "وكان يعبر عن نظره فيما مضى بمشيخة الحرم".[١]

وممن تولاها أيضاً: محمد بن محمد النويري أبو اليمن قاضي مكة الشافعي[٢]، إذ عزل عنها في سنة ٨٥٠هـ/١٤٤٦م بالخواجا بدر الدين الطاهر[٣]، فعزل وعين عوضاً عنه بيرم خجا في آخر السنة نفسها ناظراً ومحتسباً لمكة معاً، وظل حتى سنة ٨٥٤هـ/١٤٥٠م[٤]، حيث قرئ فيها توقيع برد بك التاجي في المسجد الحرام، وظل فيها إلى سنة ٨٥٧هـ/١٤٥٣م[٥].

٢- القضاة

تأثر النظام القضائي بالحجاز بالنظام القضائي في دولة المماليك، بل كان تابعاً له، لكون الحجاز تابعاً لها وتحت نفوذها. وقد أولى المماليك الحجاز اهتماماً خاصاً لوجود الحرمين الشريفين فيه، ولوفود آلاف الحجاج سنوياً لأداء مناسك الحج والعمرة، فإشرافها على الأماكن المقدسة في الحجاز يعطيها مزيداً من الهيبة والاحترام خصوصاً لسلاطينها أمام العالم الإسلامي.[٦]

كما برز في مكة والمدينة عدد من الأسر التي اشتهرت بكثرة علمائها، ونشطت في مكة ثلاث أسر قضائية هي: الأسرة الطبرية، والأسرة الظهيرية،

(١) الفاسي، العقد الثمين، جـ١، ص ص٣٠٠-٣٠٢؛ المقريزي، السلوك، جـ٣، ص٥٢٧.

(٢) الصيرفي، نزهة النفوس، جـ٣، ص ص٣٠٣-٣٠٤؛ السخاوي، محمد بن عبد الرحمن، وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، جـ١-٢ تح: بشار معروف، واحمد الخطيمي وعصام الحرستاني، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ، ط١، ١٩٩٥، جـ٢، ص ص ٦٤٢- ٦٤٣ وسيشار إليه لاحقاً: السخاوي، وجيز الكلام.

(٣) ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٤، ص٢٥٦.

(٤) ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٤، ص٢٩٧.

(٥) ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٤، ص٢٩٧؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ٣، ص١٠. (بردبك التاجي: الأشرفي برسباي الأبرص، تولى أمرة عشر من أركماس الجاموس اليشبكي ثم عين بعدها لكشف التراب بالبهنساوية فاقام مدة ثم استعفى منهما جميعاً، ثم عادة إلى امرة عشورتن وقد تولي بمكة في أيام الظاهر جقمق نظر الحرم وشاد العمارة والحسبة ثم انفصل عنها، وتوفي بالقارهة سنة ٨٨٥هـ (السخاوي، الضوء اللامع، جـ٣ ص ٦)

(٦) السخاوي، الضوء اللامع، جـ٣، ص١٨.

والأسرة النويرية، وقد انحصرت معظم الوظائف الدينية في مكة فيهم، وكانت عادة لا تخرج عنهم. ومنها وظيفة القضاء التي اعتبرها القلقشندي الوظيفة الثانية بعد ولاية مكة(١)، حيث كان سلاطين المماليك يبعثون المراسيم لتولية القضاة، نظراً لشرف منصب القضاء وعلو منزلته. (٢)

ونستخلص من نسخة توقيع بقضاء مكة مهمات القضاة وأهمية هذا المنصب، وهي: أن منصب القضاء أجل منصب في الديار الحجازية، وعلى من تولى هذا المنصب العدل، ويجب على من يتولاه أن يتصف بالعلم والمعرفة، وأن يكون مقبولاً عند الأهالي، وأن يكون رحيماً شفوقاً بالناس، تقياً، ورعاً، كريماً؛ وأن يخاف الله في أحكامه، كما عليه أن يقضي بين الناس بالحق، وأن يحارب الباطل والبدع؛ وعليه أن يتمسك بتقوى الله وبالكتاب والسنة، وأن يستقيم على الحق خوف الميل، وأن يحرم ما حرم الله ويحل ما أحل الله. (٣)

وكان القضاء بمكة يتبع المذهب الشافعي، ثم استحدثت وظيفة القاضي الحنفي في سنة ٨٠٦هـ/١٤٠٣م(٤)، ثم القاضي المالكي سنة ٨٠٧هـ/١٤٠٤م(٥)، أما القاضي الحنبلي فإنه كان آخرهم حيث كان سنة ٨٠٩هـ/١٤٠٦م(٦). وقضاة المذاهب يصدر قرار تعيينهم من السلطان، ويقرأ في المسجد الحرام أمام قضاة المذاهب الأخرى وأعيان مكة أو المدينة، ثم يلبس القاضي خلعة المنصب وهي هدية من السلطان. (٧)

ولم تشر المصادر التاريخية إلى وجود مبنى خاص يجلس فيه القاضي، ويأتي إليه المتخاصمون، بل أشارت كثير من المصادر إلى أن المحاكمات كانت تعقد غالباً في المسجد الحرام. إلا أن ناظر الحرم سودون المحمدي بني دكة عند باب البغلة –

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى جـ١٢، ص٢٤٠.
(٢) القلقشندي، صبح الأعشى ، جـ١٢، ص ص٢٣٦-٢٣٧، ٢٥٣-٢٥٤.
(٣) القلقشندي، صبح الأعشى جـ١٢، ص ص٢٣٥-٢٣٧.
(٤) ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص٤٣٧.
(٥) ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص٤٤٢.
(٦) السخاوي، الضوء اللامع، جـ٤، ص٣٣٣.
(٧) ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص٤٣٧، ٤٤٢؛ السخاوي، التبر المسبوك، ص١٨٦.

أحد أبواب المسجد الحرام – ليجلس عليها القاضي أبو اليمن النويري للقضاء فيها، في منتصف سنة ٨٤٥هـ/١٤٤١م. إلا أنها أزيلت في أواخر سنة ٨٤٦هـ/١٤٤٢م، وكان القاضي يعقد مجلسه في بعض المباني العامة كالمدارس أو في بيته. (١)

ويجلس القاضي لحل الخصومات العادية، أما إذا كان الأمر متعلقاً ببعض أحوال البلد الاقتصادية والاجتماعية، فيحضر مع القاضي الشافعي عادة القضاة الثلاثة الآخرون، ولكل قاضي مذهب مجلسه الخاص به الذي يحل فيه الخصومات التي تقع بين أتباع مذهبه أو من يرجع إليه. وفي حالة اختلاف الأشراف في توليه أحدهم فإن القاضي الشافعي بمكة يرأس الجلسة التي يحضرها الأشراف وأمراء الترك والقضاة وغيرهم من الأعيان، لتحديد الشريف الذي يتولى إمرة مكة. (٢)

وممن تولوا القضاء في مكة، القاضي محمد بن محمد الطبري الشافعي، وكان أول قضاة الأسرة الطبرية، واستمر في ولايته محمود السيرة إلى أن توفي سنة ٧٣٠هـ/١٣٢٩م.(٣) وأما أشهر قضاة الأسرة النويرية فهو القاضي كمال الدين أبو الفضل محمد النويري الذي كان يتبادل القضاء مع شهاب الدين أحمد بن ظهيرة، ودار بينهما صراع لسنوات طويلة انتهى ذلك سنة ٧٨٦هـ/١٣٨٤م بعزل ابن ظهيرة، وتولية أبي الفضل النويري(٤)، وأما أشهر قضاة الأسرة الظهيرية فهو القاضي محمد بن عبد الله بن ظهيرة سنة ٧٥١هـ/١٣٥٠م وجمع له السلطان قضاء مكة والأشراف على الحرم والأوقاف والأربطة والحسبة. (٥)

---

(١) الفاسي، العقد الثمين، جـ١، ص٣٠٣؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ٣، ص١٢٠؛ السخاوي، التبر المسبوك، ص١٦، ٤٧.

(٢) المقريزي، السلوك، جـ٣، ص١٠؛ العصامي، السمط، جـ٤، ص٣٠١.

(٣) ابن بطوطة، محمد بن عبدالله ، الرحلة ابن بطوطه المسماه تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تح: دار التراث ، بيروت ، ١٩٦٨م، ص١٤٤ وسيشار إليه لاحقاً: ابن بطوطة، الرحلة ؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٤، ص٢٦٢.

(٤) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٣٥٣؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ٩، ص١٩١.

(٥) السخاوي، الضوء اللامع، جـ٨، ص٩٢؛ ابن فهد، غاية المرام، جـ٢، ص ص٩٦-٩٨.

٣- مشيخة الحرم الشريف

والمقصود هنا هو مسجد الرسول ﷺ في المدينة المنورة ولأهمية هذه الوظيفة، ولكون من يقوم بها يكسب شرفاً كبيراً وأجراً عظيماً في الدنيا والآخرة وذلك لقيامه بواجب الخدمة في الروضة الشريفة التي تحوي قبر خاتم النبيين صلوات الله عليه، وهو محسود من قبل الآخرين للشرف الذي ناله دونهم، فهذه الوظيفة تؤهله للدخول في عداد أصحاب الكرامات عند الله ورسوله وذلك لهجرانه لأوطانه وأوطاره، لذلك عين لشيخ الحرم خادم خاص من الطواشية يقوم على خدمته وملازمته ليلاً نهاراً. (١)

ونستخلص من مرسوم شريف خاص بتقليد شيخ الحرم أهمية هذا المنصب ومهمات القائم بهذه الوظيفة، وهي: أنها أرفع الرتب الفاخرة، ويجمع صاحبها شرفي الدنيا والآخرة، وهي أوجه المناصب الدنيوية. وعلى شيخ الحرم المدني أن يقوم بخدمة الروضة الشريفة على أكمل وجه؛ وأن يقوم بآداب هذه الوظيفة كاملةً غير منقوصة متشرفاً بها. وأن يحافظ على قواعد الورع والتقوى بمنع الزائرين من القيام بالبدع المنكرة في الروضة الشريفة، كما عليه أن يلزم طوائف الخدام بالقيام بواجباتهم بأمانة وإخلاص دون كلل أو ملل للأجر العظيم الذي سينالونه عند الله. وأخيراً عليه أن يرشد الخدام الذين لا يقومون بتأدية عملهم ويتهربون منه بالأخلاق الحسنة موعظاً وموجهاً إياهم إلى الآداب الحميدة التي يجب أن يتبعوها أثناء أداء وظيفتهم. (٢) أما مشيخة الحرم المكي فلم نعثر على نص يوضح وجود هذه الوظيفة في مكة، اللهم إلا نصاً ذكره الفاسي والمقريزي، فقد أشار إلى أن الضياء محمد بن عبد الله الحموي، تولى الخطابة في الحرم المكي سنة ٧٥٩هـ/١٣٥٧م، مشاركة مع نظر الحرم ومشيخته(٣). فقد جرت العادة في عصر المماليك أن تكون بعض

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ١٢، ص٢٦٠.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ١٢، ص ص ٢٦٠-٢٦٢.

(٣) الفاسي، العقد الثمين، جـ٢، ص ص٨٦-٨٨؛ المقريزي، أحمد بن علي ، درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة ، تح : لجنة أحياء التراث العربي، الكتاب (٩٥)، من منشورات وزارة الثقافة، سوريا - دمشق ، ١٩٩٥، ق٢، ص٩٥ وسيشار إليه لاحقاً: المقريزي، درر العقود.

الوظائف مناصفة أو مثالثة أي أن يشترك في الوظيفة أكثر من شخص، وقد رأينا ذلك في القضاء والخطابة في المسجد الأقصى وغيرهما من الوظائف. (١)

والملاحظ أن وظيفة ناظر الحرم قد وجدت في بيت المقدس، وأحياناً كان يتولى نائب القدس نظر الحرم القدسي بالإضافة إلى وظيفته. وفي العادة كان يتولى هذه الوظيفة أمير برتبة كبيرة، أو عالم جليل برتبة قاضي القضاة. وكان نظر الحرمين في القدس والخليل يضاف أحياناً إلى الحرمين الشريفين في مكة والمدينة، ويكون متوليها ناظر واحد، كما حدث في سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٧م، فقد عين القاضي شرف الدين عبد الرحمن بن الصاحب نظر الحرمين الشريفين في مكة والمدينة وحرمي القدس والخليل.(٢)

٤- الخطابة

تعتبر الخطابة من أجل الوظائف الدينية، إذ كان النبي ﷺ يفعلها بنفسه ثم فعلها الخلفاء الراشدون من بعده. وكان التعيين في خطابة الحرمين يتم عادة من قبل الناظر أو من السلطان نفسه في القاهرة(٣)، أما في الحجاز فقد كانت الخطابة في الحرمين المكي والمدني تضاف إلى القاضي أو أحد أئمة المذاهب الأربعة، ولم نعثر على نسخ تقليد لوظيفة الخطابة في الحجاز. في المصادر التاريخية، وممن تولى الخطابة في المسجد الحرام أبو الربيع سليمان ابن خليل بن إبراهيم العسقلاني، بالإضافة لإمامة مقام إبراهيم سنة ٧٦١هـ/١٣٥٩م، فتولى بعد وفاته الإمامة والخطابة الجمال محمد بن يوسف بن مسد. (٤)

---

(١) غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس، ص٣٨.

(٢) الحنبلي، مجير الدين أبو اليمن القاضي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، مكتبة المحتسب، عمان، ١٩٧٣م، جـ٢، ص٢٧١ وسيشار إليه لاحقاً: الحنبلي، الأنس الجليل؛ غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس، ص٣٦.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٤، ص٣٩؛ غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس، ص٤٠.

(٤) ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص٨٨.

وقد أورد المؤرخون أسماء لخطباء بالمسجد الحرام، ومن أشهر هؤلاء الخطباء، خطيب مكة ابن الأعمى، خطب في أول يوم من أيام التشريق في موسم سنة ٦٦٩هـ/١٢٧٠م. (١)

ثم تولى الخطابة وإمامة المقام بعده أبو الحسن علي بن صالح الحسيني، المتوفى سنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م. (٢) وممن تولاها أيضاً الخطيب تقي الدين عبد الله من المحب الطبري المتوفى سنة ٧٠٧هـ/١٣٠٧م، وولى الخطابة بعده ولده البهاء محمد، وبقي متوليها حتى وفاته سنة ٧٣٢هـ/١٣٣١م. (٣)

ثم خلفه في الخطابة أخوه التاج علي، وخطب في الرابع عشر ربيع الآخرة من السنة نفسها وظل كذلك إلى أن مات في سنة ٧٥٦هـ/١٣٥٥م، فولى بعده الخطيب القاضي شهاب الدين الطبري في شهر رمضان منها. (٤) .

ثم تولاها الضياء محمد بن عبد الله الحموي، وليها مع المشاركة في نظر الحرم ومشخيته، وقد ولاه السلطان وبرز في المسجد بشعار الخطبة أيام موسم سنة ٧٥٩هـ/١٣٥٧م؛ وولى بعده القاضي تقي الدين محمد الحرازي، وباشر ذلك من استقبال رمضان في سنة ٧٦١هـ/١٣٥٩م. (٥)

وفي أوائل القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، تولى الخطابة أبو الفضل محمد بن القاضي محب الدين النويري المتوفي سنى ٨٢٧هـ/١٤٢٣م، فولى عوضه ولده أبو القاسم، واستنيب عنه إلى حين صلاحه أبو اليمن محمد بن محمد

---

(١) ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص١٠٠.

(٢) الفاسي، العقد الثمين، جـ٦، ص١٧٦؛ ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص١١٥.

(٣) الفاسي، العقد الثمين، جـ٥، ص٩٩.

(٤) الفاسي، العقد الثمين، جـ٢، ص٤٦؛ وجـ٦، ص١٧٧؛ ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص٢٠١، ٢٦٨.

(٥) الفاسي، العقد الثمين، جـ٢، ص ص٨٦-٨٨؛ المقريزيي، درر العقود، ق٢، ص٩٥ ؛ ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص٦٨٥؛ ابن فهد، غاية المرام، جـ٢، ص ص١٨٢-١٨٣؛ عبد الغني، تاريخ أمراء مكة المكرمة، ص٥٧١.

النويري[١]، وتولى بعده خطباء كثيرون ورد ذكرهم عند المؤرخين إلى نهاية دولة المماليك. [٢]

أما الخطابة بالمدينة المنورة فإن الخطابة بها كانت بأيدي الشيعة الذين كانوا يخطبون للفاطميين في مصر، فلما تغلب العباسيون عليها أقيمت الخطبة لهم. [٣] وكان الخطيب السراج عمر بن أحمد بن الخضري الأنصاري، أول من خطب بها لأهل السنة، بعد أن كانت الخطبة والقضاء بيد الشيعة آل سنان، وكان لأهل السنة إمام يصلي بهم الصلوات فقط. [٤]

ثم أخذ السلطان المملوكي يرسل في كل سنة مع الحاج خطيباً يقيم لأهل السنة الخطابة والإمامة فيقيم نصف سنة، ثم يأتي في رجب إلى ينبع، ثم يليها غيره، وكان الخطباء لا يقدرون على الإقامة إلا بكلفة ومشقة لتسلط الإمامية مع الأشراف عليهم، ولم تذكر المصادر التاريخية أسماء هؤلاء الخطباء في هذه الفترة. [٥]

وقد قاسى الخطيب السراج من أذى الإمامية له ما لا يصبر عليه غيره، وهو صابر محتسب إلى الله فقد كانوا يلطخون بابه بالقاذورات ويرجمونه بالحصى وهو على المنبر، فلما كثر منهم ذلك تقدم الخدام وجلسوا بين يديه صفاً، وخلفهم علماء المدينة وعبيدها خدمة وحماية للشريعة، وكان السراج يعذرهم بخروج المنصب عنهم بعد توارثهم له، إلي أن صاهر رئيس الإمامية وفقيهها، فانكف عنه الأذى قليلاً، وصار يخطب ويصلي من غير حكم ولا أمر ولا نهي، فأقام السراج في منصب القضاء والخطابة بالمدينة نحو أربعين سنة، فخرج للتداوي في مصر، فمات في الطريق سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٥م. [٦]

---

(١) الفاسي، العقد الثمين، جـ١، ص٣٧٦؛ ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص٤٦١٠ السخاوي، الضوء اللامع، جـ٧، ص٤٥، جـ٩، ص١٤٤.

(٢) ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص ص٤٥٨، ٥٠٩، ٥٤٩، ٥٨٢-٥٨٣، ٦٣٥، ٦٣٨-٦٣٩.

(٣) السخاوي، التحفة اللطيفة، جـ١، ص٢٨.

(٤) السخاوي، التحفة اللطيفة، جـ١، ص٢٨.

(٥) ابن بطوطة، الرحلة، ص١١٥؛ السخاوي، التحفة اللطيفة، جـ١، ص ص٢٨-٢٩.

(٦) ابن بطوطة، الرحلة، ص١١٥؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٣، ص ص٢٢٤-٢٢٥؛ السخاوي، التحفة اللطيفة، جـ١، ص ص٢٨-٢٩؛ بدر، التاريخ الشامل، جـ٢، ص٢٤٤.

فاستقر بعده في الخطابة والإمامة البهاء بن سلامة المصري، فأقام فيها سنتين ثم استعفى لكونه لم ير نفسه أهلاً لما شرطه الواقف مع معرفة الفرائض والقراءات.(١)

ويورد السخاوي أسماء كافة خطباء المدينة المنورة في العصر المملوكي حتى نهايته.(٢)

٥- التداريس

يتولى هذه المهمة أساتذة وشيوخ مشهود لهم بالعلم والفضل والورع والتقوى(٣)، ويكون التعيين عادة فيها من قبل نائب السلطنة، وكانت تعقد في الحرمين المكي والمدني حلقات للتدريس، يقوم بالتدريس فيها علماء وفقهاء ومحدثون من مختلف الأقطار الإسلامية مشهود لهم بغزارة علمهم وانتشرت كتبهم في كافة أرجاء المعمورة، وكان بعض هؤلاء العلماء والفقهاء يؤمون الحرمين في موسم الحج، ويجاورون هناك فترة من الوقت، قد تستغرق سنة أو أكثر قبل أن يعودوا إلى بلادهم(٤)، وهناك من تولى وظيفة المحدث بالحجاز.(٥)

٦- المؤذنون

كان في الحرمين مؤذنون كثيرون بلغوا عدة عشرات في المدينة ومكة، حيث يصعد المنارة الواحدة في اليوم خمس مؤذنين أي في كل وقت صلاة يتم الأذان من قبل أحد المؤذنين مما يدل فعلاً على كثرة المؤذنين فيها. والمؤذنون يقومون بوظيفة

---

(١) ابن بطوطة، الرحلة، ص١١٥؛ السخاوي، التحفة اللطيفة، جـ١، ص٢٩.

(٢) السخاوي، التحفة اللطيفة، جـ١، ص ص٢٩-٣١؛ بدر، التاريخ الشامل، جـ٢، ص ص٢٦٣، ٢٧٧.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٤، ص٣٩؛ غوانمة، نيابة بيت المقدس، ص٤٢.

(٤) لمزيد من المعلومات انظر: الفصل السادس: نشاط الحركة العلمية في بلاد الحجاز في عصر الرسوليين والمماليك

(٥) الذين تولوا الحديث بالحجاز كثر تناولنا الحديث عنهم بالتفصيل في الفصل السادس: ازدهار العلوم اللغوية والدينية .

مقدسة أينما كانوا وهي رفع الأذان في وقته، مما يجمع المسلمين لأداء الصلاة التي هي فرض على كل مسلم. (١)

ومن الذين تولوا وظيفة المؤذن في المسجد الحرام؛ المؤذن الشيخ تاج الدين علي بن محمد بن عبد السلام الكازروني الذي توفي سنة ٦٩٥هـ/١٢٩٥م على أثر الصاعقة القوية التي وقعت على المئذنة التي كان يؤذن بها عند باب علي(٢)، والمؤذن أحمد بن سالم بن ياقوت المتوفي سنة ٧٩٩هـ/١٣٩٦م(٣)، والمؤذن عبد اللطيف بن أحمد بن عبد الله الشهير بالدب(٤)، وأحمد بن محمد بن أسحاق المؤذن(٥)، والمؤذن أبو المعالي أحمد بن علي بن محمد الكازروني. (٦)

كما وجدت في الحجاز وظيفة رئيس المؤذنين، وكان من مهامه تعيين المؤذنين وصرف الرواتب لهم من الأوقاف التي أوقفت لهذه الغاية، والأشراف على المؤذنين والتأكد من وجود كل مؤذن في منارته ليلاً نهاراً وقت إحانة رفع الأذان.(٧)

وممن تولوا وظيفة رئاسة المؤذنين: المؤذن البهاء عبد الله بن علي بن عبد الله الكازروني(٨)، وولي بعده الجمال محمد بن حسين بن عبد المؤمن(٩)، وكان رئيس المؤذنين بالحرم المكي الشريف إبان زيارة ابن بطوطة له الإمام المحدث

---

(١) ابن بطوطة، الرحلة جـ١، ص٧٤؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٣، ص٤٠٣؛ السخاوي، التحفة اللطيفة، جـ١، ص ص٣٩-٤٠؛ ابن العماد، شذرات الذهب، جـ٧، ص٧٢.

(٢) الفاسي، العقد الثمين، جـ٦، ص٢٣٣؛ المقريزي، السلوك، جـ١، ص٨١٥؛ ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص١٢٨.

(٣) ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص٤٠٢.

(٤) ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص٣١٤.

(٥) ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص٣١٤؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ٤، ص٣٢١.

(٦) ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص٤٩٩.

(٧) الفاسي، العقد الثمين، جـ٥، ص٢١٢؛ ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص٢٥٩؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ٥، ص٣٤.

(٨) الفاسي، العقد الثمين، جـ٥، ص٢١٢؛ ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص٢٥٩.

(٩) الفاسي، العقد الثمين، جـ٥، ص٢١٢؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ٥، ص٣٤.

الفاضل جمال الدين بن عفيف الدين عبد الله المطري، وكان والده من مجاوري الحرم. [1]

٧- خدام الحرمين الشريفين

كان السلطان هو الذي يعين الخدام بالحرمين لشرف هذه الوظيفة، حيث يقول السخاوي: "أن الناصر صلاح الدين هو الذي ثبت قاعدة الخدام في الحرم النبوي والمكي، وأوقف عليها الأوقاف"[2]. ثم تبعه في الوقف عليهم السلطان الصالح بن الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٤٤هـ/١٣٤٣م. [3]

وكان للخدام رئيس يسمى شيخ الخدام، وكانت من مهماته: الإشراف على الخدام ومراقبتهم والتأكد من قيامهم بواجبهم بأمانة، وأن يقبض ما تحصل من أوقاف الخدام وينفقه بالحرم وصرف رواتب الخدام منه. [4]

ويذكر المؤرخون أن خدام الحرم المكي كانوا يزيدون على المائة، وكان كثير منهم متطوعون لخدمة البيت الحرام، أما خدام المسجد النبوي فكانوا حوالي الستين خادماً، يقوم أكثرهم بخدمة الحجرة النبوية، وطوائف الخدام هي: الكناسون، والفراشون، والسقاؤون، والبوابون، ومنظفوا القناديل، والصائغون، والخياطون، وكان من شروط هذه الوظيفة أن يحفظ الخدام القرآن الكريم، وأن يكونوا أحباشاً أو روماً أو تكاررة أو هنوداً. [5]

وكان البوابون من زمرة خدام الحرمين، وكانت وظيفة لها أهميتها الدينية والمادية، ويتبين ذلك من المرسوم الذي أصدره السلطان الأشرف برسباي سنة ٨٣٠هـ/١٤٢٦م، وأهم وظائف البوابين هي: ملازمة باب الحرم والنوم عليه ليلاً نهاراً، وألا يغيب عنه إلا للضرورة، وأن يتعهد البواب بابه بالكنس والرش

---

(١) ابن بطوطة، الرحلة، ص ص١٤٦-١٤٧.

(٢) السخاوي، التحفة اللطيفة، جـ١، ص٣٥.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ١٢، ص ص٢٥٥-٢٥٦؛ السخاوي، التحفة اللطيفة، جـ١، ص٤٩.

(٤) السخاوي، الضوء اللامع، جـ٤، ص٣٤٥.

(٥) ابن بطوطة، الرحلة، جـ١، ص٧١؛ رفعت،إبراهيم ، مرآة الحرمين، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٥م، جـ١، ص٤٥٩ وسيشار إليه لاحقاً: رفعت، مرآة الحرمين.

والتنظيف، ومنع الكلاب والجواري الحاملات الماء، والحمّال من الدخول إلى المسجد الحرام واستطراقه والمرور منه لغير حاجة، وقرر السلطان تحديد راتب لكل بواب عشرة دنانير أشرفية تصله كل عام من أوقاف الحرمين. (١)

والفراشون في الحرمين نحو أربعين فرداً، وشيخهم الشهاب الحبشي، خلف فيها محمد بن عمير، ولهم في مصر أوقاف تحمل نفقاتهم منها في كل عام. ومن وظائف الفراشين كما ذكرها السخاوي: فرش الروضة النبوية في الصيف والشتاء وزيادته أيام الجمع لكي تستوعب المصلين، ونصب الستائر على الأبواب الأربعة للحجرة النبوية، والمحرابين النبوي والعثماني والمنبر وأبواب المسجد في المناسبات الرسمية كقدوم أمير المدينة، وفرش بساط شيخ الخدام، وإضاءة الشمع كل ليلة، وتنظيف المسجد كل جمعة، وتحضير القناديل للإضاءة بعد المغرب وإطفائها صباحاً ، وإخراج الزيت من المخزن الخاص به، وفتح أبواب المسجد وقت آذان الظهر ، واعتناء أعيان الأتراك والمباشرون والخدام بالعمل مع الفراشين والخدام للتبرك. (٢)

٨- الحسبة

الحسبة في الإسلام ولاية، وهي واسطة بين أحكام القضاء وأحكام المظالم، والحسبة تمثل أكبر المصالح وأهمها وأجمعها لنفع الناس، وأعمها وأدعاها إلى تحقيق أموالهم، وانتظام أحوالهم، وحسم مواد الفساد، وهي النظام الذي يتعلق به ثبات الدين وينعطف عليه صلاح المسلمين، فإن فيه تثقيف الزائغين عن الحق، وتأديب المنهمكين في الفسق، وتقوية أرباب الشرع وسواعدها وإجراء أعمال الدين على قوانينها وقواعدها. (٣)

---

(١) المقريزي، السلوك، جـ٤، ص ص٧٥-٧٦؛ ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص ص٦٤٥-٦٤٦؛ الجزيري، الدرر الفرائد، جـ١، ص ص٧١٥-٧١٦؛ السباعي، تأريخ مكة، ص ص٣٠١-٣٠٢.

(٢) السخاوي، التحفة اللطيفة، جـ١، ص ص٣٣-٣٤.

(٣) ابن الأخوة، محمد بن محمد القرشي، معالم القربة في أحكام الحسبة، عني بنقله وتصحيحه: روبن ليوي، مطبعة دار الفنون، كمبرج، ١٩٣٧م، ص٧ وسيشار إليه لاحقاً: ابن الأخوة، معالم القربة؛ الشيزري، عبد الرحمن بن نصر، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق ومراجعة: السيد الباز العريني، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة، ١٩٤٦م، ص ص٧-١١، وسيشار إليه لاحقاً: الشيزري، نهاية الرتبة.

ويُراد بالحسبة لغة: العدد ويقال حسبه أي عدده، واحتسب بكذا، إذا اكتفى به واحتسب على فلان الأمر إذا أنكره عليه، واحتسب الأمر على الله بمعنى ادخره لديه، والحسبة تطلق بمعنى الاسم وهي الاحتساب. (١)

والحسبة اصطلاحاً هي أمر المعروف إذا ظهر تركه ونهي عن المنكر إذا ظهر فعله، وإصلاح بين الناس، وقد كان الرسول ﷺ والخلفاء الراشدون يمارسونها بأنفسهم وهي واجب ديني. (٢)

ويشترط فيمن يعين للقيام بوظيفة الحسبة أن يكون مسلماً، وأن يكون حراً بالغاً عادلاً، عارفاً بأحكام الشرع، كما يتطلب منه أن يتصف بالعفة عن أموال الناس وبالورع عن قبول الهدايا، وأن يقصد بقوله وفعله وجه الله تعالى وطلب مرضاته، وأن يعمل بما يعلم ولا يكون قوله مخالفاً لفعله، وأن يتصف بالرفق ولين القول وطلاقة الوجه وسهولة الأخلاق عند أمره للناس ونهيه فإن ذلك أبلغ في استمالة القلوب، وحصول المقصود، وأن يكون مواظباً على سنن الرسول ﷺ.(٣)

وقد أجمل ابن الأخوة وظائف المحتسب بقوله: "والمحتسب من نصبه الإمام أو نائبه للنظر في أحوال الرعية والكشف عن أمورهم ومصالحهم وبياعاتهم ومأكولهم ومشروبهم وملبوسهم ومساكنهم وطرقاتهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر"(٤). نلاحظ من النص السابق أن صلاحيات المحتسب شملت جميع جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية والصحية.

وقد وردت إشارات في المصادر التاريخية تؤكد وجود هذه الوظيفة في الحجاز في عصر سلاطين المماليك، وقد وليت الحسبة بالانفراد أو بالمشاركة، وممن تولاها منفرداً بها المحتسب تقي الدين المصري حيث كان محتسباً لمكة إبان وصول ابن بطوطة إليها سنة ٧٢٥هـ/١٣٢٤م، حيث يقول: "كان تقي الدين محتسباً

---

(١) الظاهر، خالد خليل وآخرون، نظام الحسبة، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، ١٩٧٩م، ص٦٧ وسيشار إليه لاحقاً: الظاهر، نظام الحسبة.

(٢) ابن الأخوة، معالم القربة، ص٧.

(٣) ابن الأخوة، معالم القربة، ص ص٧-٨؛ ١٢-١٤؛ الشيزري، نهاية الرتبة، ص ص٧-١١.

(٤) ابن الأخوة، معالم القربة، ص٧.

بمكة، ...، فاتفقت في بعض السنين أن أتى أمير الحاج بصبي ... قد سرق بعض الحجاج، فأمر بقطع يده".[1]

وممن تولاها بالمشاركة مع وظائفه الأخرى القاضي عز الدين النويري حيث كان محتسباً بالإضافة لكونه قاضياً وخطيباً وناظراً للحرم، وذكر ابن فهد أن تقليده بتلك الوظائف وصل في آخر شعبان من سنة ٨٢٠هـ/١٤١٧م.[2]

٩- ناظر الأوقاف

الوقف لغة الحبس، ويقصد به تلك الأراضي والمنشآت التي يخصصها المسلمون لأغراض دينية أو للمجاهدين والفقراء، أو لليتامى وفك العبيد، وأما لبناء المساجد والحصون والمدارس والبيمارستانات والزوايا والأربطة والخانات أو لغيرها من المنافع العامة.[3]

أما شد الأوقاف (ناظر الأوقاف): فموضوعها التحدث على أوقاف المسلمين بدمشق والحجاز وكافة الممالك الإسلامية في دولة المماليك، وعادتها أمرة عشرة، وقد تكون طبلخاناة، ويكتب لمتوليها توقيع كريم عن النائب، وهي رتبة جليلة في الحجاز أعلى من شد الأوقاف بدمشق، وتوليتها من الأبواب الشريفة بتوقيع شريف، ومتوليها يتحدث على سائر أوقاف المملكة الحجازية.[4]

ومن مهماته ووظائفه: الإشراف على شؤون الأوقاف، ورصدها للجهات التي خصصت لها، ومتابعة شؤون الوقف وسلامته، والإشراف على الموظفين القائمين على الوقف، والتأكد من قيامهم بواجبهم على أكمل وجه.[5]

---

(١) ابن بطوطة، الرحلة، ص ص١٤٦-١٤٧.

(٢) ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص٤٢٣، ٤٥٨، ٥٠٩، ٥٢٠، ٥٣٧، ٥٥٢؛ الفاسي، العقد الثمين، جـ١، ص٣٧٤.

(٣) ابن منظور، لسان العرب، مجـ٩، ص ٣٥٩؛غوانمة، نيابة بيت المقدس، ص١٠٧.

(٤) البقلي، التعريف، ص١٩٣.

(٥) الفاسي، العقد الثمين، جـ٢، ص٥٣؛ جـ٣، ص ص١٤٠-١٤١؛ ابن حجر، أنباء الغمر، جـ٣، ص٤٥؛ ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص ص٤٤٨، ٤٨٦-٤٨٧، ٥٢٢-٥٢٣.

وممن تولوا نظر الأوقاف في الحجاز: القاضي محمد بن عبد الله بن ظهيرة سنة ٧٥١هـ/١٣٥٠م، حيث جمع له السلطان بالإضافة إلى وظائفه نظر الأوقاف. (١) وخلفه في مناصبه ومن ضمنها نظر الأوقاف القاضي جمال الدين بن ظهيرة الذي بقي فيها حتى وفاته سنة ٨١٧هـ/١٤١٤م. (٢)

وهناك العديد من الوقوف التي حبست لمصالح المؤسسات الدينية والاجتماعية والثقافية في الحجاز، ومن ذلك قرى بمصر تحمل غلالها إلى المجاورين وطلاب العلم، وقفها السلطان الأشرف قايتباي على شؤون مدرسته في مكة. (٣) وأجزاء من قرية سندبيس، وقريتي نقادة وقبالة بصعيد مصر، وقفها السلطان الصالح بن الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٤٤هـ/١٣٤٣م لتصرف في شؤون الخدام بالحرمين الشريفين في الحجاز. (٤) .

١٠- ناظر الأربطة

نظر الأربطة: هي من الوظائف الدينية، والأربطة أماكن يسكنها المتعبدون، وطلاب العلم والمنقطعون من أبناء السبيل، يلجأون إليها للسكن وللحصول على قوتهم اليومي في حالة عدم قدرتهمَ من الإنفاق على أنفسهم. (٥)

أما مهمات ووظائف ناظر الأربطة فهي: الإشراف على الساكنين بالرباط وتفقدهم ليلاً نهاراً والحرص على سلامتهم، والإشراف على العاملين بالرباط والتأكد من قيامهم بوظيفتهم، وعمارة ما يحتاج إلى إصلاح وترميم من الرباط، واستلام مخصصات الرباط من الأوقاف وصرفها في شؤونه. (٦)

---

(١) ابن فهد، غاية المرام، جـ٢، ص ص٩٦-٩٨؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ٨، ص٩٢.

(٢) الفاسي، العقد الثمين، جـ٢، ص٥٣، جـ٣، ص ص١٤٠-١٤١؛ ابن حجر، أنباء الغمر، جـ٣، ص٤٥؛ ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص ص٤٤٨، ٤٨٦-٤٨٧، ٥٢٢-٥٢٣؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ٨، ص٩٢.

(٣) السخاوي، التحفة اللطيفة، جـ١، ص٣٦، ٥١.

(٤) السخاوي، الضوء اللامع، جـ٤، ص٣٤٥.

(٥) البقلي، التعريف، ص٣٤٩.

(٦) السخاوي، الضوء اللامع، جـ٨، ص٩٢؛ ابن فهد، غاية المرام، جـ٢، ص ص٩٦-٩٨.

ومن تولوا وظيفة ناظر الأربطة في الحجاز في عصر دولة المماليك: القاضي محمد ابن عبد الله بن ظهيرة بالإضافة إلى الإشراف على الحرم والأوقاف والحسبة سنة ٧٥١هـ/١٣٥٠م، والحافظ القاضي جمال الدين بن ظهيرة ابن أخي القاضي شهاب الدين بن ظهيرة[١]. وممن تولاها أيضاً: بردبك التاجي حيث قرئ مرسوم السلطان الأشرف برسباي بتعيينه بوظيفة ناظر الأربطة والحسبة ونظر الحرم ونظر الصدقات وشاد العمائر.[٢]

١١- ناظر الصدقات

الصدقات: هي الأموال والهبات التي يتبرع بها السلاطين والخلفاء والأمراء والمحسنون من عامة الناس ، تصرف في شؤون المسلمين، ولبناء المساجد وعيون الماء والطرقات، أو أي شيء يتم به منفعة المسلمين.[٣]

ومن مهمات ناظر الصدقات ووظائفه: الإشراف على الصدقات والتأكد من إنفاقها في سبيل الخير الذي خصصت له، والتأكد من أمانة القائمين على توزيعها.[٤]

ومن تولوا وظيفة نظر الصدقات: القاضي محمد بن عبد الله بن ظهيرة حيث أصدر السلطان مرسوماً بتعيينه بنظرها سنة ٧٥١هـ/١٣٥٠م، والقاضي جمال الدين بن ظهيرة، حيث عين ناظراً للصدقات حتى وفاته سنة ٨١٧هـ/١٤١٤م.[٥]

ومن تولاها أيضاً: بردبك التاجي شاد العمائر في الحرمين، حيث قرئ توقيعه بالمسجد الحرام أمام شريف مكة وأعيانها وعلمائها.[٦]

---

(١) الفاسي، العقد الثمين، جـ٢، ص٥٣، جـ٣، ص ص ١٤٠-١٤١؛ ابن حجر، أنباء الغمر، جـ٣، ص٤٥؛ ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص ص٤٤٨، ٤٨٦-٤٨٧، ٥٢٢-٥٢٣؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ٨، ص٩٢.

(٢) ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٤، ص٢٩٧؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ٤، ص١٠.

(٣) البقلي، التعريف، ص٣٥٠.

(٤) السخاوي، الضوء اللامع، جـ٨، ص٩٢؛ ابن فهد، غاية المرام، جـ٢، ص ص٩٦-٩٨.

(٥) الفاسي، العقد الثمين، جـ٢، ص٥٣، ص ص١٤٠-١٤١؛ ابن حجر، أنباء الغمر، جـ٣، ص٤٥؛ ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص ص٤٤٨، ٤٨٦-٤٨٧، ٥٢٢-٥٢٣؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ٨، ص٩٢.

(٦) ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٤، ص٢٩٧؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ٤، ص١٠.

وقد خص سلاطين المماليك والرسوليون الحجاز بصدقاتهم، وخاصة في أوقات حدوث الأزمات الاقتصادية في الحجاز في مواسم الحج، وفي أوقات الجفاف والمجاعات التي كانت تحدث في الحجاز. (1)

١٢- شيخ السدنة

السدنة: هم خدام الكعبة من آل الشيبي، ومعهم مفاتيح الكعبة، يتولون عادة الاهتمام بالكعبة المشرفة من حيث العناية والرعاية والمحافظة عليها، يفتحونها في المناسبات عند غسيل الكعبة، ومن ذلك ما قام به القاضي وناظر الحرم الضياء الحموي من غسل الكعبة مع خدامها من آل الشيبيبي سنة ٧٥٩هـ/١٣٥٧م والسدنة هم الذين يشرفون على كسوة الكعبة وتغييرها، ولهم حق التصرف بالثوب القديم، وعادة يهدون قطعا منه إلى رؤساء وكبار المسلمين للتبرك به. (2)

وممن تولوا مشيخة السدنة: قاضي مكة الشافعي جمال الدين محمد بن علي الشيبي، وذلك بتولية من السلطان الأشرف برسباي، وظل فيها حتى وفاته سنة ٨٣٧هـ/١٤٣٣م.(3)

---

(١) لمزيد من المعلومات، انظر: الفصل الخامس: الأزمات الاقتصادية بالحرمين.

(٢) الفاسي، العقد الثمين، جـ٢، ص ص٨٦-٨٨.

(٣) ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص٦٠٩، ٦٣٨؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ٧، ص٨٤.

جـ – الوظائف العسكرية (الجيش في الحجاز)

لم يرد ذكر في المصادر التاريخية المتحدثة عن الحجاز عن وجود جيش نظامي فيه، وإنما كان هناك عسكر يخص أمراء مكة والمدينة، مكون من الأشراف أنفسهم ومن عبيدهم ومن مواليهم، ومن أهل البادية عندما يطلب منهم الأشراف مشاركتهم في قتال أعدائهم.(١)

وإنما وردت إشارات من مصادر تاريخية إلى وجود فرق عسكرية، كانت ترسل من مصر إلى الحجاز لتهدئة الأوضاع الأمنية فيه عند نشوب نزاع بين الأمراء في مكة والمدينة، أو بين الأمراء وأمير الحج المصري أو الشامي لقتال الخارجين على الطاعة أو عند تعيين أمير جديد لمكة أو المدينة مدعوماً من سلطان المماليك بمصر، ومن ذلك تجريد السلطان عسكراً مع الأمير رميثة لتمكينه من الإمارة سنة ٧١٥هـ/١٣١٥م.(٢) كما عين السلطان الظاهر جقمق لسودون المحمدي أميراً للجند إضافة لتولية نظر الحرم وشد العمائر، وكان ذلك سنة ٨٤٢هـ/١٤٣٨م.(٣)

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ١٢، ص ص٢٤٨-٢٥٧.

(٢) ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص ص٤٠٦، ٤١٧، ٦٨٠.

(٣) المقريزي، السلوك، جـ٤، ص١١١١.

الفصل الخامس

الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الحجاز

أولاً:- الحياة الاقتصادية:-

أ- التجارة في بلاد الحجاز:-

١- الطرق التجارية.

٢- المواسم التجارية.

٣-المكوس.

٤-موارد الدخل.

٥- المعاملات المالية.

٦-الأزمات الاقتصادية.

ب- الزراعة في بلاد الحجاز.

ثانياً:- الحياة الاجتماعية:-

١- فئات المجتمع الحجازي.

٢- العادات والتقاليد.

٣-الملابس والأطعمة والأشربة.

أولاً: الحياة الاقتصادية:-

أ- التجارة في بلاد الحجاز.

لعب موقع الحجاز دوراً كبيراً في تنشيط الحركة التجارية في منطقة شبه الجزيرة العربية، لامتداده مسافة طويلة على ساحل البحر الأحمر، ولاتصاله ببلاد الشام واليمن ومصر، فقد أنطلقت من مكة منذ العصور القديمة رحلتا الشتاء والصيف إلى بلاد الشام واليمن حيث حملت كافة البضائع المختلفة. (١)

كما شجع سلاطين المماليك التجار غير المسلمين للقدوم إلى بلادهم والاتجار فيها، من ذلك مرسوم الأمان الذي أصدره السلطان قلاوون الألفي سنة ٦٨٧هـ/١٢٨٨م، حيث دعا فيه التجار غير المسلمين للقدوم إلى بلدان مملكته آمنين مطمئنين على أموالهم وأعراضهم وأنفسهم وبضائعهم متمتعين بكافة الحقوق والامتيازات، ومن ضمنها الحجاز الأمر الذي شجع التجار للقدوم إلى موانئ الحجاز والرسو فيها، وجلب بضائعهم لبيعها في موسم الحج، هذا الإجراء أنعش الاقتصاد الحجازي، كما استفادت منه دولة المماليك نفسها حيث حصلت مبالغ طائلة من مكوس التجارة الواردة إليها. (٢)ويمكننا معالجة الحياة الاقتصادية في الحجاز من خلال:-

١- الطرق التجارية

منذ أن بدأت غزوات المغول لغرب آسيا في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، وتعطل الطريق التجاري البري عبر وسط آسيا، أصبح طريق البحر الأحمر من أكثر الطرق التجارية أهمية بين الشرق والغرب، وكان من نتيجة ذلك أن اضطر التجار للمرور مسافات طويلة براً وبحراً في نطاق سيطرة دولة

---

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ، جـ٧، ص١٤٠؛ السباعي، تأريخ مكة، جـ١، ص١٩٠.

(٢) ابن الفرات،تاريخه،مج٨،ص ص٦٥-٦٧؛ابن عبد الظاهر؛ محي الدين، تشريف الايام والعصور، تح: مراد كامل، راجعه:محمد نجار، الجمهورية العربية المتحدة،وزارة الثقافةوالارشاد القومي، الادارة العامة للثقافة، الشركة العربية للطباعةوالنشر، القاهرة،ط١،١٩٦١،ص ص ٢٣٦-٢٣٧ وسيشار اليه لاحقا: ابن عبد الظاهر،تشريف الايام والعصور ؛ القلقشندي، صبح الأعشى، جـ١٣، ص ص٣٣٨-٣٤١؛ غوانمة، أيلة (العقبة)، ص٧٣.

المماليك، ولم يكن التجار هم وحدهم الذين استخدموا تلك الطرق، بـــل اســـتخدمها حجاج العالم الإسلامي من أقاصي آسيا والمغرب والتكرور والسودان والشام. (١)

وكان السالكون للطريق البحري إلى الحجاز إما أن يستخدموا طريق القاهرة - القلزم- الطور ثم يبحرون عبر البحر الأحمر إلى ينبع أو جدة، أو أنـــهم يســلكون طريق بولاق-القاهرة ثم يبحرون بالنيل إلى قوص ثم عيذاب على ســـاحل البحـــر الأحمر ثم يجتازون البحر الأحمر إلى جدة. (٢)

واهتم الظاهر بيبرس بالشعبة الأولى من الطريق، حيث جدد قلعـــة الســويس سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م، وعمل على تقوية الحاميات لحمايـــة طــرق التجــارة مـــن هجمات الأعراب. (٣)

وأما الشعبة الثانية من الطريق والتي تمر بقوص وعيذاب، فقد ازدهرت فـــي عصر السلطان صلاح الدين الأيوبي، واستيلاء الصليبيين على أيلة (العقبة) وجنــوب شرق الأردن الحالي، بالإضافة إلى وجود أسطول لهم في البحر الأحمر، مما شــكل عائقاً وخطراً على التجارة في شمال البحر الأحمر، كما أن القوافل التجارية البريـــة لم تكن بمأمن بسبب اعتراض الصليبيين لها من قبل بارونية الكرك، ولكن بعـــد أن زال الخطر الصليبي بتحرير أيلة (العقبة) سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م، وتحرير الكـــرك

---

(١) الجزيري، الدرر الفرائد، جـ٢، ص١١٧١؛ عاشور، العصر المماليكي، ص ص٢٨٥-٢٨٧، وغوانمـــة، أيلة (العقبة)، ص ص٧٢-٧٥.

(٢) الجزيري الدرر الفرائد، جـ٢، ص ص١١٧١-١١٩٨؛ فهمي، نعيـــم زكـــي، طـــرق التجـــارة الدوليـــة ومحطاتها بين الشرق والغرب في أواخر العصور الوسطى، الهيئة المصريـــة العامـــة للكتـــاب، القـــاهرة، ١٩٧٣، ص١٠٩ وسيشار إليه لاحقاً: زكي، طرق التجارة (قوص: هي مدينة كبيرة عظيمة واسعة قصبـــة صعيد مصر، وأهلها أرباب ثروة واسعة، وهي محط التجار القادمين من عدن وهي شديدة الحر لقربها مـــن البلاد الجنوبية (الحموي، معجم البلدان، مجـ٤، ص٤١٣)، (عيذاب: بليدة على ضفة بحـــر القلـــزم وهـــي مرسى المراكب التي تقدم من عدن إلى الصعيد (الحموي، معجم البلدان، مجـ٤، ص١٧١)، ووصف ابـــن جبير الطريق إلى عيذاب بقوله: "والقصد إلى عيذاب من قوص على طريقين: أحدهمـــا يعـــرف بطريـــق العبدين، وهي هذه التي سلكناها، وهي أقصر مسافة، والآخر طريق دون قنا، وهي قرية على شاطئ النيـل، ومجتمع هاتين الطريقين على مقربة من ماء دونقاش المذكور" (ابن جبير، الرحله، ص٣٩).

(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ٧، ص١٩٢.

سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م أصبح الطريق ميسراً للقوافل البرية والسفن البحرية على حد سواء. (١)

أما الطريق البري، فإنه يبدا بعد تجمع التجار والحجاج بالقاهرة ثم السويس، فأيلة (العقبة)، ثم السير براً إلى المدينة المنورة فمكة المكرمة، وازدهر هذا الطريق أيام دولة المماليك حتى كاد يكون الطريق الوحيدة في مجال الانتقال بين مصر والحجاز، بسبب الإصلاحات الكثيرة التي أدخلت عليه، كمنازل المياه، ومحطات المؤن، والأسواق، والخانات. وعملوا على نشر الأمن فأمنوا السدرك والحراسة المشددة على هذه الطرق حرصاً على مصالحهم التجارية، وهيبتهم. بالإضافة إلى أن الخطر الصليبي قد زال عن البحر الأحمر، ولم يكن استعمال الطريق البري سبباً في إلغاء استخدام الطريق البحري. فقد ظل بعض الحجاج والتجار ينتقلون بطريق البحر من القلزم والعقبة إلى ينبع وجدة، كما كانت إمدادات المؤن للحجاج تنقل بهذا الطريق. (٢)

أما طرق التجار والحجاج اليمنيين، فقد كان الحجاج القادمون من شتى مدن وقرى الجنوب العربي، وغيرها يتجمعون باليمن حيث تتشكل فيها قافلة الحج والتجارة اليمنية، وتنطلق عبر جبال عسير، فالحجاز إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة، وتعود هذه القافلة بعد أداء فريضة الحج. ويتم في موسم الحج عمليات البيع والشراء في الحجاز مع تجار الشام ومصر والصين والهند، والتجار القادمين من السواحل الشرقية الأفريقية وغيرها من جزر المحيط الهندي. فيأتون إلى مدن اليمن مثل عدن وصنعاء وزبيد وغيرها بعد أن يرتاحوا باليمن فترة من الوقت للبيع والشراء يعودون إلى بلادهم عبر الطريق الذي سلكوه في رحلة الذهاب. (٣) وتذكر

---

(١) العماد الاصفهاني، الفتح القسي، ص ص ٢٦٢-٢٦٧؛ غوانمة، يوسف، أمارة الكرك الأيوبية، دار الفكر، عمان، ١٩٨٢م، ص١٠١، ١٦١ وسيشار إليه لاحقاً: غوانمة، أمارة الكرك الأيوبية، وأيلـه (العقبة)، ص ص٧٢-٧٣.

(٢) غوانمة، أيلة (العقبة)، ص ٧٣، ٧٥.

(٣) حسين، عبد الله محمود، طرق الحج والتجارة عبر العصور، مجلة التضامن الإسلامي، س٤٩، ع١، المملكة العربية السعودية،وزارة الحج، مكة المكرمة، ١٩٩٤م، ص٤٣ وسيشار إليه لاحقاً: حسين، طرق الحج.

بعض المصادر أنه كان يصل جدة التي هي ميناء مكة على البحر الأحمر ما لا يقل عن ألف جمل في موسم الحج، وفي هذا الوقت كانت السفن القادمة من الهند والصين والسواحل الأفريقية وعدن تصل إلى جدة أيضاً. وكانت مواسم الحج هذه فرصة للتبادل التجاري بين تجار الكارم (عدن والهند وجنوب شرق آسيا) وتجار الحجاز ومصر والشام، وهذا يدلل على مقدار التجارة النشطة التي كانت في الحجاز في العصر المملوكي.(١)

٢- المواسم التجارية

لعبت التجارة دوراً واضحاً في الاقتصاد الحجازي، حيث اعتمدت على السلع التي تصل إليه مع التجار والحجاج القادمين من اليمن ومصر وشمال أفريقيا والشام والعراق وخراسان وغيرها من البلاد، إضافة إلى ما كان يصل ميناء جدة وينبع من بضائع الهند والشرق الأقصى. (٢)

وقد أشار المؤرخون إلى الصعوبة الكبيرة التي لقيها الحجاج أثناء سعيهم بين الصفا والمروة من جراء تجمع الباعة فيه، وكانت الأسواق التجارية بمكة قريبة من المسجد الحرام، حيث كانت تباع فيها مختلف السلع من الحبوب وخضروات وفواكه ولحوم. (٣)

وكانت مكة والمدينة تشهدان حركة نشطة في موسمي الحج والعُمرة الرجبية، حيث تتم عمليات البيع والشراء فيما بينهم وبين أهل المدينتين، وامتدت الأسواق في مكة لتشمل جوانب المسجد الحرام كافة. وقد كان المارة يتأذون من هذه الأسواق لازدحامها، الأمر الذي جعل سلاطين المماليك يحاولون بشتى الطرق والوسائل منع التجار من القيام بذلك احتراماً لحرمتي الزمان والمكان، ولكن دون فائدة. ورغم أن المصادر التاريخية قد أشارت إلى أماكن وجود الأسواق بالقرب من المسجد الحرام

---

(١) ابن الفرات، تاريخه، ج٩ ، ص٣١٣، ٣٥٠؛ الفاسي، العقد الثمين ، ج٤،ص٩٠، ٩٢ ، ج٦ ، ص٢٨٠ .

(٢) الإدريسي، أبي عبد الله محمد بن محمد، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٩م، جـ٢، ص١٤٠ وسيشار إليه لاحقاً: الإدريسي، نزهة المشتاق؛ ابن جبير، الرحلة، ص٩٦؛ غوانمة، أيلة (العقبة)، ص ص٧٣-٧٤؛ مورتيل، الأحوال السياسية، ص١٧٣.

(٣) ابن جبير، الرحلة، ص ص٨٨-٨٩؛ ابن بطوطة، الرحلة، ص١٣٦؛ مورتيل، الأحوال السياسية، ص٧٤.

ومواعيد انعقادها في شهري ذي الحجة ورجب من كل عام، إلا أنها لم تشر إلى أنواع هذه الأسواق وما اختصت به من سلع. [1]

وكانت التجارة المارة عبر موانئ الحجاز تشكل مورداً هاماً من موارد الاقتصاد الحجازي، لذلك حاول أشراف مكة مد سيطرتهم إليها، فأثروا ثراءً فاحشاً من عشور التجارة التي كانوا يجبونها من المراكب المارة عبر تلك الموانئ. وقد أشارت المصادر التاريخية إلى عدد هذه المراكب، حيث ذكر المؤرخون في أحداث سنة ٧٨٩هـ/١٣٨٧م، أن الشريف كبيش استولى على ثلاثة مراكب لتجار الكارم، وصلت من اليمن إلى جدة، حيث نهب الشريف ما فيها من بضائع. [2] وورد إلى ميناء جدة في موسم الحج في سنة ٧٩٤هـ/١٣٩٢م حوالي الأربعين مركباً من اليمن مليئة بالبضائع. [3] وفي العام التالي وصلت إلى جدة عشرون جَلْبَة من اليمن، وقد قل عددها بسبب تدهور حالة الأمن في إمارة مكة. [4] ووصلت إلى جدة في آخر شهر رمضان من سنة ٨٠٢هـ/١٤٠٠م عشرة مراكب لتجار الكارم. [5]

ووجدت في مينائي جدة وينبع أسواق خاصة في عصر دولة المماليك، حيث بيعت بها جميع أنواع السلع الواردة إليها من مصر واليمن وبلاد الشام وغيرها ومن هذه السلع: الجواهر، والياقوت، والمسك، والكافور، والعنبر، والعود، والعقاقير الهندية، والثياب الخرسانية، والفواكه، والحبوب، واللحوم وغيرها من السلع، فحقق سكان المدينتين أرباحاً طائلة ساعدت في انتعاش الحياة الاجتماعية فيهما. كما نشطت التجارة الداخلية في الحجاز بفعل عمليات التبادل التجاري التي كانت تتم ما بين مدنه كافةً، ومن ذلك التبادل التجاري الذي كان يتم سنوياً بين جدة ومكة والمدينة بفعل مرور الحجاج من مكة إلى المدينة إلى جدة وبالعكس. وخير مثال على ذلك ما ذكره المؤرخ المعاصر تقي الدين الفاسي بأن التجار سافروا من مكة

---

(١) ابن جبير، الرحلة، ص ص١٣٧-١٣٨؛ المقريزي، السلوك، جـ٤، ص ص٧٥٤-٧٥٥.

(٢) ابن الفرات، تاريخه، جـ٩، ص٧؛ الفاسي، العقد الثمين، جـ٧، ص ص٨٧-٨٨.

(٣) ابن الفرات، تاريخه، جـ٩، ص٣١٣؛ الفاسي، العقد الثمين، جـ٦، ص٢١٠.

(٤) ابن الفرات، تاريخه، جـ٩، ص٣٥٠؛ (الجلبة: هي من سفن البحر الأحمر التي كانت تستخدم في نقل الناس والبضائع (مورتيل، الأحوال السياسية ، ص١٧٧).

(٥) الفاسي، العقد الثمين، جـ٤، ص٩٥.

إلى جدة بعد انقضاء موسم الحج في قافلتين، تضم كل قافلة منهما أكثر من ألف جمل.[1]

٣- المكوس.

وصلت شكوى الحجاج المصريين إلى السلطان الظاهر بيبرس من ارتفاع المكوس عليهم دون غيرهم من حجاج المسلمين، فقام في سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٨م بأداء فريضة الحج، وهناك رأى ما يقع عليهم من مظالم، فأصدر أوامره إلى شريف مكة بمساواة حجاج مصر بغيرهم، ورتب له عشرين ألف درهم كل سنة بدل ذلك، كما أمر بفتح بيت الله الحرام لكافة الزائرين، وأن يخطب له على منابره، وأن لا يمس تاجر بأذى أو مصادرة.[2]

لم يلتزم خلفاء السلطان الظاهر بيبرس بالاتفاق المبرم بينه وبين شريف مكة، ومنهم السلطان المنصور قلاوون حيث لم يرسل في سنة ٦٨٣هـ/١٢٨٤م لأمير مكة مبلغ العشرين ألف درهم المتفق عليه. فاشتد الأمير في جباية الحجاج، فحدث نتيجة ذلك اشتباك بين شريف مكة وأمير الحج المصري انتهى بالصلح بعد تعهد السلطان بالدفع. أما ابنة السلطان الناصر محمد فقد أسقط مكس المأكولات وعوض أمير مكة عطيفة سنة ٧٢٢هـ/١٣٢٢م عن ذلك تلثي قرية دمامين إحدى قرى صعيد مصر، وألفي أردب قمح. فأصبح المكوس منذ ذلك الوقت من حق الشريف، إلا أن خلافاً نشب فيما بعد بين الأشراف حول نصيب كل أمير منها.[3] وأسقط كذلك في سنة ٧٦٠هـ/١٣٥٨م مكس المأكولات الذي فرضه الشريف عجلان سنة ٧٥٥هـ/١٣٥٤م على النخيل بسبب منع الملك المجاهد الرسولي اليمني، المراكب

---

(١) الإدريسي، نزهة المشتاق، جـ٢، ص ص١٣٨-١٣٩؛ ابن جبير، الرحلة، ص٨٦؛ ابن الفرات، تاريخه، جـ٩، ص٣١٣، ٣٥٠؛ القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٤، ص٢٥٨؛ الفاسي، العقد الثمين، جـ٤، ص٩٢؛ وجـ٦، ص٢١٠؛ زكي، طرق التجارة، ص ص١٣٨-١٣٩؛ مورتيل، الأحوال السياسية، ص١٨٠.

(٢) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ص ٣٥٤ - ٣٥٥ ؛ بيبرس المنصوري، التحفة الملوكية، ص ص٦٦-٦٧؛ النويري، نهاية الأرب، جـ٣٠، ص ص١٦٦-١٦٧؛ الخزرجي ، العقود اللؤلؤية، جـ١، ص١٥٣.

(٣) ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص ص١٧٥-١٧٧؛ ٢٦٠،٢٦٧، ٥١٤-٥٢٤.

اليمنية من الرسو بموانئ الحجاز بسبب الدور الذي لعبوه في أسره وإرساله مقيداً إلى مصر.[1]

تردت الحالة الاقتصادية في الحجاز سنة ٧٦٦هـ/١٣٦٤م نتيجة لارتفاع المكوس على كافة البضائع الواردة والصادرة، حيث أورد المؤرخون قوائم مفصلة بمقدار المكس على كل نوع من أنواع المواد الغذائية نوضحها كالتالي:

نوع السلعة	مصدر السلعة	مقدار المكس عليها
الحمل (أياً كان نوعه)	الطائف أو نخلة	مدّ وربع بمكيال الطائف[2]
الحمل (أياً كان نوعه)	جدة	مدّاً جدياً[2]
حمل التمر	من أي منطقة يصل إلى مكة	ثمانية دراهم مسعودية[3]
حمل التمر المحشي	من أي منطقة يصل إلى مكة	ثلاثة دراهم مسعودية[4]
شاه (الغنم)	من أي منطقة يصل إلى مكة	ستة دراهم مسعودية[5]
السمن والعسل والخضر وغير ذلك	من أي منطقة يصل إلى مكة	سدس قيمة ما يباع منها[6]

---

(١) الفاسي، العقد الثمين، جـ١، ص١٩٥، وشفاء الغرام، جـ١، ص٢٨٤؛ ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص ص٢٦٠-٢٦٣.

(٢) (٢) (٣) (٤) (٥) (٦) الفاسي، شفاء الغرام، جـ١، ص٢٤٩؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٤، ص٤٣٩؛ ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص ص٣٠٣-٣٠٤؛ الجزيري، الدرر الفرائد، جـ١، ص٣١١ (الدرهم المسعودي: نسبة إلى الملك المسعود الأيوبي صاحب اليمن ومكة وكان يساوي ثلث الدرهم الكاملي (نسبة للكامل محمد صاحب مصر) حيث صك سنة ٦٢٢ / ١٢٢٥ م القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٤، ص٢٨٠).

(٧) الفاسي، شفاء الغرام، جـ١، ص١٩٥؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٤، ص٤٣٩؛ ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص ص٢٨٣-٢٨٥؛ الجزيري، الدرر الفرائد، جـ١، ص٣١١.

(٨) لمزيد من المعلومات انظر: وظيفة ناظر جدة.

(٩) الفاسي، العقد الثمين، جـ١، ص١٩٥؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٧، ص٤٣٠.

ونتيجة لارتفاع مقدار المكس الذي سبق أن أشرنا إليه، وصلت شكوى الحجاج إلى السلطان الأشرف شعبان، فأسقط كافة المكوس عن المواد الغذائية واستثنى من ذلك تجار الكارم وميناء جدة، ومكس ركب العراق، ومكس الخيل، وعوض السلطان الأشرف شعبان أمير مكة عن ذلك مائة وسبعين ألف درهم نقرة تحمل له من مصر في كل سنة من بيت المال، وألف أردب قمح. والملاحظ في مرسوم السلطان الأشرف تمييزه بين المواد الغذائية والسلع التجارية، وبين حجاج مصر من جهة حيث أعفوا من المكوس وحجاج اليمن الذين دفعوها بالإكراه. (٧)

وطمع سلاطين دولة المماليك الجراكسة بمكوس المراكب الواردة إلى ميناء جدة، فشاركوا الأشراف فيها. (٨) وحاول السلطان الظاهر ططر (٨٢٤/١٤٢١ م) إجراء إصلاحات اقتصادية في الحجاز بإسقاط مكس الخضروات وإعفاء أمراء مكة من الأموال التي يدفعونها لأمراء الحج المصري، لكنها انتهت بوفاته. (٩)

جعل السلطان الأشرف برسباي جدة تابعة له مباشرة، فثار عليه الشريف بركات سنة ٨٢٩هـ/١٤٢٥م لحرمانه منها، ولكن السلطان عاد وأنعم عليه بثلث ما يتحصل من مكوس التجارة الواردة إليها -حيث لم ترد إشارات في المصادر التاريخية توضح قيمة هذا المتحصل سنوياً- وذلك لخوف السلطان الأشرف برسباي من الاضطرابات التي قد يحدثها الشريف وتؤثر على نشاط الحركة التجارية في الحجاز. (١)

كما أثرت إجراءات سلاطين المماليك التجارية على الوضع الاقتصادي في المدينة المنورة ومنها: احتكار السلطان الأشرف برسباي لتجارة الفلفل سنة ٨٣٥هـ/١٤٣١م. ومحاولته الضغط السياسي على الدولة الرسولية باليمن عن طريق تجارة جدة انتقاماً من ملوكها. فثار أمراء المدينة المنورة على هذه الإجراءات، لكونهم يستفيدون من المكوس المتحصلة من المراكب الواردة إلى ميناء

---

(١) المقريزي، السلوك، جـ٤، ص٥٢٧، ٥٨٣.

ينبع والتي تشكل أحد موارد أمارتهم، وهموا بنهب قافلة متولي عشور جدة سعد الدين بن المرة لإشعار السلطان بذلك، لكن وفاة برسباي أنهت إجراءاته. (١)

عدل السلطان الظاهر جقمق (٨٤٢-٨٥٦هـ/١٤٣٨-١٤٥٢م) من سياسته الاحتكارية وخفّض المكس على التجار والحجاج بعد أن سخط المسلمون عليه نتيجة لسياسته تلك، ولتهدئة الرأي العام الإسلامي ضده، استصدر فتوى من فقهاء المذاهب الأربعة تجيز له أخذ المكوس بحجة صرفها في المصالح العامة للمسلمين، فسخط الناس والمؤرخون على هؤلاء الفقهاء. (٢)

وأما سلاطين الدولة الرسولية فقد جبوا المكوس من التجار القادمين من الهند والصين والمشرق الإسلامي في حالة التجائهم إلى ميناء عدن والرسو فيه. ومع ذلك فقد عُومل التجار بقساوة، مما أجبرهم في كثير من الأحيان اللجوء إلى مينائي جدة وينبع لارتفاع المكوس في الموانئ اليمنية على بضائعهم. (٣)

٤- موارد الدخل في الحجاز

تركزت موارد الدخل في الحَجاز على ثلاثة مصادر هي:

أ- ما ينفقه الحجاج في موسم الحج:

يقيم الحجاج بعد أداء موسم الحج حوالي العشرة أيام في مكة لشراء الهدايا للأقارب والأهل والأصدقاء، فينفقون فيها ما معهم من أموال، فتروج بضائع أسواق مكة والمدينة، ويجبي تجار المدينتين أرباحاً كبيرةً نتيجة ذلك، ثم يسمح أميرا مكة والمدينة للحجاج بالرحيل إلى بلدانهم. (٤)

وقد لعبت كل من مصر واليمن دوراً كبيراً في توفير سبل الراحة والسلامة للحجاج القادمين من شتى بقاع ديار الإسلام. فقد اهتم سلاطين المماليك بتحسين

---

(١) المقريزي، السلوك، جـ٤، ص٧٢٤؛ ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٤، ص٤١٧؛ موير، وليم،تاريخ دولة المماليك في مصر ، ترجمة: محمود عابدين وسليم حسن، القاهرة، ١٩٢٤م ، ص١٣٦ وسيشار إليه لاحقاً: موير، تاريخ دولة المماليك.

(٢) المقريزي، السلوك، جـ٤، ص٩٧٣؛ ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٤، ص٤٤٠.

(٣) بامخرمة، تاريخ ثغر عدن، ص ص٥٨-٥٩.

(٤) المقريزي، السلوك، جـ٤، ص٤٨٥؛ الجزيري، الدرر الفرائد، جـ١، ص٤٧٦؛ زكي، طرق التجارة، ص ص٧-٩.

الطرق وإصلاحها وحفر الآبار والخزانات على جانبيها، وبناء خانات كي يستريح الحجاج فيها بعض الوقت للأكل والشراب، وإطعام دوابهم وإراحتها من عناء الطريق.كما اهتموا بتوفير المؤن والجمال للحجاج في طريق عودتهم عندما يشعرون بوجود أزمات اقتصادية بالحرمين. كل ذلك كان حافزاً لرعايا الدولة للخروج للحج، وإنفاق أموالهم لمصالحهم وتقرباً إلى الله في قبلة المسلمين وثاني الحرمين، كما عملت اليمن على تسهيل طريق الحج لحجاج الجنوب العربي. وبذلك ساهم كل من مصر واليمن بوسائلهما العسكرية والمالية في تشجيع مواسم الحج، التي كانت أهم موارد مكة المالية والاقتصادية والوسيلة الأساسية لمعيشة سكانها. (١)

كما كانت اليمن مركزاً لتجمع الحجاج من مناطق الجنوب العربي، حيث اهتم سلاطين الدولة الرسولية بالطرق المؤدية إلى الحجاز، وعملوا على وضع حاميات عسكرية لحمايتها، وأصلحوا ما خرب منها، وعمروا الخانات على جوانبها، وزودوا الحجاج بالرواحل والماء والطعام في طريق ذهابهم وإيابهم. (٢)

ب- ما يجبى من المكوس على السلع التجارية من المراكب الواردة إلى موانئ الحجاز. (٣)

ج- صدقات السلاطين والخلفاء والملوك وكبار المحسنين من أمراء ورجال الدول:-

كان الناصر محمد بن قلاوون أول من أرسل صدقاته إلى الحجاز حيث أمدهم بألفي أردب من الحنطة سنة ٧٢٢هـ/١٣٢٢م، فخفف عنهم وطأة القحط والجفاف الذي أصابهم من قلة المطر في تلك السنة، واستمر أولاد الناصر بإرسال هذه

---

(١) ابن بطوطة، الرحلة، ص١١٨، ١٣٤؛ القلقشندي، صبح الأعشى، جـ١٤، ص ص٣٨٧-٣٨٨؛ المقريزي، أحمد بن علي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مطبعة بولاق، القاهرة، ١٨٥٣م، جـ١، ص٢٠١ وسيشار إليه لاحقاً: المقريزي، الخطط؛ السيوطي، حُسن المحاضرة، جـ٤، ص١٨٤، وحسين، طرق الحج، ص٤٣.

(٢) حسين، طرق الحج، ص ص٣٧-٣٨.

(٣) لمزيد من المعلومات انظر: ما سبق عن المكوس التجارية.

الصدقات من بعده، فأرسل ابنه الصالح الكثير من الصدقات في مواسم الحج المختلفة، علماً بأن المصادر التاريخية لم تشر إلى مقدارها أو قيمتها. [١]

وتصدق السلطان الأشرف شعبان بألفي أردب من القمح سنة ٧٦٦هـ/١٣٦٤م.[٢] وفي عهد السلطان الظاهر برقوق أصبح الإنفاق على سكان الحجاز جزءاً من سياسة الدولة العامة. فقد كان برقوق كثير الصدقات والأوقاف، وكان يعطي الحجاج المصريين نفقاتهم التي تغطي حجهم ذهاباً وإياباً، وكان يبعث في كل موسم حج ثلاثة آلاف أردب قمحاً تفرق بين أهل الحرمين ومجاوريه. وفرق في مواسم القحط والجفاف والغلاء التي أصابت مكة والمدينة في عهده آلاف الأرادب من القمح. كما أوهب الشريف علي بن عجلان أموالاً ومؤناً وخيلاً لكي يعامل أهل مكة معاملة حسنة ويحكم بينهم بالعدل، وأوقف الكثير من الأوقاف لتنفق على أهل الحجاز والوافدين إليه. [٣]

كما أرسل المؤيد شيخ المحمودي سنة ٨١٨هـ/١٤١٥م كميات وفيرة من الذهب لتفرق بالمسجد الحرام، وفرقت من قبل الأمير تغري برمش التركماني. [٤]

وتصدق السلطان الأشرف برسباي بمركب قمح إلى الحجاز، فأمر بإنفاقه على سكان الحرمين الشريفين، فبدأوا بالمدينة المنورة، ثم وصلوا إلى مكة فأنفقوا فيها خمسمائة أردب على أهل الحرم المكي ومجاوريه وسار سلاطين المماليك على نهجهم حتى نهاية دولة المماليك. [٥]

وكان السلطان نور الدين عمر بن رسول، أول من اتبع هذه السياسة من سلاطين الدولة الرسولية، حيث أبطل المظالم والمكوس بمكة وعوض صاحب مكة عنها، وكتب بذلك منشوراً علق مقابل الحجر الأسود وجدار زمزم. وقدم الكثير من

---

(١) ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص ص١٧٥-١٧٦، ٣٩٧؛ الجزيري، الدرر الفرائد، جـ١، ص٦٢٧؛ سرور، دولة بني قلاوون، ص١٢٧.

(٢) ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص٣٠٠؛ سرور، دولة بني قلاوون، ص١٢٧.

(٣) الفاسي، العقد الثمين، جـ٣، ص٣٦٠؛ ابن تغري بردي، ج١٢، ص ص١٠٨-١٠٩؛ ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص ص٣٧٦-٣٧٨.

(٤) ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص ص٥٢٦-٥٢٨.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٤، ص٢٧٥؛ ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٤، ص٣٨٥.

الصدقات والهبات لأهل مكة والمجاورين، وكان يرسلها سنوياً مع قادته إلى الشريف راجح ليفرقها بين أهالي الحرمين، واستمر بهذه السياسة حتى وفاته. (١) وتبعه في ذلك ابنه الملك المظفر يوسف، حيث وصلت صدقاته في سنة ٦٥٩هـ/١٢٦٠م إلى كل بيت بمكة في محاولة منه لاستقطاب أهل الحجاز. (٢) وكان الملك المجاهد بن المظفر الرسولي من الذين خصوا الحجاز بصدقاتهم الكثيرة، وخاصة في حجاته الثلاثة، وبقي سلاطين الدولة الرسولية يرسلون صدقاتهم إلى الحجاز ولكنها لم تجن الثمار المتوقعة منها. (٣)

٥- المعاملات المالية .

يذكر القلقشندي أن النقود الرائجة في مكة هي الدنانير والدرهم، ويستعمل منها الدرهم النقرة، والتي عرف منها الدرهم الكاملي الذي سمي بذلك نسبة للملك الكامل محمد ابن أبي بكر بن أيوب صاحب مصروالمرجح انها ضربت بمكه في فترة حكمة ما بين سنتي ٦١٩هـ/١٢٢٢م-٦٢٦هـ /١٢٢٨م . ويشير كذلك إلى وجود درهم آخر من الفضة الخالصة شكله مربع ويزن حوالي النصف ثم نزل حتى صار نحو السدس، وعرف بالدرهم المسعودي نسبة إلى الملك المسعود الأيوبي ، وقد ضرب في مصر في ذي القعدة من سنة ٦٢٢ هـ/١٢٢٥م ، ويساوي في التعامل ثلثي الدرهم الكاملي، ولم يرد لها ذكر في مصادر تأريخ مكة حتى سنة ٧٢٥هـ /١٣٢٤م . (٤)

كما انتشر في الحجاز التعامل بالفلوس الجدد، وكان كل درهم في مكة يساوي ثمانية وأربعين فلساً أي ضعف ما يصرف في مصر حيث كل درهم يساوي أربعة وعشرين فلساً. (٥)

---

(١) ابن حاتم اليامي، السمط، ص ص٢٢٠-٢٢١؛ الخزرجي، العقود اللؤلؤية، جـ١، ص ص٦٨-٦٩؛ الفاسي، العقد الثمين، جـ٦، ص ص٣٤٦-٣٤٧؛ رفعت، مرآة الحرمين، جـ١، ص٦٩.

(٢) ابن حاتم اليامي، السمط، ص ص٣٤٨-٣٥٠، ٣٥٤، ٣٧٧-٣٧٨؛ الخزرجي، العقود اللؤلؤية، جـ١، ص١٦٩؛ المقريزي، الذهب المسبوك، ص ص٨٤-٨٥؛ الجزيري، الدرر الفرائد، جـ١، ص٢٨.

(٣) ابن خلدون، العبر، جـ٥، ص ص٨٣٩-٨٤٠؛ العصامي، السمط، جـ٤، ص ص٢٢٢-٢٢٣.

(٤) ابن المجاور، تاريخ المستبصر، ص١٢ ؛ القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٤، ص ٢٧٦،٢٨٠

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٤، ص٢٨١.

كما انتشر في دولة المماليك الدينار الأفرنتي[1]، وكان النقد الذهبي المتعامل به فيها، وكان وزنه ٣,٥١غم وضرب في مدينة فلورنسا، وتعامل به أهل مكة اعتباراً من سنة ٨١٥هـ/١٤١٣م، حيث صرف بسبعة وخمسين درهماً، بينما كان صرف متقال الذهب الإسلامي ستين درهماً، ثم ما لبث أن انخفض سعر صرف الدينار الأفرنتي بعد موسم الحج منها، حتى بيع بخمسين درهماً فقط، ثم ارتفع إلى ستين درهماً في رمضان من سنة ٨١٦هـ/١٤١٤م، واستقر سعر صرفه على أربعة وخمسين درهماً سنة ٨١٩هـ/١٤١٦م.[2]

وقد أصدر السلطان الأشرف برسباي مرسوماً في سنة ٨٢٩هـ/١٤٢٦م تضمن منع تداول الدينار الأفرنتي، وضرب دنانير عرفت بالأشرفية نسبة إليه لتحل محل الدنانير الأفرنتية، وكان وزنها ٣,٤١غم من الذهب أي ١,٩٧ من وزن الدينار الأفرنتي، وتم التعامل به لأول مرة في مكة في موسم حج سنة ٨٣٤هـ/١٤٣١م، وظل يجري التعامل به حتى نهاية الدولة المملوكية.[3]

أما معاملات المدينة المنورة المالية، فهي كمعاملات مصر ومكة بالدنانير والدراهم نفسها، وأسعارها نحو أسعار مكة، وربما كانت مكة أرخص أسعاراً من المدينة لقربها من ساحل البحر بجدة.[4]

٦- الأزمات الاقتصادية

تعرض الحجاز للكثير من الأزمات الاقتصادية ومنها: ما وقع من قحط في سنوات ٦٧٦هـ/١٢٧٧م، ٦٨٣هـ/١٢٨٤م، ٦٩٥هـ/١٢٩٥م، ونتيجة ذلك

---

(١) الدينار الأفرنتي: نسبة إلى مدينة فلورنسا، ولذلك سمي دينارها فلورنتي وحرفها العرب إلى الأفرنتي، وقد تعامل به في الحجاز ومصر والبلاد الشامية واليمن، وقد حاول الأشرف برسباي إبطال المعاملة به، وإلزام الناس التعامل بالدينار الأشرفي (ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص٥٣٥، ابن فهد، غاية المرام، جـ٢، ص٣٠١).

(٢) مورتيل، الأحوال السياسية، ص١٩٥.

(٣) مورتيل، الأحوال السياسية، ص١٩٥-١٩٦.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٤، ص٣٠٦.

ارتفعت أسعار المواد الغذائية، واستمر الغلاء طول موسم الحج في السنوات الثلاثة السابقة بسبب قلة الأمطار.[1]

وكان القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، قرن الأزمات الاقتصادية في الحجاز، حيث تعددت أسبابها، فمنها: قلة الأمطار، كما في سنوات ٧٠٧هـ/١٣٠٧م، و ٧٢١-٧٢٥هـ/١٣٢١-١٣٢٤م،و ٧٤٤هـ/١٣٤٣م، و٧٤٧هـ/١٣٤٦م، و٧٤٩هـ/١٣٤٨م، و ٧٥١هـ/١٣٥٠م، و٧٥٣هـ/١٣٥٢م، و٧٥٩هـ/١٣٥٧م، و ٧٦٠هـ/١٣٥٨م، و٧٦٥-٧٦٧هـ/١٣٦٣-١٣٦٥م، ٧٨٣هـ/١٣٨١م.[2]

وانتشرت الأوبئة والأمراض بسبب قلة الماء اللازم للنظافة وذلك بين سنتي ٧٤٧-٧٥١هـ/١٣٤٦-١٣٥٠م ثم انتهت الأوبئة بسقوط الأمطار.[3] وبسبب اضطراب أحوال دولة المماليك وعدم اهتمامها بتجهيز ركب الحجاج سنة ٧٨٣هـ/١٣٨١م.[4] بالإضافة إلى تشدد سلاطين المماليك في جبي الضرائب واحتكارهم للسلع مثلما حدث بين سنتي ٧٥٩-٧٦٠هـ/١٣٥٦-١٣٥٨م[5]، ثم

---

(١) ابن الفرات، تاريخه، مجـ٧، ص٢٠٦؛ الفاسي، شفاء الغرام، جـ٢، ص٢٧٢؛ المقريزي، السلوك، جـ١، ص٨٠٤، ٨١٥؛ ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص١٠٨، ١١٧، ١٢٨؛ الجزيري، الدرر الفرائد، جـ١، ص٦١٢، وجـ٣، ص١٦٩٨؛ العصامي، السمط، جـ٤، ص٢٢١؛ زترستين، تاريخ سلاطين المماليك ، بريل -ليدن، ١٩١٩م، ص ٣٨٠ وسيشار إليه لاحقا : زترستين، تاريخ سلاطين المماليك.

(٢) اليافعي، أبي محمد عبد الله بن أسعد اليمني، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، وضع حواشيه، خليل المنصور، منشورات: محمد بيضون، دار الكتب العلمية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٧م، جـ٢، ص٢٠٤ وسيشار إليه لاحقا: اليافعي، مرآة الجنان؛ الخزرجي، العقود اللؤلؤية، جـ١، ص٢٩٩؛ الفاسي، العقد الثمين، جـ٦، ص٥٩؛ شفاء الغرام، جـ٢، ص ص٢٧٢-٢٧٤؛ المقريزي، السلوك، جـ٢، ص٢٦٥، ٨١٦، ٨٨٨، وجـ٣، ص١٠؛ ابن قاضي شهبة، تاريخه، مجـ٢، ص ص٣٥٣، ٤٠٦-٤٠٧؛ ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص ص١٤٤-١٤٥، ١٧٣-١٧٥؛ ١٧٨-١٨١، ٢٣٢-٢٣؛ ٢٤١، ٢٧٤، ٢٧٨، ٢٨١.

(٣) الفاسي، شفاء الغرام، جـ٢، ص٢٧٣؛ المقريزي، السلوك، جـ٢، ص٨١٦، وجـ٣، ص١٠؛ ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص٢٤٥.

(٤) المقريزي، السلوك، جـ٣، ص ٤٦٠؛ ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص٣٧٧؛ بدر، التاريخ الشامل، جـ١، ص٢٧٢.

(٥) ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص ص٢٧٤، ٢٧٨، ٢٨١.

للتنافس القوي بين الأشراف على السلطة كما حدث بين سنتي ٧٨٨-٧٩٧هـ/١٣٨٦-١٣٩٤م. [1] كل ذلك أدى إلى سوء الأحوال الاقتصادية في الحجاز، فقد كان للطبيعة وأزماتها وظلم السلاطين وقسوتهم نتائج سيئة على الحجاز بعامة، ولم تنفرج تلك الأزمات إلا بالصدقات التي كان يرسلها سلاطين المماليك إلى بلاد الحجاز، حيث كان في ذلك راحة واطمئنان وإبعاد للجوع عن عامة الناس.

وشهد القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي توازناً واستقراراً في الأسعار، حتى الأزمة التي حدثت ما بين سنتي ٨٢١-٨٢٣هـ/١٤١٨-١٤٢٠م، فقد حصل بمكة غلاء بالأسعار،فبيعت الغرارة من الحنطة والذرة بخمسة وعشرين ديناراً. وارتفعت أسعار المواد الغذائية أكثر من السابق، ثم فقدت الحبوب من الأسواق بمكة باستثناء الحمص والفول والعدس، ثم أنها فقدت من الأسواق لشدة الجوع بين الناس، ثم انفرجت الأزمة بسقوط الأمطار، فهدأت الأسعار حتى نهاية القرن. [2]

وأما بالنسبة لدور الدولة الرسولية في هذه الأزمات، فهو لا يتعدى وقت قدوم السلاطين للحج، أمثال السلطان نور الدين عمر بن رسول حيث قدّم الكثير من الصدقات وأسقط المكوس أثناء حجه. وتبعه في ذلك الملك المظفر والملك المجاهد، حيث جلبوا معهم المؤن والأقوات وقدموا الكثير من الصدقات والهبات لأمراء وأهالي الحرمين، كما شملوا بإحسانهم المجاورين بمكة والمدينة. ولعب الملك المجاهد دوراً كبيراً في أحداث أزمة اقتصادية في مكة عندما منع مراكب اليمن من

---

(١) ابن الفرات، تاريخه، مجـ٩، جـ١، ص٢٢، ٢٧؛ الفاسي، شفاء الغرام، جـ٢، ص٢٧٤؛ والعقد الثمين، جـ١، ص٢١٠؛ المقريزي، السلوك، جـ٣، ص٨٦٢، ٨٦٩؛ ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص٣٧٩، ٣٩١؛ الجزيري، الدرر الفرائد، جـ١، ص ص٦٧٧-٦٨٠.

(٢) الفاسي، العقد الثمين، جـ١، ص٢١٠، وشفاء الغرام، جـ٢، ص٢٧٧؛ المقريزي، السلوك، جـ٤، ص٥٠٩، ٥١٩؛ ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص ص٥٦٦-٥٦٧.

الإبحار إلى مكة انتقاماً من أمرائها لدورهم في أسره وإرساله إلى مصر سنة ٧٥١هـ/١٣٥٠م.[١]

والجدول التالي يوضح مدى ارتفاع الأسعار نتيجة للأزمات الاقتصادية التي حدثت خلال فترة الدراسة لسلعة القمح فقط كنموذج لذلك:-

الرقم	السنة	الكمية	السعر	مصدر المعلومة
١-	٦٩١هـ	ربع المد[٢]	دينار	ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص١٢٢.
٢-	٦٩٥هـ	الغرارة[٣] الواحدة	٢٥٠٠ درهم	ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص١٢٨. الفاسي، شفاء الغرام، جـ٢، ص٢٧٢.
٣-	٧٠٤هـ	الويبة[٤] الواحدة	٦٠ درهماً	الجزيري، الدرر الفرائد، جـ١، ص٧١٦.
٤-	٧٠٧هـ	الغرارة الواحدة	٢٥٠٠ درهماً	ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص ص١٤٤-١٤٥.
٥-	٧٤٧هـ	الرطل[٥] الواحد الغرارة الواحدة	٤٠ درهماً ١٧٠ درهماً	ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص٢٣٣. الفاسي، شفاء الغرام، جـ٢، ص٢٧٣.
٦-	٧٤٨هـ	الأردب[٦] الواحد الويبة الواحدة	٣٠٠ درهماً ٤٦ درهماً	ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص٢٣٨. المقريزي، السلوك، جـ٢، ص٧٩٨.

---

(١) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص٦٥؛ الخزرجي، العقود اللؤلؤية، جـ١، ص٢٩٩؛ المقريزي، السلوك، جـ٤، ص ص٥١١-٥١٢، ٥٨٣؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق١، ص٣٣٠؛ حمسادة، الوثائق السياسية العائدة للجزيرة، ص٣٢٧؛ عاشور، مصر والشام، ص٣٣٩.

(٢) سبق تعريفه في الفصل الثالث، ص٤٨.

(٣) الغرارة: هي مكيال دمشقي للحنطة، وهي تتألف من ١٢ كيلاً أو ٧٢ مداً دمشقياً، وعن العمري أن الغرارة الواحدة + مد ونصف المد كانت تساوي ٣ أرادب مصرية تقريباً، وبما أن الأردب قد حدد بحوالي ٦٩,٦كغم قمح، فعلى هذا يكون وزن الغرارة حوالي ٢٠٤,٥كغم قمح بوصفها مكيالاً (هنتس، الأوزان والمكاييل، ص٦٤).

(٤) الويبة: مكيال مصري بالدرجة الأولى، وكان يعادل ١٠ أمنان أو ١٢,١٦٨كغم قمح، وفي القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين كانت الويبة تساوي ١٦ قدحاً، كل قدح ٢٣٢ درهماً أي يساوي ١١,٦كغم قمح. (هنتس، الأوزان والمكاييل، ص٨٠).

(٥) الرطل: مكيال استعمل في الحجاز في عصر المماليك، حيث كان يساوي ٢٦٠ درهماً أي ٨١٢,٥غم، وفي أواخر العصور الوسطى كان الرطل في مكة يساوي الرطل البغدادي وبناء على ما أورده هنتس يكون وزن الرطل المكي في القرن السابع عشر الميلادي يساوي ٤٠٨,٢٣غم، والوزن الدقيق للرطل هو ١٣٠ درهماً كل درهم ٣,١٢٥غم أي أن وزن الرطل يساوي ٤٠٦,٢٥غم، وكان الرطل في مصر يساوي اثني عشر أوقية كل أوقية ١٢ درهماً أي يساوي ١٤٤ درهماً ويساوي ٤٥٠غم، أما الرطل الدمشقي كان يساوي ٦٠٠ درهم دمشقي وتساوي ١,٨٥ كغم. (هنتس، الأوزان والمكاييل، ص ص٣٠-٣٣).

(٦) الأردب: هو مكيال مصري للحنطة يتألف من ٦ ويبات كل ويبة ٨ أقداح كبيرة أو ١٦ قدحاً صغيراً، ويصعب تحديد الأردب بدقة، وكانت الويبة الواحدة تساوي ١٥ مَناً من الحنطة، فلو قدرنا للمَن الواحد=

-٧	٧٦٦هـ	الأردب الواحد	٦٨٠ درهماً	ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص٣٠٢.
-٨	٧٨٣هـ	الويبة الواحدة	٢٠ درهماً	الجزيري، الدرر الفرائد، جـ١، ص١٦٦٩.
-٩	٧٩٣هـ	الغرارة الواحدة	٥٠٠ درهم	ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص٣٧٩. الفاسي، شفاء الغرام، جـ٢، ص٢٧٤. الفاسي، العقد الثمين، جـ١، ص٢١٠.
-١٠	٨١٥هـ	الغرارة الواحدة	٢٠ أفلورياً	ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص ص٤٩٨-٤٩٩.
-١١	٨١٦هـ	الغرارة الواحدة	٩-١٥ أفلوري	ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص٥١٠. الفاسي، شفاء الغرام، جـ٢، ص٢٧٦.
-١٢	٨٢٢هـ	الغرارة الواحدة	٢٠ أفلورياً وأزيد	ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص٥٦٧.
-١٣	٨٢٤هـ	الحمل[1] الواحد	٣٠ أفلورياً	ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص٥٨٨.

ب- الزراعة في بلاد الحجاز

تقع مكة في وادي غير ذي زرع حيث تحيط بها الجبال الجرداء، قال تعالى: **﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرعٍ عند بيتك المحرم﴾.**[2] فهي قليلة المزروعات لذلك اعتمد أهلها على جلب المواد الغذائية من الأودية والمناطق الخصبة المحيطة بها، ثم من المناطق المجاورة للحجاز مثل اليمن ومصر وساحل أفريقية الشرقي.[3]

وقد أورد المؤرخون إشارات واضحة تدل على توفر المواد الغذائية في مكة، مع أن أرضها غير زراعية، والملاحظ أن هذه السلع كانت تجلب إليها من أماكن أخرى.[4] ويوجد حول مكة العديد من المناطق الزراعية نذكر منها: الطائف: وهي

=٢٦٠ درهماً، كل درهم يساوي ٣,١٢٥غم لكان وزن الحنطة للأردب الواحد ٧٣,١٢٥كغم (هنتس، الأوزان والمكاييل، ص٥٨).

(١) الحمل: اسم كان يطلق في مصر في العصور الوسطى على قدر من البضائع يزن ٥٠٠ رطل. وكان هذا يساوي نظرياً ٢٢٢,٤٦٥٦كغم، وكان حمل الطحين المصري ٣٠٠ رطل ويساوي ١٣٥كغم، وحمل الفلفل يساوي ٥٠٠ رطل ويساوي ٢٢٥كغم، وما دامت تعوزنا بيانات أوثق فإنه يحسن أن نقدر للحمل قيمة تقريبية تناهز ال ٢٥٠كغم (هنتس، الأوزان والمكاييل، ص ص٢٦-٢٧، ٣٧).

(٢) سورة إبراهيم، الآية ٣٧.

(٣) الزيلعي، أحمد عمر، مكة وعلاقاتها الخارجية (٣٠١-٤٨٧هـ)، عمادة شئون المكتبات، جامعة الرياض، السعودية، الرياض، ١٩٨١م، ص ص١٥٦-١٦٠ وسيشار إليه لاحقاً: الزيلعي، مكة.

(٤) ابن جبير، الرحلة، ص ص٩٦-٩٨؛ ابن المجاور، يوسف بن يعقوب، صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسمى تأريخ المستبصر، اعتنىَ بتصحيحها وضبطها: أوسكر لوفغرين، ليدن، أبريل، ١٩٥١م، ص٩ وسيشار إليه لاحقاً: ابن المجاور، تاريخ المستبصر، ابن بطوطة، الرحلة، ص٩٧.

مدينة مشهورة بصفاء هوائها وجودة فواكهها منذُ الجاهلية، حيث تقع في السفوح الشرقية لجبال السراة، وتبعد عن مكة مسيرة ثلاثة أيام أو ٩٩كم بالمقاييس العصرية، ومن الفواكة التي تصدرها إلى مكة: الرمان، والموز، والزبيب، والعنب. وذهب بعض الجغرافيين إلى أن مُعظم فواكه مكة كانت ترد إليها من الطائف. (١) ووادي نخلة الشامية الذي يبعد عن مكة مسافة ٤٣كم بالمقاييس العصرية، وقد كان به العديد من القرى التي تضم الكثير من عيون الماء والحدائق والبساتين، وصرح القلقشندي أن غالب فواكه مكة وقطاينها وبقولها منه. (٢) ووادي مر الظهران (وادي فاطمة حالياً) يقع على طريق حجاج مصر والشام على مسيرة يوم واحد من مكة على مسافة ٣٣كم شمالي مكة على الطريق المؤدية إلى المدينة المنورة، ويعدُ من أعظم أودية الحجاز، وهو على درجة كبيرة من الخصوبة. وتكمن أهميته في كونه مصدراً من مصادر الفواكه والخضروات والحبوب لأهل مكة، ويشتهر بكثرة النخيل والقرى وعيون الماء. (٣) كما مورِست الزراعة في أودية أخرى أقل شهرة وخصوبة تقع ضمن إمارة مكة مثل منطقة عين سليمان، وكان للمغاربة المجاورين بمكة فضل كبير في تطوير الزراعة فيها.(٤)

---

(١) الإدريسي، نزهة المشتاق، جـ٢، ص١٤٤؛ ابن جبير، الرحلة، ص٩٧؛ الحموي، معجم البلدان، مجـ٤، ص٩؛ أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل ، تقويم البلدان، اعتنى بتصحيحة وضبطة: رينود مدرس العربية والبارون ماك كوين ديسلان ، دار الطباعة السلطانية باريس، دار صادر ،بيروت ،١٨٤٠م ، ص ٩٥ وسيشار إليه لاحقاً: أبو الفداء، تقويم البلدان، ص٩٥؛ القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٤، ص٢٥٩؛ البلادي، عاتق بن غيث، معجم معالم الحجاز، دار مكة المكرمة، مكة المكرمة، ١٩٧٨م، جـ٥، ص١٩ وسيشار إليه لاحقاً: البلادي، معجم معالم الحجاز.

(٢) ابن عبد الحق البغدادي، مراصد الإطلاع، جـ٣، ص١٣٦ ؛ القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٤، ص٥٨؛ البلادي، معجم معالم الحجاز، جـ٩، ص٤٢.

(٣) ابن بطوطة، الرحلة، ص١٣٠؛ أبو الفداء، تقوم البلدان، ص٩٥؛ القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٤، ص٢٥٩؛ البلادي، معجم معالم الحجاز، ص ص١٠٠-١٠٢؛ البلادي، عاتق بن غيث، معالم مكة التأريخية، والأثرية، دار مكة، مكة، ١٩٨٠م، ص٢٩٩ وسيشار إليه لاحقاً: البلادي، معالم مكة.

(٤) ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، جـ٣، ص١٣٦؛ والبلادي، معالم الحجاز، جـ٩، ص٤٢، ٤٧، ومعالم مكة، ص ص٢٥٨-٢٦٠.

أما أصناف الفواكه والخضروات التي كانت ترد إلى أسواق مكة من هذه المناطق فمنها: الرمان، والعنب، والتين والسفرجل، والخوخ، والتفاح، والليمون، والجزر، والرطب، والبطيخ الأخضر والأصفر، وكانت الفاكهة متوفرة بمكة طيلة فصل الشتاء. (١)

ومن أنواع الخضر والبقول التي كانت تصدر إلى مكة من وادي مرو ووادي نخلة: القثاء، والخيار، والفجل، والباذنجان، واليقطين، والملوخيا، والبصل والثوم فضلاً عن قصب السكر والرّياحين.(٢)

كما زرعت منطقة مكة نفسها بأنواع قليلة من الحبوب كالبُر والشعير والذرة، وكانت كميات إنتاجها محدودة، حيث لم تكن تكفي لسد احتياجات أهل مكة لأن زراعتها تتوقف على هطول الأمطار التي كانت شحيحة في بعض المواسم. (٣)

أما الزراعة في المدينة المنورة، فيصف ابن حوقل المدينة بقوله: "وهي أقل من نصف مكة وهي سبخة الأرض، وبها نخل كثير ومياه نخيلها وزرعها من الآبار، ويسقون بها العبيد وعليها سور وبقربها مزارع فيها ضياع لأهل المدينة، ...، والعقيق وادٍ من المدينة من أربعة أميال في طريق مكة، وأعذب ماء في الناحية آبار العقيق".(٤)

من هذا النص يتضح وفرة المياه في المدينة مما جعل بها نخيلاً كثيراً وحدائق وبساتين خصبة، استمرت موجودة منذ عصر دولة المماليك وحتى الآن بحيث تنتج ثماراً عالية الجودة.

واشتهرت المدينة بكثرة إنتاجها من التمور، حيث كان أهل المدينة يفاخرون به باقي مناطق الحجاز، وقد وجد فيها ما يزيد على مائة واثنين وسبعين نوعاً من

---

(١) ابن جبير، الرحلة، ص٩٦؛ ابن المجاور، تأريخ المستبصر، ص٩؛ القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٤، ص٢٤٨.

(٢) ابن جبير، الرحلة، ص ص٩٦-٩٧؛ ابن المجاور، تأريخ المستبصر، ص ص٩-١٠؛ القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٤، ص٢٤٨.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٤، ص٢٤٧.

(٤) ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي، صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، مطبعة فؤاد بيبان وشركاه، بيروت، د.ت، ص٢٠ وسيشار إليه لاحقاً: ابن حوقل: صورة الأرض.

التمور التي شكلت المصدر الأول للدخل عندهم، ومنها: الأنواع التي تسمى (الحرة) وتبلغ اثنين وسبعين نوعاً، وهذه يأكل منها أهل المدينة ويهادون. ومنها: الأنواع التي تسمى (لون) وتقارب المائة، وهذه يأكلها عرب الجبال لرخص ثمنها إلى غير ذلك من الأصناف الجيدة. بالإضافة إلى الفواكه والخضروات التي كانوا يبيعون الزائد عن حاجتهم منها للتجار والحجاج، ومن هذه السلع: السمن والألبان التي كانت تأتيهم من مواشيهم. والحبوب كالقمح والشعير والذرة، والبقوليات كالفول والحمص والعدس التي كانت تستوردها المدينة من مصر والشام والهند. أو تأتي بالآف الأرادب على شكل هبات وصدقات لأهل الحرمين من سلاطين الدول والملوك، وكانت الأناضول ومصر والشام أيضاً مصدراً لتجارة المنسوجات مع المدينة. (١)

ويلاحظ أن إمارة المدينة كانت تمتاز بالاكتفاء الذاتي ما عدا فترات القحط والجفاف التي شاركتها بها مكة، حيث كانت مصر واليمن ترسل إليها الإمدادات كي تتجاوز بها تلك الأزمات واقترن إنتاج المناطق الزراعية في إمارة مكة بعوامل بيئية أهمها الأمطار، الأمر الذي حتم عليها أن تمتار من مناطق خارج إقليم الحجاز كاليمن ومصر والشام وغيرها.

ويلاحظ أن المؤرخين والجغرافيين الذين تحدثوا عن تاريخ الحجاز، ركزوا حديثهم عن بعض مدن الحجاز فقط مثل مكة والمدينة وجدة وينبع والطائف، والسبب في ذلك كونها المراكز التجارية والدينية الرئيسية في إقليم الحجاز، ولم يؤرخوا للمدن الحجازية الأخرى لأنها لم تلعب دوراً بارزاً في الجوانب التجارية والدينية والثقافية والإدارية.

---

(١) ابن الفرات، تاريخه، جـ٩ ق٢، ص٣٠١؛ اليافعي، مرآة الجنان، جـ٤، ص٢٠٤؛ القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٤، ص٣٠٢؛ الفاسي، العقد الثمين، جـ١، ص٢١٠؛ المقريزي، السلوك، جـ٣، ص ص٨٦٢، ٨٦٩؛ ابن فهد، غاية المرام، جـ٢، ص ص١١٥-١١٦؛ الجزيري، الدرر الفرائد، جـ١، ص ص٦٤٤-٦٤٧؛ عبد الغني، تاريخ أمراء مكة المكرمة، ص٥٦٢؛ رفعت، مرآة الحرمين، ص ص٣٣٩-٤٤١.

ثانياً:- الحياة الاجتماعية

أ- فئات المجتمع الحجازي

١- فئة الأشراف

تولى الأشراف الهاشميون من بني الحسن أمارة مكة منذ أواخر القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وكانت إمارة مكة آنذاك تحت الحكم العباسي، إلا أن الفاطميين في مصر نافسوا العباسيين على حكم إمارة مكة منذ سنة ٤٥٤هـ/١٠٦٢م. ثم أن محمد بن جعفر أبي هاشم تمكن من ضم المدينة المنورة إليه، وذلك بعد أن أخرج بني الحسين منها (الأسياد). وهو بهذا جمع بين الحرمين في مكة والمدينة، وأصبحت إمارة مكة والحالة هذه تضم مكة والمدينة والمناطق المجاورة إليهما. وبعد سقوط الدولة الفاطمية على يد صلاح الدين الأيوبي وقيام الدولة الأيوبية، أصبحت إمارة مكة تخضع للأيوبيين في مصر والشام. وبعد أن ضم الأيوبيون اليمن إليهم، كانت إمارة مكة في أحيان تخضع لليمن، وأن كان ذلك لفترات قصيرة. وكان أمراء مكة حتى سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م من بني فليتة، ولكن الإمارة انتقلت فيما بعد إلى بني قتادة سنة ٦٠١هـ/١٢٠٤م. ثم أصبحت إمارة مكة منذ سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م تحت الحكم المملوكي، وقد أولى السلاطين المماليك اهتماماً خاصاً بهذه الإمارة والمقدسات الإسلامية في كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة. (١)

وأثر الأشراف في سير الأحداث بمكة، وخاصة الأشراف أبناء وأحفاد الشريف أبي نمي محمد بن حسن بن علي بن قتادة الذي حكم مكة من سنة ٦٥٤-٧٠١هـ/١٢٥٦-١٣٠١م، حيث ترك أكثر من عشرين ابناً وحفيداً تناسلوا وتوارثوا إمارة مكة حتى أصبحت لهم عصبية تحميهم وحكموا أكثر من قرن. (٢)

---

(١) غوانمة، يوسف، الحسين بن علي الملك والثائر، دار الفكر، عمان، ١٩٩٥م، ص ص١٣-١٤ وسيشار إليه لاحقاً: غوانمة، الحسين بن علي.

(٢) ابن بطوطة، الرحلة، ص١٤٢؛ القلقشندي، صبح الأعشى، جـ١٢، ص ص٢٢٨-٢٣٥؛ الفاسي، العقد الثمين، جـ١، ص٤٧٠.

وكان السلطان المملوكي هو الذي يولي الأشراف في مكة والمدينة، حيث كان يبعث المراسيم بتعيين أمير لوحده في الإمارة، أو بالمشاركة مع أمير آخر، حيث كان لكل أمير نائب عنه في مكة. وكان الأميران يقيمان خارج مكة حيث كانت لهم بظاهر مكة أما كثير للنزول تسمى مربعة الأمير في عهد الأمير هاشم ، وضربت في الأمير عيسى بن قُليته حتى عهد فتادة بن مظاعم وذلك لكثرة عبيدهم ومواليهم لخوفهم من أن يقوموا بعمليات الفوضى والشغب خلال موسم الحج والعمرة. (١)

كما كان أشراف المدينة من بني الحسين بن علي بن أبي طالب ويسمون (بالأسياد)، وهم الفرع الثاني من الأشراف الهاشميين الذين حكموا المدينة، حيث كان لأميري مكة والمدينة واجبات ووظائف يجب عليهم أن يقوموا بها. (٢)

وكان الأشراف يتحكمون بالتجارة في بلاد الحجاز، حيث كانوا يأخذون المكوس من المراكب التجارية التي ترسو بموانئ الحجاز حيث كانت تشكل أحد موارد الدخل عندهم، الأمر الذي أدى إلى ثرائهم ثراءً فاحشاً فمالوا إلى الترف والبذخ. (٣)

وكان الأشراف يتمتعون بالاحترام في كافة أقطار العالم الإسلامي عبر عصور التاريخ، لكونهم من سلالة رسولنا محمد ﷺ وأحفاده وعترته، فأضفى ذلك عليهم الهيبة والاحترام ليس عند أهل الحجاز فحسب وإنما عند جميع المسلمين. (٤)

ولعب الأشراف دوراً كبيراً في الصراع الذي قام بين الدولة الرسولية في اليمن، ودولة المماليك في السيطرة على الحجاز ومقدساته، حيث كانوا يلجأون إلى القوي منهم في حالة ضعف الطرف الآخر. ومالوا أخيراً إلى جانب دولة المماليك لضعف الدولة الرسولية. وحدثت في كثير من الأحيان صراعات داخلية بين الأشراف في الحجاز على تولي منصب الإمارة في مكة والمدينة، حيث قتل فيها الكثير منهم. وحدثت معارك بينهم أدت إلى التأثير على الجانب الاقتصادي في

---

(١) ابن المجاور تاريخ المستبصر ، ص ٤٩ الفاسي، العقد الثمين، جـ٦، ص ص٩٦-٩٧؛ شفاء الغرام، جـ٢، ص٢٤٣.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى؛ جـ١٢، ص ص٢٣٧-٢٥١.

(٣) ابن بطوطة، الرحلة، ص١٤٢؛ ولمزيد من المعلومات: انظر ما سبق عن موارد الدخل في الحجاز.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ١٢، ص٢٣٠، ٢٣٢.

الحجاز، وعطلت المواسم التجارية فيه. الأمر الذي جعل كثيرا من سلاطين المماليك يقومون باتخاذ الإجراءات الحاسمة لفك النزاعات هذه، أما بتعيين المتنازعين في الإمارة، أو إرسال جيش لتأديب المعتدي على الشريف الحاكم. وفي عصر المماليك الجراكسة كان يعين في منصب الإمارة الشريف الذي يدفع أكثر إلى السلطان في مصر، وفي حالة تعادل قوة أميرين من الأشراف تعطى الإمارة لمن غلب بمرسوم شريف من القاهرة. (١)

٢- العلماء والفقهاء (المعممون)

كان في الحجاز في عصر سلاطين المماليك عدد من الموظفين لوظائفهم صبغة دينية، اقتضتها طبيعة المكان، ففيها توجد الأماكن المقدسة التي يؤمها المسلمون من كافة أنحاء العالم الإسلامي. ولا بد من وجود من يقوم بخدمة الزائرين وتوجيههم أثناء أدائهم للحج والعمرة. وكان التعيين في هذه الوظائف يكون من قبل السلطان حيث يبعث مرسوم التولية وخلعه لصاحبها، فيقرأ المرسوم في المسجد الحرام أو المسجد النبوي أمام أعيان الحرمين وعلمائها وفقهائها وبحضور الأشراف في مكة والمدينة. وكان يتولى هذه الوظائف كبار علماء وفقهاء الحجاز، ومن أهم هذه الوظائف: ناظر الحرم الشريف، القضاء، مشيخة الحرم الشريف، الخطابة، المدرسون، المؤذنون، الخدام (البوابون، الفراشون، الكناسون)، المحتسب، ناظر الأربطة، ناظر الصدقات، شيخ السدنة. (٢)

وكان منصب القضاء من أجل المناصب الدينية، حيث تولاها علماء مشهود لهم بالعلم في كافة العلوم الشرعية والفقهية، وتعد وظيفة القضاء الوظيفة الثانية بعد ولاية مكة والمدينة، حيث اشترط في قاضي مكة أو المدينة المنورة أن يكون من كبار العلماء والفقهاء. وقد امتاز القضاة في هذه الفترة بميزات وشروط، ومن هذه الميزات تمتعهم بنفوذ قوي داخل الإمارة، ونفوذ خارجي عند سلاطين الدول

---

(١) الزيلعي، أحمد بن عمر، نظام المشاركة في الحكم لدى أشراف مكة (٦٤٧-٩٢٣هـ/١٢٤٩-١٥١٧م)، مجلة الدارة، س١٤، السعودية، الرياض، ١٩٨٩م، ص ص٦١-٨٨ وسيشار إليه لاحقا: الزيلعي، نظام المشاركة؛ ولمزيد من المعلومات انظر: الفصل الثالث: دور الأشراف في الصراع.

(٢) لمزيد من المعلومات: انظر الفصل الرابع: الوظائف الدينية.

الإسلامية مثل سلاطين الدولتين الدولة الرسولية ودولة المماليك، ومن هؤلاء القضاة: القاضي محي الدين الطبري الذي نال احترام سلطان مصر الناصر محمد بن قلاوون. (١)

أما أشهر قضاة المدينة المنوّرة فهو القاضي سراج الدين عمر المصري الذي بقي أربعين سنة في وظيفته، حيث تحمل الكثير من أذى الشيعة في سبيل إقامة المذهب السني. (٢)

هذا بالإضافة إلى الخدام بالحرمين، حيث بينت المراسيم السلطانية بأن لهم وظائف وواجبات منوطة بهم، وأهم طوائف الخدام هي: الكناسون، الفراشون، السقاؤون، البوابون، منظفوا القناديل، والصائغون، والخياطون. وكان القضاة والفقهاء يتولون وظيفة البوابين في الحرمين الشريفين إلى أن صدر مرسوم السلطان في سنة ٨٣٠هـ/١٤٢٦م تقرر فيه عزلهم عن وظائفهم كبوابين وتعيين بوابين ليس لهم حرفة ولا صناعة ولا شغل، فقراء مساكين، وقرر لكل بواب عشرة دنانير أشرفية. (٣)

كما تولى الفقهاء والعلماء وظيفة التدريس في الحرمين الشريفين، وفي الزوايا والأربطة والمدارس، وكانت مواسم الحج والعمرة ملتقيات ثقافية كبيرة تعج بعشرات العلماء والفقهاء القادمين من مختلف بقاع العالم الإسلامي، حيث كانوا يدرسون ويفتون ويلقون على الناس الموعظة الحسنة والكلام الطيب من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة. (٤)

---

(١) ابن بطوطة، الرحلة، ص١٤٥؛ القلقشندي، صبح الأعشى، جـ١٢، ص٢٤٠.

(٢) ابن بطوطة، الرحلة، ص١١٥؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٣، ص٢٤؛ السخاوي، التحفة اللطيفة، جـ٢، ص ص٣٩-٤٠، ١٥٠.

(٣) ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص ص٦٤٥-٦٤٦، الجزيري، الدرر الفرائد، جـ١، ص ص٧١٥-٧١٦؛ السباعي، تأريخ مكة، ص ص٣٠١-٣٠٢؛ ولمزيد من المعلومات: انظر: الفصل الرابع: وظيفة خدام الحرمين.

(٤) لمزيد من المعلومات انظر: الفصل الرابع: الوظائف الدينية: وظيفة التداريس.

٣- فئة العامة

تكونت فئة العامة في الحجاز من التجار وهم سكان المدن، والفلاحين وهم سكان القرى، والبدو وهم سكان البادية والمناطق الجبلية.

أ. *التجار:* تركزوا في المدن الرئيسية في الحجاز مثل مكة والمدينة، وجدة، والطائف، وفي الموانئ الحجازية مثل ميناء ينبع، وميناء جدة، وميناء السرين، وقد لعب هؤلاء التجار دوراً كبيراً في الحياة الاقتصادية في الحجاز، حيث جلبوا السلع التجارية من مختلف أقطار العالم، وقد مارس تجار الحجاز نوعين من التجارة وهي: أولاً: تجارة داخلية بين مدن الحجاز المختلفة كالمدينة المنورة، ومكة المكرمة، وينبع، والطائف، وجدة حيث كانت مكة تستورد من كافة مدن الحجاز ما تحتاجه لسد حاجتها في مواسم الحج والعمرة لقلة الزراعة فيها. وثانياً: تجارة خارجية مع البلدان المجاورة لها كاليمن ومصر وبلاد الشام وذلك طوال أيام السنة، ومع البلدان البعيدة كالهند وبلاد التكرور وغيرها في مواسم الحج والعمرة حيث يأتي التجار مع الحجاج للحج والتجارة معاً. وقد عقدت في منطقة المسعى في المسجد الحرام أكبر سوق تجاري دولي آنذاك تبادل فيه الحجاج والتجار السلع التجارية المتنوعة حيث يؤمهُ الحجَاج لشراء ما يحتاجونه من مختلف بقاع العالم الإسلامي. (١)

ب- *الفلاحون:* وكانت مهنتهم الرئيسية هي الزراعة، وكانوا يزرعون المناطق الخصبة من الحجاز مثل الطائف، والمدينة، ووادي مرّ، ووادي نخلة، حيث زرعت تلك الأراضي بمختلف أنواع الفواكه كالعنب، والتين، والسفرجل، والخوخ، والتفاح، والحبوب مثل القمح، والشعير، والعدس والفول وغيرها. أما المناطق المحيطة بمكة فقد زرعت فيها الحبوب التي تتطلب زراعتها أمطاراً قليلة كالقمح

---

(١) المقريزي، السلوك، جـ١، ص٩١٧؛ الجزيري، الدرر الفرائد، جـ١، ص٢٨٩، ٣٤٤؛ حمد، بلاد ينبع، ص١٢، ولمزيد من المعلومات: انظر ما سبق عن المواسم التجارية (السرين: بليد قريب من مكة على ساحل البحر، بينها وبين مكة أربعة أو خمسة أيام قرب جدة (الحموي، معجم البلدان، مجـ٣، ص٢١٩)، (بلاد التكرور: بلاد تنسب إلى قبيل من السودان في أقصى جنوب المغرب وأهلها أشبهُ الناس بالزنوج وبلادها كما جاء في القلقشندي هي مالي المعروفة عند العامة ببلاد التكرور .(القلقشندي،صبح الاعشى،ج٥،ص٢٨٢ ؛ الحموي، معجم البلدان، مجـ٢، ص٣٨).

والشعير، وكان هناك نوعان من الزراعة: زراعة على مياه المطر مثل الفواكه، والخضروات، والبقوليات، وزراعة على مياه العيسون مثل البطيخ الأخضر والأصفر، القثاء، والباذنجان، والدباء، والملوخيا، والهندبا، والفجل، والكراث، والبصل، والثوم. كما اعتنى الفلاحون بتربية المواشي التي تفيدهم في حراثة أراضيهم وحمل الماء لسقاية محاصيلهم الزراعية والماء اللازم للطهي والشرب المستخدم في البيوت، ومن هذه المواشي: الإبل والبقر والخيل، كما اعتنوا بالمواشي اللازمة لتزويدهم باللحوم من أجل إطعامهم مثل الضأن والماعز وغيرها. (١)

جـ- *البدو:* وهم الأعراب القاطنون في البادية ويتبعون لمنطقة الحجاز، وكانوا يقومون بكري الجمال في مواسم الحج، وبيع اللبن للحجاج، وبيع الخيول والأصواف والجلود لأهل مكة والمدينة، وأشهر هذه القبائل: قبيلة بجيلة، وقبيلة غامد، وقبيلة زهران، وهي من القبائل الموالية لأمير مكة، حيث كانوا يقدمون إلى مكة في مواسم العمرة والحج في جموع غفيرة قد تصل إلى بضعة آلاف شخص للحج والتجارة. فقد أشار المؤرخ تقي الدين الفاسي إلى أن قبيلة بجيلة السروية، ما زالت تلعب دوراً رئيسياً في تموين مكة في عهده، فقد وصلوا إلى مكة في شهر ذي الحجة من سنة ٨١٥هـ/١٤١٢م. حيث كانت تحمل سائر ضروب الأطعمة من الحنطة والشعير والسويق والسمن والعسل والذرة والدخن واللوز والزبيب. كما وجد في بادية الحجاز مجموعة من القبائل البدوية التي كانت تقوم بحراسة قوافل الحجاج حتى تصل إلى مكة، وهي التي تسمى الخفارة حيث كان أمير مكة يدفع لهم أجراً بدل حمايتهم لقوافل الحج عند استقباله لمحمل الحج، وفي أحيان عندما لا يدفع لهم أمير مكة يقومون بمهاجمة الحجاج حيث يستولون على أموالهم ومتاعهم، ومن ذلك ما حدث في سنة ٧٩٢هـ/١٣٨٩م حيث هاجمت العربان طائفة منفردة من الحجاج العائدين كانت تسير بين الركبين الأول والثاني، ونهبوهم وقتلوا منهم جماعة، ولم تصل إليهم النجدة إلا بعد فوات الأوان. (٢)

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٤، ص ص٢٥٣-٢٥٤.

(٢)ابن الفرات، تاريخه، جـ٩ ق١، ص٢٣٨؛ وانظر:الفاسي، شفاء الغرام، جـ٢، ص٢٧٥؛ ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص٢٢٥؛ البلادي، معجم معالم الحجاز، جـ٤، ص ص١٨٥-١٨٦. (السرويين: وهي-

ويبدو أن أمراء المماليك كانوا يشعرون بمدى الفاقة التي كان يعاني منها الفقراء من العامة في مكة، فكانوا يرسلون لهم في مواسم الحج أنواعاً مختلفة من الطعام يوزعونها عليهم، ففي أثناء حج الأمير بكتمر الجوكندار المملوكي المصري حمل معه كميات كبيرة من الطعام، وزعها على الفقراء، واشتملت على الغلال، والدقيق، والعسل، والسكر، والزيت، والحلوى، وتم توزيعها في مدينتي جدة ومكة.(١)

٤- فئة العبيد

عرف الرق عند جميع الديانات السابقة على الإسلام كاليهودية والمسيحية، وعرفه عرب الجاهلية على اختلاف دياناتهم، وكانوا يقومون بجز نواصي عبيدهم للتعرف عليهم ودلالة على استرقاقهم، وقد كانت تجارة الرقيق سائدة عندهم كباقي التجارات الأخرى، وقد عرف تجار الرقيق باسم النخاسين حيث جمعوا مبالغ طائلة، وكان أبرزهم في الجاهلية عبد الله بن جدعان. (٢)

ظهر الإسلام وأخرج الناس من ظلمات الباطل إلى نور الحق، وأصلح ما أفسدته الأمم بإبطاله نظام الرقيق الظالم وارهاصاته على المجتمع، ووضع الأحكام لإبطال الرق بالتدريج السريع، إذ كان إبطاله دفعة واحدة متعذراً في نظام الاجتماع البشري من الناحيتين: ناحية مصالح السادة المسترقين، وناحية معيشة الأرقاء المستعبدين(٣). ولقد دعا الإسلام إلى الرفق بالمستضعفين عموماً، ومن جملتهم الرقيق حيث يقول تعالى: **﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً**

-من قبائل السرو التي هي قربة كبيرة مما يلي مكة وأهلها يحضرون الميرة إلى مكة، وهم أشبه بالعبيد (ياقوت، معجم البلدان، مجـ٣، ص٢١٧).

(١) لمزيد من المعلومات: انظر ما سبق عن موارد الدخل، صدقات السلاطين والخلفاء والملوك والمحسنين من أمراء وكبار رجال الدول.

(٢) الأبيض، أنيس، بحوث في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، جرس برس، طرابلس، لبنان، ١٩٩٤م، ص ص٨٧-٨٨ وسيشار إليه لاحقاً: الأبيض، بحوث في التاريخ.

(٣)الأبيض، بحوث في التاريخ، ص٨٩.

وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار بالجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم، إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً﴾.(١) وحض النبي ﷺ على التجاوز عن خطأ العبد والرفق به ونهى عن ضربه إلا في معصية الله، وفي ذلك يقول: "من لطم مملوكة أو ضربة فكفارته أن يعتقه".(٢) ودعا الإسلام إلى عتق العبيد المسترقين تطوعاً او كفارة للذنوب حيث قال تعالى: ﴿فلا اقتحم العقبة، وما أدراك ما العقبة فكُّ رقبة﴾.(٣) ودعا الرسول إلى عتق العبيد في قوله ﷺ: "من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل منه عضواً من النار حتى يعتق بفرجه"(٤)، وكانت عملية العتق تجري بأن يصارح السيد المعتوق من قبله بلفظ دال على حريته، حيث يتم الاتفاق على ماهيته وتوثيقه، أو أن يعلن السيد أمام شهود بأنه حرر عبده ويكون ذلك بكلمات صريحة، كأن يقول له: أوهبت لك حريتك، أو أن يوهبه عقد بيعه الذي أخذه من المالك السابق للعبد.(٥)

وكان العبيد يجلبون إلى مصر، ومن ثم يصلون إلى الحجاز عن طريق التجار حيث كانوا من جنسيات مختلفة كالأتراك، والروم، والشركس، والأحباش، والتكاررة. وقد وجدت هذه الطبقة في بلاد الحجاز، وكانت تضم أتباع الأمير وأعوانه وخواصه حيث كان لهم مهمات محدودة وهي: العمل على حراسة قصور الأشراف، والحفاظ على الأمن الشخصي للأمراء من الاغتيالات بسبب كثرة النزاعات الداخلية على منصب الإمارة في مكة والمدينة، أو الانتظام في صفوف

---

(١) سورة النساء، الآية ٣٦.

(٢) رواه مسلم (الإيمان) ، باب: صحبة المماليك وكفارة من لطم عبده، رقم (٤٣١١) النيسابوري، الإمام الحافظ أبي الحسين مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم رقمه وكتب أبوابه هيثم ومحمد ابنساء نزار تميم ، شركة دار الأرقم ابن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، بيروت، ط١، ١٩٩٩م، ص ٨٠٧وسيشار إليه لاحقاً: النيسابوري، صحيح مسلم.

(٣) سورة البلد، الآيات، رقم (١١-١٣).

(٤) رواه البخاري(٥١٩/١١) في الإيمان والنذور باب تحرير رقبة في العتق ومسلم رقم (٢٣) و (١٥٩) في العتق : باب فضل العتق(البغوي، الحسين بن مسعود ، شرح السنة، جـ١-٥ تح: شعيب الأرناؤوط، المكتب الإسلامي ، بيروت ، طـ٢ ، ١٩٨٣، جـ٩، ص ص ٣٥١-٣٥٢، وسيشار إليه لاحقاً : البغوي، شرح السنة .

(٥) الأبيض، بحوث في التاريخ، ص ٩٨.

الجندية في جيش الأمير في حالة حدوث فتنة أو اقتتال ما بين أمراء الحجاز، والقيام بالواجبات المنزلية كالطهي وإحضار الماء من العيون والآبار، وتنظيف المنازل وهذا أمر كان يقوم به الإماء والجواري. ومما يدلل على وجود العبيد في الحجاز كمقيمين أو قادمين مع أسيادهم في المواسم ورود نص عند المؤرخ ابن فهد يؤكد ذلك حيث يقول: "وحج ركب التكرور، ومعهم ألف وسبعمائة رأس من العبيد والإماء".(١)

وقد لعب العبيد دوراً سلبياً في الحجاز، وذلك لكثرة الفتن وحوادث الفوضى والشغب التي أثاروها في عصر دولة المماليك، ومن ذلك الفتنة التي حدثت بين أمير الركب المصري سيف الدين نوغاي القبجاقي والعبيد الذين في مكة، ونتج عن هذه الفتنة قتل جماعة من السرويين لأن أمير الحج ظنّ أنهم من العبيد، ونهب بضائع بعض التجار، وفقدان الأمن في مكة طيلة وقوع الفتنة في ذلك اليوم إلى أن هدأت على يد أمير الحج المصري وذلك في سنة ٧١٨هـ/ ١٣١٨م. (٢)

ب- العادات والتقاليد

تفرد ابن بطوطة في ذكر العادات والتقاليد المتبعة في الحجاز، رغم أنه أقام شهوراً فقط، حيث يعتبر ما شاهده نموذجاً لما يحدث في كل عام من عادات وتقاليد، حيث كانت مظهراً من مظاهر الترف الاجتماعي الديني المتبع في المجتمع الحجازي، وقد أهملت المصادر التاريخية والجغرافية ذكر ذلك، ورغم كثرة البحث حول هذا الموضوع فإنها لم تجن ثمارها، وقد احتفل الحجازيون بالعديد من المناسبات الدينية، وأهم تلك الاحتفالات:-

---

(١)ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص٥٣٥؛ وانظر: المقريزي، السلوك، جـ٤، ص٣٦٨؛ ابن حجر، أنباء الغمر، جـ٣، ص٩٩؛ الجزيري، الدرر الفرائد، جـ١، ص٣٢٠؛ التكرور، سبق تعريفه بها ص ١١١ هامش ١.

(٢) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، جـ١، ص٣٦٨؛ الفاسي، شفاء الغرام، جـ٢، ص٢٤٣؛ المقريزي، السلوك، جـ٢، ص٤٤٢؛ ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص١٥٩.

١- الاحتفال بحلول عيد الفطر

يقوم الحجازيون بإيقاد المشاعل والمصابيح والشموع في بيوتهم، كما يوقدون سطح الحرم والمسجد، ويقضي المؤذنون الليل في تهليل وتكبير وتسبيح، والناس ما بين طواف وصلاة وذكر ودعاء، ثم يصلون الصبح ويلبسون أحسن ثيابهم، ثم يبادرون إلى الحرم الشريف لأداء صلاة العيد. وبعد انقضائها وسماعهم للخطبة، يقبلون على بعضهم البعض بالمصافحة والاستغفار وزيارة الكعبة ومقبرة باب المعلى تبركاً بمن فيها من الصحابة والتابعين ثم ينصرفون إلى بيوتهم. (١)

٢- الاحتفال بحلول شهر رمضان

وتبدأ مراسيمه بضرب الطبول عندما يهل هلال رمضان عند قصر أمير مكة، ويجري الاحتفال داخل المسجد الحرام بتجديد حصره في ذلك اليوم، ومن ثم تضاء المشاعل والشموع فيه فيشع الحرم بالأنوار التي تضيئه من كل الجوانب. ويتوزع الأئمة من كافة المذاهب الدينية في زوايا الحرم، حيث يأخذ كل إمام زاوية تخص مذهبه وجماعته ما عدا أصحاب المذهب المالكي الذين يتواجدون للعبادة في كافة أنحاء المسجد فلا يتركون زاوية إلا ولهم فيها قارئ. ويبقى الناس يصلون ويطوفون في الحرم وحول الكعبة حتى ساعات الصباح الأولى. (٢)

٣- الاحتفال باستهلال الشهور الهجرية

ويبدأ برنامج الاحتفال به بقدوم أمير مكة مع قواده وحاشيته، ويطوفون حول الكعبة سبعة أشواط متتالية، وبعد الفراغ منها يتلقى الأمير التهاني من الأشراف والفقهاء والعلماء وعامة الناس بدخول الشهر. وأثناء ذلك يقوم رئيس المؤذنين بالدعاء له على أعلى قبة زمزم، ثم يصلي الأمير ركعتين عند الملتزم، وركعتين عند المقام ثم ينصرف، ويقوم بذلك شكراً لله إذا سافر أو عاد من سفره. (٣)

---

(١) ابن بطوطة، الرحلة، ص ص١٦٣-١٦٤.

(٢) ابن بطوطة، الرحلة، ص ص١٦١-١٦٢.

(٣) ابن بطوطة، الرحلة، ص١٥٧.

٤- **الاحتفال بعمرة رجب:**

كما احتفلوا بعمرة رجب احتفالاً مهيباً، من حيث العمرة والعبادة ويكون ذلك طيلة شهر رجب فتزدحم شوارع مكة بالهوادج. وكان هؤلاء يحملون الشموع والمشاعل إلى ميقات التنعيم مهللين خاشعين، فإذا أكملوا العمرة وطافوا حول الكعبة وسعوا بين الصفا والمروة، يكونوا قد أدوا مناسك العمرة. وكان بعضهم يعتمر أكثر من مرة طيلة شهر رجب، وأحياناً كان المسلمون يأتون إلى مكة في هذا الشهر لأداء مناسك العمرة، ويقيمون في مكة حتى موسم الحج. وكان المسجد الحرام طيلة هذا الشهر مضاءاً من الداخل والخارج، كأنه النجم اللامع في الليل الحالك. (١)

٥- **الاحتفال بليلة أول شهر رجب ونصفه والسابع والعشرين منه:**

تبدأ الاحتفالات بضرب الطبول، ومن مراسيمه أن يلعب الناس بالأسلحة، ويركب فيها أهل مكة إلى ميقات التنعيم بالهوادج والمشاعل مشتعلة على جانبي الطريق ثم يخرجون للعمرة التي يسمونها بعمرة الأكمه(٢)، فإذا قضوا العمرة، وطافوا بالبيت الحرام خرجوا إلى السعي بين الصفا والمروة بعد دخول الليل. (٣)

٦- **الاحتفال بليلة النصف من شعبان:-**

يكثر أهل مكة في تلك الليلة من أعمال البر والتقوى، ويشعلون المصابيح والسرج والمشاعل حيث يصلّون مئة ركعة يقرأون في كل ركعة بسورتي البقرة والإخلاص مكررينها عشر مرات، ولكل جماعة طريقة خاصة بهم للاحتفال بها. (٤)

٧- **الاحتفال بقدوم محمل الكسوة:**

ومن عادة أهل مكة استعدادهم لاستقبال محمل كسوة الكعبة المشرفة، وقد ذكر القلقشندي أن المحمل يجهز كل عام من الديار المصرية ويطوفون فيه في كافة

---

(١) ابن بطوطة، الرحلة، ص ص١٥٧-١٥٨.

(٢) عمرة الأكمه: الأصل في هذه العمرة أن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه، لما فرغ من بناء الكعبة، خرج ماشياً حافياً معتمراً ومعه أهل مكة، وذلك في السابع والعشرين من رجب، وانتهى إلى الأكمه التي أمام مسجد عائشة فاحرم منها، ولذلك تسمى بعمرة الأكمة، وكان ذلك سنة ٦٤هـ/٦٨٣م (ابن بطوطة، الرحلة، ص١٥٩).

(٣) ابن بطوطة، الرحلة، ص١٥٧.

(٤) ابن بطوطة، الرحلة، ص١٦١.

أنحاء القاهرة قبل سفره إلى الحجاز لكسوة الكعبة المشرفة وعندما يصل الحمل إلى ظاهر مكة يخرج أمير مكة وحاشيته لملاقاته. ثم تؤخذ الكسوة وتوضع على سطح البيت الحرام إلى اليوم الثالث من عيد الأضحى حيث يأخذ آل شيبة في إسبالها على الكعبة.(١)

والكسوة عبارة عن قماش أسود من الحرير المبطن بالكتان، وفي أعلاها طراز مكتوب فيه بالبياض "جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما".(٢)

٨- عادات الزواج في الحجاز:

إذا أراد الرجل من أهل مكة أن يتزوج وقطع المهر وأراد الدخول على المرأة يخضب الرجال أيديهم وأرجلهم لغاية التزين، ويحضر كل أصدقائه من الأهل والأقارب لتقديم النقوط بحيث يكون بيد كل واحد قرطاس مصرور مكتوب عليه الإسم ووزن المبلغ وعدده، بحيث يضعونه أمام العريس كل حسب حالته المادية، وكذلك يفعل النساء بتقديم النقوط للعروس بالصورة نفسها، ويخرج العريس إلى الحرم ويطوف سبع مرات ويصلي في مقام ابراهيم ركعتين، ويقبل الحجر الأسود، ويخرج بالشمع إلى بيت العروس، فتقوم النساء بجلوة العروس، ويدخل عليها ويبقى عندها سبع أيام دون أن يخرج.(٣)

جـ- الملابس والأطعمة والأشربة:

أما الملابس، فنتيجة للتقارب والاتصال الدائم بين مصر والحجاز في عصر دولة المماليك: فقد عرفت مكة في تلك الفترة ثيابا جديدة من الحرير والكتان وأنواعا براقة تتلألأ وتتغير ألوانها إذا انعكست عليها أشعة الشمس، وكانت هذه الثياب ترد إليها في تجارتها مع مصر.(٤)

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ ٤، ص ٢٨١.

(٢) ابن بطوطة، الرحلة، ص١٦٦.

(٣) ابن المجاور، تاريخ المستبصر، ص ص ٦-٧.

(٤) متز، آدم، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة: محمد أبو ريده، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط٢، ١٩٤٧م، جـ٢، ص٢٥٨ وسيشار إليه لاحقا: متز، الحضارة الإسلامية.

وعرفت بلاد الحجاز العمائم المزركشة، وعرفت لبس الجبة بما يشبه شكلها في الوقت الحاضر، وقد وصف ابن بطوطة إمام المالكية بالحرم الشريف بأنه كان يلبس جبة بيضاء قصيرة من ثياب القطن تسمى بالقفطان. (١)

وكان المماليك يهدون إلى أشراف مكة أنواعاً من الثياب الموشاة بخيوط الذهب والفضة في مواسم الحج ومناسبات الأعياد. وقد بدأت هذه الأثواب تنتشر بين الأثرياء في مكة مما أدى إلى تأثيرها في أزياء الأهالي. (٢)

ولم تسعفنا المصادر المتاحة بما يدل على وجود مصانع للنسيج في الحجاز في هذه الفترة، بل كانت تستورد الثياب البيض من الإسكندرية في مصر. (٣)

وشاع في الحجاز لبس الثياب البيض، وصنعت غالباً من الكتان والقطن، وكانت فئات السكان المختلفة تلبس تلك الثياب البيضاء، وقد وصف ابن بطوطة ذلك بقوله: "أهل مكة لهم نظافة في الملابس، وأكثر لباسهم البياض فترى ثيابهم أبداً ناصعة ساطعة".(٤)

وكانت المرأة الحجازية تلبس ملاءة فضفاضة وقميصاً مشقوقاً عند الرقبة عليه رداء قصير ضيق يلبس عادة في البرد، وأما سيدات المجتمع من طبقة الأمراء والأثرياء فقد غالين في التزين وارتداء أنواع الثياب المختلفة من الحرير. (٥)

وأما الأطعمة والأشربة، فقد كانت وجباتهم لا تعتمد على كثير من أصناف الطعام، واشتهرت بعض الأطعمة عند أهل الحجاز مثل الهريسة والثريد والفالوذج.(٦)

---

(١) السباعي، تأريخ مكة، ص٢١٧.

(٢) ابن بطوطة، الرحلة، ص١٦٩.

(٣) متز، الحضارة الإسلامية، جـ٢، ص٢٥٨.

(٤) ابن بطوطة، الرحلة، ص١٤٣.

(٥) ابن جبير، الرحلة، ص١٠٧.

(٦) حسين، الحجاز واليمن، ص٢٤٤، (الفالوذج: وهو نوع من الحلويات يصنع من لبّ الحنطة، ويؤكل في منطقة الحجاز، نقل صنعه إليها من مصر واشتهرت به في مواسم الحج والعمرة حيث يمد على الموائد والأسمطة (الجواليقي، موهوب بن أحمد، المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم، تح: ف. عبد الرحيم، دار العلم للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ١٩٩٠م، ص٤٨٠ وسيشار إليه لاحقاً: الجواليقي، المعرب).

وكان أهل الحجاز يصنعون من الحلوى أنواعاً غريبة من العسل والسكر المعقود على صفات شتى على هيئة الإنسان والفواكه والطيور، وتعرض في الأسواق بين الصفا والمروة للمشترين في الأشهر الثلاثة رجب وشعبان ورمضان.(١)

ومن أنواع الطعام في الحجاز أيضاً: اللبن، والجبن، والعسل، والرطب الذي يوجد منه أنواع مختلفة. (٢)

وتوفرت في مكة اللحوم الطيبة التي كانت توزع على الحجاج من قبل أهل الخير والإحسان مجاناً في مواسم الحج والعمرة، كما يتناول أهل الحجاز التمر في سائر النهار، مما جعل أبدانهم سليمة قوية خالية من الأمراض والعاهات. (٣)

وأما الأشربة، فقد كان أهل الحجاز يشربون الماء من العيون والآبار، ولم تشر المصادر التاريخية إلى أنواع الأشربة عندهم. (٤)

---

(١) ابن جبير، الرحلة، ص٩٨.

(٢) ابن جبير، الرحلة، ص٩٩.

(٣) ابن بطوطة، الرحلة، ص١٤٥.

(٤) حمزة، قلب الجزيرة العربية، ص ص١٢٠-١٢١.

الفصل السادس

الحركة العلمية والثقافية في الحجاز

١- نشاط الحركة العلمية في بلاد الحجاز في عصر الرسوليين والمماليك.

٢- المؤسسات العلمية:

أ- المدارس. ب- الأربطة.

٣- ازدهار العلوم اللغوية والدينية:-

أ- في مجال الحديث. ب- في علم القراءات.

جـ- في مجال الفقه. د- في التصوف.

هـ- في القضاء.

٤- الحركة الأدبية.

٥- العلوم العقلية.

أولاً: نشاط الحركة العلمية في الحجاز في عصر الرسوليين والمماليك

زاد نشاط الحركة العلمية في الحجاز في عصر سلاطين الرسوليين والمماليك، حيث كان سلاطين الدولة الرسولية من كبار العلماء، وشجعوا العلماء والأدباء والشعراء منهم: الملك المنصور عمر بن رسول (٦٢٦-٦٤٧هـ/١٢٢٨-١٢٤٩م) الذي عمر مدرسة في مكة سميت باسمه وأوقفها على علماء وطلبة المذهب الشافعي، وتبعه في بناء المدارس خلفاؤه من بعده وأوقفوها على العلماء والأدباء مثل المدرسة المجاهدية، والمدرسة الأفضلية، وعينوا فيها المدرسين من خيرة علماء وأدباء الحجاز. كما أن الملك المظفر شمس الدين يوسف بن عمر (٦٤٧-٦٩٤هـ/١٢٤٩-١٢٩٤م) كان من العلماء الذين برزوا في الحجاز، حيث سمع الحديث بمكة المكرمة، وأجاز له جماعة من شيوخها، وخرج لنفسه أربعين حديثاً، وكان له اطلاعات علمية على علوم الهيئة والهندسة والمنطق، وكان يحب العلماء والأدباء ويكرمهم، لذلك أنشأ المدرسة المظفرية وأوقف عليها الأوقاف الكثيرة، وقرر دروساً في الحرمين. كما ألف الملك الأشرف عمر بن يوسف الرسولي (٦٩٤-٦٩٦هـ/١٢٩٤-١٢٩٦م) كتاباً سماه طرفة الأصحاب في معرفة الأصحاب، وهو كتاب مطبوع، وله مؤلفات علمية متعلقة بالعلوم الأخرى. أما الملك الأشرف إسماعيل بن العباس الرسولي (٧٧٨-٨٠٣هـ/١٣٧٦-١٤٠٠م) فقد صنف كتاباً سماه العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات العلماء والملوك، وهو كتاب مطبوع، وهذه المشاركات العلمية لسلاطين الدولة الرسولية تدل على الثقافة العالية وسعة الاطلاع لديهم وتشجيعهم للعلم والعلماء.[(١)]

وكان لبعض سلاطين دولة المماليك اهتمامات علمية كبيرة من أمثال السلطان الأشرف شعبان (٧٦٤-٧٧٨هـ/١٣٦٢-١٣٧٦م) الذي قرر دروساً في المذاهب الفقهية الأربعة، ودرساً في الحديث، وقراءً ومؤذنين، وغيرهم وبنى مكتباً للأيتام، وأعاد ترميم البيمارستان المستنصري بمكة في سنة ٧٧٠هـ/١٣٦٨م.[(٢)] هذا

---

(١) وقد سبق للباحث أن استخدم كتاب طرفة الأصحاب وموجودة نسخة منه في مكتبة جامعة اليرموك، وكتاب الأشرف الغساني الرسولي: العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك.

(٢) السخاوي، الضوء اللامع، جـ١، ص ص٣٠٨-٣١٦.

بالإضافة إلى تقريره دروساً في المسجد النبوي في المدينة المنورة يدرس فيها الفقه والحديث، مما يدلل على اهتمام السلطان الأشرف بالعلم والعلماء وتنشيطه للحركة العلمية في الحجاز في عصره. (١)

وكانت مجالس بعض الأشراف في هذه الفترة تعتبر ندوات لكبار الأدباء والعلماء يتجلى فيها روح البحث والمناقشة والحوار، من ذلك مجالس الشريف حسن بن عجلان وابنه الشريف بركات وحفيده الشريف محمد، وكان هؤلاء من أمراء مكة الذين لهم اهتمامات علمية كبيرة في عصر دولة المماليك، وامتازوا بكفاءة علمية عالية، وأكرموا الأدباء في بلاطهم(٢)، أمثال الأديب الشاعر أحمد بن علي الفاسي المكي الذي برع في الفقه والأصول والعربية والمعاني والبيان والأدب وغيرها من فنون العلم، وله نظم كثير ونثر، وكان من الشعراء الذين مدحوا الشريف حسن بن عجلان، ورزق منه قبولاً وصاهره على ابنته أم هانئ، فمن مدائحه فيه(٣): - (البحر الوافر)

عدلتُ فما يورى الهلال المشارقُ   لتنظره بالمغربين الخلائقُ
فما رامحُ إلاّ بخوفك أعزلُ   ولا صامتُ إلا بفضلك ناطقُ

وغيره من الشعراء أمثال الشاعر أحمد بن غنائم المكي الملقب بالشهاب. (٤)

أما الحركة العلمية في المسجد النبوي فنذكر بشكل خاص تلك الحلقات العلمية التي عقدت في التفسير والحديث والفقه، وشارك فيها عدد كبير من الوافدين والمجاورين. وتعّود الحجازيون أن يحضر بين الحين والآخر، عالم كبير من العراق أو الشام أو خراسان أو مصر، أو من أي منطقة من مناطق العالم الإسلامي، ليجاور في المدينة المنورة عدة أشهر. وأثناء إقامته هناك يعقد دروساً يومية في المسجد النبوي، ويتقاطر إليه الناس لحضور مجلسه، ويستفيدون من علمه، وقد امتلأت

---

(١) السخاوي، التحفة اللطيفة، جـ٢، ص٢١٦، جـ٣، ص١٩٨؛ بدر، التاريخ الشامل، جـ٢، ص٢٧١.

(٢) الفاسي، شفاء الغرام، جـ٢، ص٢٤٣؛ السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٩٦٥، جـ١، ص١١٧ وسيشار إليه لاحقاً: السيوطي: بغية الوعاة؛ السباعي، تأريخ مكة، جـ١، ص٣٢٨.

(٣) الفاسي، العقد الثمين، جـ٣، ص ص١١١-١١٢.

(٤) الفاسي، العقد الثمين، جـ٣، ص ص١١٥-١١٦.

التراجم بأخبار هؤلاء في كل قرن.[١] ومنهم: الشيخ المحدث أبو محمد عبد العزيز بن جماعة الكناني الشافعي الدمشقي، ولاه السلطان الناصر محمد بن قلاوون قضاء الديار المصرية، وفوض إليه تعيين قضاة الشام، وكان كثير الحج والمجاورة، ناهض أصحاب المذهب الزيدي بمكة، توفي سنة ٧٦٨هـ/١٣٦٦م، وله عدة مؤلفات منها: "المناسك الصغرى"، "المناسك الكبرى"، "هداية السالك إلى المذاهب الأربعة في المناسك"[٢]. والشيخ كمال الدين محمد بن موسى بن عيسى الدميري الشافعي، من أهل دميرة بمصر، ولد بالقاهرة سنة ٧٤٢هـ/١٣٤١م، وبرع في الأدب والتفسير والفقه والحديث، ودرّس وأفتى وجاور بمكة حيث توفي بها سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٥م.[٣]

واشتهر بمكة علماء آخرون برعوا بالتدريس من أمثال: الشيخ محمد بن الفقيه، والإمام محمد بن عثمان البغدادي، وشهاب الدين بن البرهان، وعبد الله بن الصوفي، وشهاب الدين أحمد بن علي، وعبد الحق السنباطي وغيرهم كثر.[٤]

٢- المؤسسات العلمية

أ- المدارس

ارتبطت عملية التعليم بالمسجد منذ بداية الإسلام، ومن ذلك الحلقات التي كان يدرس فيها بعض الصحابة في المسجد النبوي، وسمي الدرس حلقة لأن الطلاب كانوا يتحلقون حول الشيخ، أي ينتظمون في حلقة أو دائرة، وكانت هذه الحلقات تتسع أو تضيق تبعاً لعدد روادها من الطلاب، وكان كل شيخ يتخذ لنفسه عموداً أو ساريةً في المسجد يتجمع الطلبة حوله عندها، ويطلق عليها اسمه حتى بعد وفاته، وكان لكل عمودٍ أو سارية أوقافاً معينة ما دامت تلك الحلقة قائمة، وأطلق على

---

(١) الفاسي، العقد الثمين، جـ١، ص ص٤٥٨-٤٥٩؛ بدر، التاريخ الشامل، جـ٢، ص ص٢٢٤-٢٢٥.

(٢) ابن العماد الحنبلي، أبي الفلاح عبد الحي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ذخائر التراث العربي، المكتب التجاري، لبنان-بيروت، (د.ت)، جـ٦، ص ص٢٠٨-٢٠٩ وسيشار إليه لاحقاً: ابن العماد، شذرات الذهب.

(٣) السخاوي، الضوء اللامع، جـ١، ص٥٩.

(٤) السخاوي، الضوء اللامع، جـ١، ص ص٦١-٦٢؛ السباعي، تاريخ مكة، جـ١، ص ص٣٢٧-٣٢٨.

الحلقة زاوية أو طاقاً في بعض الأحيان، وكانت الحلقات العلمية تزيد وتنقص تبعاً لعدد الشيوخ(١)، وقد حظي المسجد الحرام والمسجد النبوي كغيرهما من المساجد الجامعة بحلقات العلم والتدريس والمناظرة، ولم تشر المصادر التاريخية إلى إعداد تلك الحلقات، ولكن يبدو أنها كثيرة لكثرة العلماء الذين كانوا يفدون إلى الحجاز في مواسم الحج والعمرة طوال السنة. (٢)

وأول إشارة إلى وجود مدارس منظمة في الإسلام، فتلك التي قام ببنائها الوزير السلجوقي نظام الملك الطوسي في بغداد سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م، عرفت بالمدرسة النظامية، وكانت مدرسة منظمة، وأوقف عليها الأوقاف الكثيرة، ووفر الأرزاق للطلبة والقائمين عليها، ثم بُني العديد من المدارس في مدن مختلفة من مناطق حكمه، وبعدها انتشر بناء المدارس في كافة أنحاء العالم الإسلامي. (٣)

واهتم المماليك ببناء المدارس في كافة أنحاء دولتهم، ولا بد أنه قد شمل الحجاز، ولكن رغم البحث الدقيق في المصادر التاريخية المتاحة، لكنها لم ترد ذكراً لمدارس من بناء المماليك في فترة الدراسة، لكنها ذكرت مدارس من بناء المماليك في الحجاز فيما بعد منها: مدرسة السلطان الأشرف قايتباي (٨٧٢-٩٠١هـ/١٤٦٧-١٤٩٥م) وكانت عمارتها على يد شمس الدين بن الزمن شاد العمائر، وتقع ما بين باب السلام وباب الرحمة من أبواب المسجد الحرام، حيث أرسل إليها السلطان خزانة كتب عظيمة، وأوقفها على طلبة العلم، وأوقف عليها قرى بمصر تحمل غلالها للطلاب فيفرق عليهم من الحبوب ما يكفيهم للعام كله، فكانت حصة الفرد سبعة أرادب في العام، وممن درسوا فيها الشيخان: كمال الدين بن الهمام، وعلاء الدين الرومي. (٤)

---

(١) ابن جبير، الرحلة ، ص ٢٤٥، ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ٥ ، ص ص ٢٩٥-٢٩٦؛ غوانمة، نيابة بيت المقدس، ص ص١٤٧-١٤٨.

(٢) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر ، نظم العقيان في أعيان الأعيان، حرره : فليب حتى، المطبعة السورية الأمريكية في نيويرك، المكتبة العلمية، بيروت ، ١٩٢٧م؛ ص١٢٢ وسيشار إليه لاحقاً : السيوطي، نظم العقيان؛ ابن العماد، شذرات الذهب، جـ٦، ص ص٢٦٥-٢٦٦؛

(٣) غوانمة، نيابة بيت المقدس، ص ص١٤٩-١٥٠.

(٤) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص١٠٥؛ الصيرفي، نزهة النفوس، جـ٣، ص١٠١.

وكان المدرسون في هذه المدارس على طبقتين هما: مدرسون ومعيدون، فالمدرس هو من يتولى التدريس الفعلي، والمعيد هو من يتولى إعادة الدرس الذي ألقاه المدرس على الطلاب ليفهموه ويتقنوه، وقد ذكر الفاسي، أن مدرسة الأرسوفي بمكة، كان المدرس بها الشيخ أبو الفتوح الحصري، والمعيد الشيخ أبو الفتوح ناصر ابن عبد الله العطار. (١)

والحقيقة أن المدارس في بلاد الحجاز اهتمت بتدريس العلوم الدينية على مذهب من المذاهب الشهيرة أو أكثر، فكانت هناك مدارس للشافعية، وأخرى للمالكية، وأخرى للأحناف، هذا إلى جانب علوم القرآن والحديث، وبعضها كان يدرس المذاهب الأربعة معاً. (٢)

بينما لم تذكر المصادر التاريخية معلومات مفصلة عن المدارس الحجازية كنفقات المدرسين والطلاب والنظام المعمول به في تلك المدارس، وقد حظي الحجاز بالعديد من المدارس التي بناها سلاطين الرسوليين في مكة المكرمة، ومن تلك المدارس:-

١- المدرسة المنصورية:

بناها السلطان الملك المنصور عمر بن رسول صاحب اليمن (٦٢٦-٦٤٧هـ/١٢٢٨-١٢٤٩م)، فقد أمر نائبه في مكة الأمير فخر الدين ابن إياس الشلاح ببنائها سنة ٦٤١هـ/١٢٤٣م، وأوقفها على فقهاء المذهب الشافعي، وقد جعل فيها مدرساً ومعيداً وإماماً ومؤذناً ومقيماً وقيماً على المكتبة التي خصها السلطان المنصور بأموال كثيرة كان يرسلها سنوياً مع الشريف راجح، وقد أعجب بها ملوك الدول الإسلامية لحسن بنائها ومن مدريسها القاضي علي بن احمد بن عبد العزيز (٧٢٤- ٧٩٨هـ / ١٣٢٣-١٣٩٥م، وعلي بن احمد بن محمد السلمي المكي (٧٤٦-٨٢٨هـ/١٣٤٥-١٤٢٤م. (٣)

---

(١) الفاسي، العقد الثمين، جـ٧، ص٣١٧.

(٢) محمد، العلاقات بين مصر والحجاز، ص٣٤٨.

(٣) الجندي، السلوك، جـ٢، ص٤٣٥؛ الفاسي، العقد الثمين، جـ١، ص١١٧؛ وجـ٦، ص ص ١٣٢-١٣٤، ص٣٤٨؛ وجـ٨، ص١٦٨؛ وشفاء الغرام، جـ١، ص٣٢٨؛ ابن حجر، الدرر الكامنه، جـ٣ ، ص١٧؛ ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص٦٠؛ ابن الديبع، قرة العيون، ق٢، ص١٢، ١٨؛ الجزيري،=

٢- المدرسة المظفرية

بناها الملك المظفر يوسف بن عمر بن رسول (٦٤٧-٦٩٤هـ/١٢٤٩-١٢٩٤م)، وقد عمرها قبالة باب الكعبة المعظمة، ورتب فيها مدرساً ومعيداً وإماماً ومقيماً ومؤذناً وقيماً ومعلماً، وكان يتعلم فيها الأيتام القرآن الكريم والحديث النبوي، وكان عدد طلابها عشرة طلاب، وأوقف عليها أوقافاً كثيرة، وتاريخ وقفها سنة ٦٥٩هـ/١٢٦٠م من مدرسيها موفق الدين علي بن محمد بن سالم الزبيدي (٧٤٧-٨١٨هـ / ١٣٤٦-١٤١٥م). (١)

٣- المدرسة المجاهدية

بناها السلطان الملك المجاهد علي بن المؤيد بن رسول (٧٢١-٧٦٤هـ/١٣٢١-١٣٦٢م)، وتقع بالجانب الجنوبي من المسجد الحرام، أوقفها على فقهاء الشافعية لتدريس المذهب الشافعي، وتاريخ وقفها وعمارتها في ذي القعدة من سنة ٧٣٩هـ/١٣٣٨م، ومن مدرسيها محمد بن احمد بن عبد العزيز بن القاسم (٧٢٢-٧٨٦هـ / ١٣٢١-١٣٨٥م) والقاضي بن محمد بن عبدالله بن ظهيره ٧٥١-٨١٧هـ/ ١٣٥٠-١٤١٤م.(٢)

٤- المدرسة الأفضلية

بناها الملك الأفضل العباس بن المجاهد الرسولي (٧٦٤-٧٧٨هـ/١٣٦٢-١٣٧٦م)، وتقع بالجانب الشرقي في المسعى وهي دار جوهر بن عبدالله المجاهدي رتب فيها مدرساً ومعيداً وعشرة من الطلاب، وإماماً ومؤذناً وقيماً ومعلماً وايتاماً

= الدرر الفرائد ، جـ١، ص٥٩٥؛ ابن القاسم، غاية الأماني، ق١، ص٤٢٦، ٤٣٣؛ الأكوع، المدارس الإسلامية، ص٣٨؛ الزركلي، خير الدين، الأعلام، لبنان، بيروت، ط٣، ١٩٦٩م، جـ٥، ص٢١٧ وسيشار إليه لاحقاً: الزركلي، الأعلام؛ الأكوع، المدارس في اليمن، ص ١٠٧.

(١) ابن بطوطة، الرحلة، ص١٣٤؛ الخزرجي، العقود اللؤلؤية، جـ٢، ص١٣٦؛ الفاسي، العقد الثمين، جـ٦، ص ص ١٣٤-١٣٥؛ السخاوي، الضوء اللامع ، جـ٥ ، ص ١٨٢.

(٢) الفاسي، العقد الثمين، جـ١، ص١١٨؛ وجـ٦، ص١٥٨، وجـ٨، ص١٦٨؛ وشفاء الغرام، جـ١، ص٣٢٨؛ ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص ص٢١٧-٢١٨؛ بامخرمة، تاريخ ثغر عدن، ص١٤٧؛ ابن فهد، غاية المرام، جـ١، ص٦٠٥؛ وجـ٢، ص١٥٣؛ ابن الديبع، قرة العيون، ق٢، ص٩٣، والفضل المزيد، ص٩٧؛ بغية المستفيد، ص٩٢؛ ابن القاسم، غاية الأماني، ق٢، ص٥١٩؛ الأكوع، المدارس الإسلامية، ص٤٢.

يتعلمون القران الشريف، وأوقف عليها أوقافاً جيده، حيث أوقفها على فقهاء الشافعية لتدريس المذهب الشافعي، وتاريخ وقفها وعمارتها قبل سنة ٧٧٠هـ/١٣٦٨م، ومن مدريسها: محمد بن أحمد بن عبد العزيز العقيلي (٧٢٢-٧٨٦هـ/ ١٣٢٢-١٣٨٤م) والشيخ أمين الدين بن محمد بن قطب الدين بن احمد العسقلاني (٦٣٥-٧٠٤هـ / ١٢٢٧-١٣٠٤م).(١)

ب- الأربطة:

الأربطة: مفردها رباط، والرباط من المرابطة أي ملازمة ثغر العدو، وأصلها أن يربط كل واحد من الفريقين خيله، ثم صار لزوم الثغر رباطاً، وربما سميت الخيل نفسها رباطاً، هذا من حيث المعنى اللغوي للكلمة، إلا أن كلمة رباط تطورت في العصور الإسلامية المتأخرة ولم تعد تعني ما كانت تعنيه في صدر الإسلام إذ تحولت من مفهومها العسكري المرتبط بالجهاد إلى ما تعنيه كلمتا الزاوية والخانقاة بالنسبة لأصحاب الطرق الصوفية. (٢)

تأثر الحجاز بمصر وبلاد الشام في عصر دولة المماليك في بناء الأربطة، حيث أنشئت كي توفر سبل الراحة لطلاب العلم والحجاج والمقيمين في الحجاز أثناء موسم الحج، وقد أدى وجود الأربطة في مكة والمدينة إلى إقبال المجاورين على طلب العلم والتفقه في الدين حيث توفر لهم ما يرفع عنهم الفقر والحاجة. وكان واقف الرباط يقف عليه أحياناً بعض الدور والضياع للإنفاق عليه، ولم تشر المصادر التاريخية إلى مقدار تلك النفقات، كما أوقفت المكتبات على الأربطة ليتلقى المجاورون العلم بها، فأقبل طلاب العلم والمجاورين على الإقامة فيها. (٣)

---

(١) الفاسي، شفاء الغرام، جـ٢، ص٣٢٨، العقد الثمين ، جـ١، ص١١٧،٣٠٠،وجـ٢ ، ص ص ٢٧٧-٢٧٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١١، ص١١٦؛ المنهل اصافي، جـ٧، ص ٥٨؛ ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص٣٠٦؛ ابن فهد، غاية المرام، جـ١، ص٥٩١؛ ابن الديبع، قرة العيون، ق٢، ص١٠٤؛ وبغية المستفيد، ص٩٨؛ ابن القاسم، غاية الأماني، ق٢، ص٥٢٦؛ الأكوع، المدارس الإسلامية، ص١٨٥، ٢٤٦؛ معروف، ناجي، المدارس الشرابية ببغداد وواسط ومكة، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٦٥م، ص٣٤ وسيشار إليه لاحقاً: معروف، المدارس الشرابية.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، مادة ربط.

(٣) الفاسي، العقد الثمين، جـ١، ص١١٨؛ جـ٣، ص ص٣٢٤-٣٢٥.

أ- الأربطة في العصر الرسولي

١- *رباط الجهة:* أنشأته زوجة الملك الأشرف إسماعيل بن العباس وأم أولاده والتي تسمى بجهة السلطان أثناء حجها إلى مكة المكرمة سنة ٨٠٦هـ/١٤٠٣م حيث أوقفته على طلاب العلم والفقراء والمجاورين، وولت أمره للشيخ السعداني الشافعي. (١)

ب- الأربطة في عصر المماليك.

١- *رباط العباس رضي الله عنه:* أعاد بناءه السلطان الناصر محمد بن قلاوون حيث كان مطهرة أيام السلطان المنصور لاجين، وقد أوقفه على الفقراء والمجاورين بمكة. (٢)

٢- *رباط زوجة الملك الأشرف أينال:* أنشأته بمكة سنة ٧٦٥هـ/١٣٦٣م. (٣)

٣- *رباط السلطان المظفر* ركن الدين بيبرس الجاشنكير (٧٠٨-٧٤١هـ/١٣٠٨-١٣٤٠م): أنشأه في المدينة المنورة، وأوقف عليه الكثير من الأوقاف، وأقفه على الفقراء والمجاورين وطلاب العلم فيها. (٤)

٤- *رباط باب أجياد:* أنشأه الوزير تقي الدين بن عبد الوهاب المصري عند باب إجياد قبالة باب المسجد الحرام، وقد قام بعمارة الجزء السفلي منه، ثم أدركته المنية قبل إتمامه، فأمر السلطان المؤيد شيخ المحمودي (٨١٥-٨٢٤هـ/١٤١٢-١٤٢١م) أستاداره الملكي المؤيدي الأمير فخر الدين عبد الغني بن أبي الفرج بتكميل عمارته في سنة ٨٢٠هـ/١٤١٧م، وقد توفي الأمير قبل إتمام عمارته في شوال سنة ٨٢١هـ/١٤١٨م، ولم تكمل عمارته بعد. (٥)

---

(١) الفاسي، العقد الثمين، جـ١، ص١٢٣؛ ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص٤٣٨.

(٢) ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص٦١.

(٣) الفاسي، العقد الثمين، جـ١، ص١١٩.

(٤) السخاوي، التحفة اللطيفة، جـ١، ص١٣٨، ٣٧٥.

(٥) الفاسي، شفاء الغرام، جـ١، ص١١١؛ العقد الثمين، جـ١، ص١١٩؛ ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٣، ص٥٠٠.

٣- ازدهار العلوم اللغوية والدينية:

تمتعت بلاد الحجاز بقدر كبير من العلماء الذين برعوا في مختلف العلوم الدينية: كالحديث، والقراءات، والفقه، وعلوم القرآن، والتفسير، وصنفوا فيها الكثير من الكتب، وساهم معهم في ذلك علماء مجتهدون لم يؤلفوا الكتب، ولكنهم ساهموا في إحياء العلوم الدينية عن طريق التدريس، وتولي المناصب الدينية الرفيعة في الدولة: كالقضاء والحسبة ونظر الحرم وغيرها من الوظائف الدينية. وقد نبغ العديد من رجالات الحجاز في شتى العلوم والفنون، وساهموا بمؤلفاتهم في النهوض بالحياة العلمية في عصري الرسوليين والمماليك، وفيما يلي دراسة لأهم هؤلاء العلماء في مجالات العلوم الدينية واللغوية المختلفة:-

أ- في مجال الحديث:-

١- محمد بن عبد الله بن أحمد الطبري المكي الشافعي. عرف بالبهاء الخطيب، ولد سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م بمكة، وأخذ العلم بها على يوسف بن إسحاق الطبري، ومن جده المحب الطبري، وحدّث. وسمع من أبيه، وعنه أخذ خطابة الحرم سنة ٧٠٤هـ/١٣٠٤م، ودامت ولايته لها، وكان فاضلاً وله نظم ونثر وخطب، سمع منه جماعة شيئاً من نظمه، وتوفي سنة ٧٣٢هـ/١٣٣١م بمكة. (١)

٢- زينب بنت أحمد بن ميمون بن قاسم المكية، أم محمد. ولدت بمكة، وأخذت العلم بها على الفخر التوزري، والصفي، وأحمد بن الطبري، ومن الشريف أبي عبد الله الفاسي، وذكرها الحافظ صلاح الدين الأقفهسي في مشيخة قاضي مكة وعالمها جمال الدين بن ظهيرة، وحدّثت، سمع منها الفضلاء من المشايخ، وكانت وفاتها بمكة سنة ٧٨٠هـ/١٣٧٨م. (٢)

٣- عبد الله بن أحمد بن محمد بن المحب الطبري المكي الشافعي. ولد سنة ٧٢٣هـ/١٣٢٣م بمكة، وارتحل في طلب العلم، فقدم دمشق، فأجاز له جماعة

---

(١) الفاسي، العقد الثمين، جـ٦، ص ص٤٦-٤٩؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٣، ص٤٦٦؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ٨، ص١١.

(٢) الفاسي، العقد الثمين، جـ٨، ص ص٢٢٥-٢٢٦؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٢، ص٢٢١؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ١٢، ص٣٩.

من مشايخها ، ثم رحل منها إلى مصر، فسمع بها على جماعة من علمائها، وبالإسكندرية أخذ العلم عن إبراهيم الغرافي وغيره، وسمع بمكة والمدينة ودمشق مرة أخرى من مجموعة من المشايخ الكبار، وحدّث، وارتحل إلى الهند لطلب العلم، ثم عاد منها، وانقطع بتربة من بلاد الحجاز بضع عشرة سنة، ثم عاد إلى مكة، وأقام بها، ثم توجه إلى المدينة زائراً، فأدركه الأجل بها، سنة ٧٨٧هـ/١٣٨٥م ودفن بالبقيع. (١)

٤- محمد بن محمد بن عبد الله، نجم الدين بن فهد القرشي الهاشمي المكي. مولده سنة ٧٦٠هـ/١٣٥٨م، وهو والد المحدّث البارع تقي الدين بن فهد، سمع من القاضي عز الدين بن جماعة، ومحمد بن أحمد المكي، وابن حبيب، وأجاز له عدة مشايخ من الشام ومصر والإسكندرية، وحدّث، وسكن أصفون من ديار مصر عدة سنين لوجود دور وضياع موقوفة على ذرية جده الشيخ نجم الدين الأصفوني فيها، ثم عاد إلى مكة سنة ٧٩٥هـ/١٣٩٢م، وأقام بها حتى وفاته سنة ٨١١هـ/١٤٠٨م بمكة ودفن بالمعلاة. (٢)

٥- محمد بن أحمد بن ظهيرة القرشي المخزومي المكي. ولد سنة ٧٥٦هـ/١٤٥٥م بمكة، وأخذ العلم بها على الفقيه خليل المالكي، والقاضي عز الدين بن جماعة، وأجاز له من مصر ودمشق مجموعة من المشايخ: ابن القطراوي، وابن الرصاص، والجزائري، وناصر الدين الفاروقي، وناب في الخطابة عن أبيه، توفي سنة ٨٢٩هـ/١٣٢٥م. بمكة.(٣)

ب- في علم القراءات.

١- عبد الله بن عبد الحق بن عبد الله المخزومي، أبو محمد عفيف الدين الدلاصي المكي المقرئ. ولد سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م بمكة، وهو والد قطب الدين اللاحق

---

(١) الفاسي، العقد الثمين، جـ٥، ص ص١٠٠-١٠١؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٢، ص٢٤٥؛ السخاوي، التحفة اللطيفة، جـ٢، ص٣٦٥.

(٢) الفاسي، العقد الثمين، جـ٢، ص ص٣٣٣-٣٣٤؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ٩، ص٢٣١، *أصفون: بضم الفاء وسكون الواو، قرية بصعيد مصر على الشاطئ الغربي لنهر النيل، وهي على تل عالٍ مشرف (الحموي، معجم البلدان، جـ١، ص٢١٢).

(٣) الفاسي، العقد الثمين، جـ١، ص٢٩٣؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ٦، ص٣١٥.

الذكر، قرأ ختمة القرآن لنافع، وسمع على الشاطبي، وقرأ بالقراءات السبعة على الشيخ أبي الفضل الأنصاري، وعلى أبي اليمن بن عساكر، وغيره، سمع ببلده، وحدّث، وأقرأ، وقرأ عليه الشيخ أبو عبد الله الواداياشي عدة ختم، وقرأ القرآن أكثر من ستين سنة في مكة ابتغاء ثواب الله تعالى، وله كرامات ومناقب حميدة، توفي سنة ٧٢١هـ/١٣٢١م بمكة ودفن بالمعلاة. (١)

٢- محمد بن عبد الله بن عبد الحق المخزومي المكي المقرئ، قطب الدين بن الشيخ عفيف الدين الدلاصي المقرئ. أخذ العلم ببلده من الفخر التوزري حيث سمع عليه الموطأ، وسمع على والده وخلفه في التصدر للإقراء بالحرم الشريف، كما سمع منه البرزالي بقراءته عندما اجتمع به بعرفه، وتوفي وهو شاب في صفر سنة ٧٢٣هـ/١٣٢٣م. (٢)

٣- صالح بن محمود بن محمد الكرومي المكي، أبو محمد المقرئ. قال عنه المحب الطبري: العلامة الزاهد أحد المقرئين بالسبع، والمدرس بالحرم الشريف، الفقيه الإمام المحدث المجاور، حيث جاور بمكة عدة سنين، ودرس الحديث، ثم زهد فيه وآثر الخمول، أخذ عن محي السنة محمود بن الحسين، وأبي نجيح فضل الله بن محمد، وأبي المجد القزويني وغيرهم، وله إجازات كثيرة، وأجاز للرضي الطبري إمام المقام، وقد رأى المترجم منقولاً بخط الرضي، وكتب تحت خطه أنه كان مجاوراً بمكة يقرأ عليه القرآن، وبها توفي سنة ٧٥٧هـ/١٣٥٦م. (٣)

٤- محمد بن سالم بن إبراهيم، جمال الدين أبو عبد الله المكي الشافعي المقرئ. ولد بمكة سنة ٦٨٦هـ/١٢٨٧م، وسمع بها، قرأ القرآن بالروايات السبعة على العفيف الدلاصي مقرئ مكة، وسمع بها من الشريف يحيى محمد بن علي الطبري، ومن الفخر التوزري، وعلي الصفي، والرضي الطبري، وأبي عبد الله الشريف الفاسي، وسمع بمصر والإسكندرية من جماعة من مشايخ المترجم، كان

---

(١) الفاسي، العقد الثمين، جـ٥، ص ص١٩٦-١٩٩.

(٢) الفاسي، العقد الثمين، جـ٢، ص ص٦٤-٦٥؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ٨، ص ص١١٦-١١٧.

(٣) الفاسي، العقد الثمين، جـ٥، ص ص٢٩-٣٠.

صادقاً ورعاً مجتهداً، مع طهارة اللسان وكرم وخدمة لأصحابه، توفي سنة ٧٦٢هـ/١٣٦٠م.(١)

٥-علي بن أحمد بن محمد السلمي المكي، الشيخ الإمام المقرئ الملقب بنور الدين. ولد سنة ٧٤٦هـ/١٣٤٥م بمكة، وأخذ العلم ببلده على الفقيه خليل المالكي، والقاضي عز الدين بن جماعة، وعبد الله اليافعي وغيرهم، سمع ببغداد، ودمشق، والقاهرة، وبيت المقدس، والخليل، ونابلس، والإسكندرية، وعدة من البلاد وأجاز له جماعة من البلاد التي سمع بها وغيرها. وتفقه بجماعة وأذن له الإمام سراج الدين بن الملقن، والإمام برهان الدين الأنباسي، والعلامة ابن قاضي شهبة فقيه الشام بالإفتاء والتدريس، ودرس وأفتى، وعمل معيداً بالمدرسة المنصورية، وله نظم، وعناية كثيرة بالقراءات ومعرفة فيها، ومن شيوخه فيها مقرئ الديار المصرية تقي الدين عبد الرحمن البغدادي، قرأ عليه بالسبع قراءات، ويحيى الأندلسي بمكة، وأقام بالقاهرة سنين طويلة ثم عاد لبلده وسكنها حتى مات، وأقرأ الناس كثيراً، وحدّث بكثير من مسموعاته، توفي سنة ٨٢٨هـ/١٤٢٤م بمكة ودفن بالمعلاة.(٢)

جـ- في مجال الفقه:

١- إبراهيم بن محمد بن إبراهيم، الشيخ رضي الدين الطبري، يكنى بأبي أحمد. ولد سنة ٦٣٦هـ/١٢٣٨م بمكة، وأخذا العلم على مشايخ بلده أمثال: عبد الرحمن بن أبي حرمي، والجميزي، والزعفراني وغيرهم. وطلب العلم وتفقه، وأفتى، وقرأ الحديث، ونسخ الأجزاء، ومن مؤلفاته: مختصر شرح السنة للبغوي، ومختصر علوم الحديث لابن الصلاح، ونظم قصيدة في مدح النبي ﷺ سماها "العقد الثمين في مدح سيد المرسلين" وحدّث، حيث سمع منه جماعة من أعيان مكة منهم: النجم عبد الحميد، والعفيف النشاوري، ويوسف الكناني وغيرهم، وقد أجمع العلماء على أنه عالم فقيه، محدث، عابد، كبير القدر، ذو معرفة بالعربية والفقه،

---

(١) الفاسي، العقد الثمين، جـ٢، ص ص١٩-٢٠.

(٢) الفاسي، العقد الثمين، جـ٦، ص ص١٣٩-١٤١؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ٥، ص١٨٣.

كثير الرواية للحديث، شيخ مكة في وقته، وكان يفتي على مذهب الشافعي، وله نظم جيد، توفي سنة ٧٢٢هـ/١٣٢٢م بمكة ودفن بالمعلاة. (١)

٢- محمد بن محمد بن عبد الله، مفتي مكة وقاضيها، نجم الدين الطبري المكي الشافعي. ولد سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م بمكة، وأجاز له مجموعة من المشايخ منهم: نجم الدين بن خليل، والحافظ ابن مسدي، وخطيب دمشق الفاروثي وغيرهم. وتفقه على جده المحب، ودرس، وأفتى، وولي قضاء مكة بعد أبيه لمدة خمسة وثلاثين عاماً حتى مات، وحدّث، وسمع منه جماعة منهم: البرزالي، والعفيف المطري، وصفه العلماء بقولهم: كان فقيهاً مشهوراً بمعرفة الفقه، ورأساً في فقهاء الشافعية، مع ندرة أمثاله بعده في الحرمين، وله نظم جيد، توفي سنة ٧٣٠هـ/١٣٢٩م بمكة، ودفن بالمعلاة. (٢)

٣- محمد بن محمد بن عبد الرحمن الحسني، الشريف أبو الخير بن أبي عبد الله الفاسي، الملقب بالمحب، ولد سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م بمكة، وسمع بها باعتناء أبيه على شيوخ مكة والقادمين إليها منهم: الصدر إسماعيل القيسي، وسمع بالمدينة على والده، والمحدث عز الدين الزرندي، ورحل به أبوه إلى مصر لطلب العلم، فسمع بها على هارون الثعلبي، وأبي الفتوح القرشي وغيرهم. وسمع بالإسكندرية، ثم طلب العلم بنفسه فسمع بدمشق من: الحجار، والنجم العسقلاني وغيرهم. وتفقه، وشارك في العلوم، وحدّث، وتفقه على القاضي وجيه الدين بن الجلال الإسكندراني، وأذن له في الإفتاء والتدريس والإفادة، أثنى عليه العلماء ووصفوه: بالشيخ الجليل الفقيه العلامة، توفي سنة ٧٤٧هـ/١٣٤٦م ودفن بالبقيع. (٣)

٤- محمد بن عبد الرحمن بن أبي الخير الحسني، الشريف أبو عبد الله الفاسي المكي المالكي. ولد سنة ٧٧٤هـ/١٣٧٢م بمكة، يلقب بمحب الدين، سمع بمكة

---

(١) الفاسي، العقد الثمين، جـ٣، ص ص٢٤٠-٢٤٣؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ١، ص١٦٣.

(٢) الفاسي، العقد الثمين، جـ٢، ص ص٢٧١-٢٧٣.

(٣) الفاسي، العقد الثمين، جـ٢، ص ص٣٣٤-٣٣٦؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٤، ص٢٢٥؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ٩، ص٤٣؛ ابن العماد، شذرات الذهب، جـ٦، ص٥٨.

من الشيخ العفيف النشاوري، وعدد من القادمين إليـــها أمثـــال: عبـــد الوهـــاب الإسكندراني، وجمال الدين الأسيوطي وغيرهم، وسمع بالقاهرة وبدمشق، وحدّث عن شيوخه بالإجازة، وحفظ مختصر ابن الحاجب بالفقه، والرسالة لابن أبي زيد بالفقه، وغير ذلك من المختصرات. كان يحضر دروس أبيه الفقهية، وقرأ الفقـــه بالقاهرة على بعض شيوخ المالكية، وتبصر فيه، ودرّسه، توفي بعلّة القولنج سنة ٨٢٣هـ /١٤٢٠م ودفن بالمعـــلاة.[(١)]

٥- عبد الله بن أحمد بن الزين القَسطلاني المكي، الملقـــب بـــالعفيف، ولـــد ســـنة ٧٧٠هـ/١٣٦٨م بمكة، حفظ كتاب الحاوي الصغير في الفقه، ولازم درس مفتي مكة وقاضيها جمال الدين بن ظهيرة عدة سنين، وعمل بالشهادة وكتابة الوثـــائق والسجلات أيام القاضي عز الدين النويري، وتولى نيابة الحكم بمكة فـــي عـــهد السلطان المظفر أحمد بن المؤيد شيخ (٨٢٤هـ/١٤٢١م)، وكتم ذلك لتخوفه مـن القاضي محب الدين بن ظهيرة ثم أظهره بعد وفاته، ومن ثم عاجلته المنية قبـــل إتمامه التوقيع بذلك في سنة ٨٢٧هـ/١٤٢٣م، ودفن بالمعلاة، كان يذاكر بمسائل الفقه، وسمع الحديث من السيوطي، والنشاوري، ووالده وغيرهم.[(٢)]

د- في التصوف

انتشرت التيارات الفكرية في بلاد الحجاز، ومن ضمنها الطرق الصوفية التي كانـــت امتداداً للصوفية في مصر وبلاد الشام في عصر المماليك، واليمن في عصر الرسوليين، وقد انتشرت الأبنية الخاصة بالصوفية، والتي كانت مقصدهـــم ومكـــان إقامتهم، وعرفت بالأربطة، فوجد في الحجاز الربط التي أعدت للفقراء والمســـاكين والمنقطعين لعبادة الله. ومن المتصوفة الذين ينتمون إلى هذه المنطقة نذكر:-

١- أحمد بن مودود بن القاسم، المدني المولد، أبـــو العبـــاس المكـــي الصوفـــي المعروف بالحجازي. سمع بمكة من زاهر بن رستم، ويونس الهاشمي، ويحيـــى بن ياقوت. حدّث وسمع منه المحدثون: أبو صادق بن رشيد العطار، وأحمد بـــن النصر، والفخر التوزري، والحافظ الدمياطي. ارتحل إلى الإســـكندرية لطلـــب

---

(١) الفاسي، العقد الثمين، جـ٢، ص ص١١٣-١١٤؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ٨، ص٤٠.

(٢) الفاسي، العقد الثمين، جـ٥، ص ص٩٧-٩٨؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ٥، ص٥.

العلم، ونزل بالمدرسة الحافظية، ثم صحب منصور بن سليم الإسكندراني في التحمل والإجازة. ونقل القطب الحلبي عن الشريف الحسيني أنه توفي سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م. (١)

٢- فاطمة بنت الشيخ قطب الدين القسطلاني، وتسمى أمة الرحيم المكية. ولدت سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م بمكة، سمعت من الشيخ عبيد الراوي، وعلي المنبجي، وحدّثت. سمع منها الجمال محمد بن عبد المعطي، والشيخ خليل المالكي، وأحمد بن سالم المؤذن وغيرهم. وأجازت للشهاب أحمد بن الحنفي، وأجاز لها جماعة من بغداد والشام ومكة. وسمع منها جماعة من الأعيان وألبستهم خرقة التصوف، حيث كانت قد لبستها من الشيخ نجم الدين التبريزي، كانت من أهل الورع والصلاحِ والفضل، كانت كثيرة الخير والعبادة، توفيت سنة ٧٢١هـ/١٣٢١م بمكة. (٢)

٣- أحمد بن محمد بن الزين القيسي القسطلاني المكي، إمام الدين الصوفي. سمع من الرضي الطبري: الصحيحين، وسنن أبي داود، وجامع الترمذي، وصحيح ابن حبان، وغيرها من الكتب والأجزاء، وسمع على عمة أبيه أمة الرحيم فاطمة، وأم الخير عائشة بنت القطب القسطلاني، ولبس منهما خرقة التصوف بلباسهما من شيخ الحرم نجم الدين التبريزي، وسمع من آخرين. وحدّث. سمع منه والد المترجم، ومشايخه الحِفاظ. وكان ورعاً عابداً متصدقاً كريماً، توفي سنة ٧٧٦هـ/١٣٧٤م بمكة ودفن بالمعلاة. (٣)

٤- خديجة بنت الشيخ شهاب الدين أحمد بن عبد العزيز الهاشمي النويري، كانت ذات حشمة ومروءة، وذكرها سبطها الشيخ جمال الدين محمد الشيبي أن لها نظم جيد، وكانت تكاتب به الشيخ بهاء الدين السبكي، وذكرها في كتابه "الشرف الأعلا في ذكر قبور مقبرة المعلا" عند ذكره للسبكي، وأطنب في الثناء عليها

---

(١) الفاسي، العقد الثمين، جـ٣، ص١٨٦.

(٢) الفاسي، العقد الثمين، جـ٨، ص ص٢٨٦-٢٨٨؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٣، ص٣٠٨؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ١٢، ص٨٨.

(٣) الفاسي، العقد الثمين، جـ٣، ص ص١٧٢-١٧٣.

فقال: كانت من الفضل والعلم بمكان شهير، ومن الدين والصلاح بمحل كبير خطير. وجرى بينها وبين السبكي مبادلات شعرية على قصد المدح عدة مرات، وتوفيت سنة ٧٧٧هـ/١٣٧٥م بمكة ودفنت بالمعلاة. (١)

٥- محمد بن أحمد بن النجم الصوفي المكي. سمع بمصر وصحب الشيخ يوسف الكوراني، وصار من مريديه، ونظر في كتب الصوفية وغيرها من كتب العلم، وكان يميل إلى ابن عربي الصوفي. ألف مجموعة من الكتب التي تدعو لحفظ النفس والمال. سمع الحديث بمكة من بعض شيوخ المترجم بالسماع والإجازة، وتعبد كثيراً، واشتهر وذاع صيته، ثم انتقل إلى المدينة فسكنها، وتوفي بها سنة ٨٠١هـ/١٣٩٨م. (٢)

هـ- في القضاء:

١- القاضي محمد بن أحمد بن القاضي محب الدين الطبري المكي الشافعي، ولد بمكة سنة ٦٣٦هـ/١٢٣٨م، أخذ العلم ببلدة على أشهر علمائها ومشايخها أمثال: الشيخ ابن أبي حربي وغيره. حدّث وأفتى ودرّس، وله مؤلفات منها: التسويق إلى البيت العتيق في المناسك، ونظم كفاية المتحفظ في اللغة، وله نظم جيد. ناب في الحكم عن قاضيها عمران بن ثابت الفهري، ثم ولي قضاءها بعده سنة ٦٧٣هـ/١٢٧٤م، واستمر فيها حتى وفاته سنة ٦٩٤هـ/١٢٩٤م. وقد أثنى عليه البرزالي ووصفه بالقاضي العلامة، والفقيه الفاضل. (٣)

٢- القاضي محمد بن أحمد بن عبد العزيز الهاشمي النويري، قاضي مكة وخطيبها وعالمها، ولد سنة ٧٢٢هـ/١٣٢٢م، وأخذ العلم بها عن جده لأمه نجم الدين الطبري، وأجاز له مجموعة من المشايخ المكيين، ارتحل لطلب العلم، فسمع بدمشق من القاضي شمس الدين بن أبي بكر الذي أخذ عنه الفقه، والشيخ جمال الدين بن هشام الذي أخذ عنه العربية، فحصل من العلم أوفره، وذاع صيته في الحجاز كله، ودرّس وأفتى وناظر وحدث، وناب في الحكم عن خاله القاضي

---

(١) الفاسي، العقد الثمين، جـ٨، ص٢٠٢؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ١٢، ص٢٣.

(٢) الفاسي، العقد الثمين، جـ١، ص٣٨٠.

(٣) الفاسي، العقد الثمين، جـ١، ص٢٩٤.

شهاب الدين الطبري، ثم ولي قضاء مكة بعد صرف القاضي تقي الدين الحرازي، وولي مع ذلك خطابة الحرم ونظره، وتدريس المدارس الرسولية الثلاثة، وتدريس درس بشير الجمدار، واستمر على ولايته لجميع ذلك حتى وفاته سنة ٧٨٦هـ/١٣٨٤م. (١)

٣- محمد بن عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الخزرجي، ويعرف بابن المطري المدني، قاضي المدينة النبوية وخطيبها وإمامها. ولد بالمدينة المنورة سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م، وأجاز له الشيخ يوسف الدلاصي، ولقي فيها مسند دمشق محمد الخباز وأجازه، وأجاز له شيوخ الحافظ زين الدين العراقي باستدعائه. وسمع بالمدينة من العفيف المطري، والقاضي عز الدين بن جماعة. وسمع منه القاضي تقي الدين الفاسي بالطائف ومكة، وكان له عناية بالعلم، ومعرفةً بالفقه والعربية وغيرهما من فنون العلم، وله نظم وخط جيدان، درّس وأفتى، وأذن بالحرم النبوي بمئذنة الرئاسة، ثم ولي قضاء المدينة وخطابتها وإمامتها في أول سنة ٨١١هـ/١٤٠٨م، وبقي فيها حتى وفاته في نفس السنة ودفن بالمعلاة. (٢)

٤- القاضي محمد بن عبد الله بن ظهيرة القرشي المكي، الملقب بجمال الدين الشافعي. ولد بها سنة ٧٥١هـ/١٣٥٠م، وسمع بمكة ومصر ودمشق وحران وحلب، وأجاز له جماعة كثيرون من شيوخ البلاد التي سمع بها. وأذن له شيخ الإسلام البلقيني بالتدريس في الحديث وأصول الفقه والعربية، له مشاركات في فنون العلم المختلفة، ومذاكرات في الشعر والتاريخ، وصنف شرحاً على الحاوي الصغير، وله نظم جيد، تصدى للتدريس والإفادة أربعين سنة، وتولى قضاء مكة عوضاً عن القاضي عز الدين النويري وعزل، ثم ولي القضاء مرة أخرى سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٥م، وباشر ذلك حتى عزل في أواخر شعبان سنة ٨١٠هـ/١٤٠٧م. وتولى القاضي جمال الدين تدريس درس بشير الجمدار،

---

(١) الفاسي، العقد الثمين، جـ١، ص ص٣٠٠-٣٠٧.

(٢) الفاسي، العقد الثمين، جـ٢، ص ص١٠٥-١٠٩.

والمدارس: الغياثية، والبنجالية، والمجاهدية، وبقي قاضياً حتى وفاته سنة ٨١٧هـ/١٤١٤م. (١)

٥- القاضي محمد بن عبد الرحمن بن أبي الخير الحسني الفاسي المكي المالكي. ولد سنة ٧٨٥هـ/١٣٨٣م بمكة، وأخذ العلم بها، وتفقه على جماعة من شيوخ الحرمين، وأجاز له جماعة من شيوخ الشام والقادمين إلى مكة، وحفظ عدداً من المختصرات في فنون العلم المختلفة، وتفقه بوالده، وأخذ العربية عن الشيخ شمس الدين الخوارزمي بمكة، وأصبح ذا باع طويل بالفقه، رغب بولاية قضاء المالكية الذي كان بيد القاضي تقي الدين الفاسي، حيث وليه بعد غيبته عنه في اليمن سنة ٨١٧هـ/١٤١٤م ثم عزل عنها، واستمر شديد العودة لمنصب القضاء، فلم يتم له ذلك حتى وفاته، ومن مؤلفاته: "الأداء الواجب في تصحيح ابن الحاجب"، توفي سنة ٨٢٤هـ/١٤٢١م بمكة ودفن بالمعلاة. (٢)

٤- الحركة الأدبية:

نشطت الحركة الأدبية في بلاد الحجاز في عصري الرسوليين والمماليك، حيث برع فيها الكثير من الأدباء والعلماء، فقد أحاط السلاطين أنفسهم بالعديد منهم خلال زيارة هؤلاء الأدباء لمصر، أو أثناء زيارة السلاطين لمكة والمدينة لأداء مناسك الحج والعمرة، ومن هؤلاء الأدباء:-

١- أحمد بن غنائم المكي الشاعر الملقب بالشهاب. أجاز له الشيخ عبد الله بن خليل المكي سنة ٧١٣هـ/١٣١٣م، والدشتي، والقاضي سليمان بن حمزة، والمُطعم، وابن مكتوم، وابن عبد الدايم وآخرون. مدح العديد من أمراء مكة منهم: الأمير ثقبة بن رميثة، والأمير مبارك بن عطيفة، توفي سنة ٧٤١هـ/١٣٤٠م. ومن شعره في مدح مبارك بن عطيفة بن أبي نمي: (البحر البسيط).

---

(١) الفاسي، العقد الثمين، جـ٢، ص ص٥٣-٥٩؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ٨، ص٩٢.

(٢) الفاسي، العقد الثمين، جـ٢، ص ص١١٥-١١٨؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ٨، ص٤١.

إنْ شَطَّ من قُرْبِ الحبيبِ مِزارُه وَنَأتْ بغيرِ رضا المُتَيَّم دَارُهُ
فَفِراقُهُ أضْحَى لَدَيْه عَزِيمَةٌ وحَنِينُهُ أمْسَى عَلَيْهِ شِعَارُه
ولَرُبّما يقْضِي بأحكامَ الهَوَى وَجْداً عَلَيك ومَا أنْقَضَتَ أوطارُه.(١)

٢- أحمد بن ناصر بن يوسف المضري المكي الشافعي. سمع بمكة من مجموعة من المشايخ منهم: الصفي، وسراج الدين الدمنهوري، وفخر الدين النويري، وكان شاعر الحجاز في وقته فاضلاً ذكياً، اشتغل بالفقه والأصول العربية وغيرها من العلوم. وكان قد أقام بدمشق فترة اشتغل خلالها بالعلم، ثم عاد إلى مكة، وعمل بالتجارة، ثم انتقل إلى بلاد فارس، وقتل هناك، ولم تعرف سنة وفاته، ولكنه كان حياً سنة ٧٧٢هـ/١٣٧٠م. ومن شعره: (البحر المديد)

لَوْلكُمُ مَا ذَكَرْتُ الخَيْفَ خَيفَ مِنى وَلاَ العقيقَ ولا نَجْداً ونُعْمانَا
وَلا ذَكَرتُ طُلُولا بِالْمَعَالِمِ مِنْ أرْضِ الْحِجازِ وَلاَ رَبْعاً وَسُكّانا
وَلاَ غَدَتْ فِي الْهَوى شَوْقاً تُؤرِقُنِي وُرْقُ الحَمامِ ولا جَدَّدْنَ أحْزَانا(٢)

٣- أحمد بن محمد بن عبد المعطي الأنصاري الخزرجي، أبو العباس النحوي المالكي، شهاب الدين نحوي الحجاز. ولد سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م بمصر وأصله من المدينة المنورة، سافر إلى بلاد المغرب مع والده، وأخذ بها العلم على مجموعة من العلماء منهم: الفقيه أبو زيد عبد الرحمن الجزولي، وأخذ الفقه بمصر عن الشيخ عبد الله المنوفي، وعلى الشيخ أبي حيان الأندلسي التلقين والعربية ومختصر ابن الحاجب، وقرأ عليه التسهيل لابن مالك فأذن له في إقرائها، ودرس عنه شعراً سمع بمكة على مجموعة من مشايخها، والقادمين إليها كثيراً من الكتب والأجزاء، وانتصب للاشتغال بالعربية والعروض وبرع فيها، وكان له نظم كثير، وكتب بخطه

(١) الفاسي، العقد الثمين، جـ٣، ص ص١١٥-١١٦.
(٢) الفاسي، العقد الثمين، جـ٣، ص ص١٩١-١٩٣.

الكثير من كتب العلم، وناب في العقود بمكة، ودرّس وأفتى، وتوفي سنة ٧٨٨هـ/١٣٨٦م بمكة، ودفن بالمعلاة، ومن شعره: (البحر الكامل)

لَمْ تُغمِضِ الْعَيْنُ بَعْدَ البَحْرِ أجْفَانا — لا وَأخَذَ اللهِ بالَهجْرَانِ أجْفَانا
يا أهْلَ ذَاكَ الحِمَى مِنْ حَيٍّ كاظِمةٍ — لا تُبْعِدوا بالنِوَّى مَنْ ذاق أشجانا
لا تَجْنَحوا لِوُشاةِ الْحيِّ ما نَظَرَتْ — مُذْ غابَ حَيُّكُمُ العينان إنْسانَا(١)

٤- أحمد بن موسى بن علي المكيّ، شهاب الدين المعروف بابن الوكيل الشافعي، سمع بمكة من محمد بن عبد المعطي وغيره من شيوخها، فأخذ النحو عن نحوي الحجاز أبي العباس بن عبد المعطي ، وكان يحضر دروس القاضي أبي الفضل النويري، ثم ارتحل في طلب العلم، فسمع بدمشق من صلاح الدين بن أبي عمر، وحصل علماً جماً، ومن مؤلفاته: مختصر المبهمات للأسنوي، ومختصر الملحة للحريري، وله شعر جيد، وكانت له حلقة علم بالمسجد الحرام، توفي سنة ٧٩١هـ/١٣٨٨م بمكة، ودفن بالمعلاة، ومن شعره:- (بحر المنسرح)

اللهُ يَعْلَمُ أنني بِكَ مُغْرَمُ — والقَلْبُ مِنِّي في هَوَاكَ مُتَيَّمُ
فإلى مَتَى هذا الصُدودُ وذا الجَفَا — وإلى مَتَى أُخْفِي الغَرامَ وأكْتُمُ
ما لُبَحرِ إلاَّ مَنْ تَدَفَّقِ أدمُعِي — والنّارُ إلاّ من فؤادي تُضْرَمُ(٢)

٥- أحمد بن علي بن محمد الحسني الفاسي المكي المالكي، ولد بمكة سنة ٧٥٤هـ/١٣٥٣م، وأخذ العلم بها على مجموعة من مشايخها الكبار، وأجاز له جماعة من أصحاب البخاري وطبقته وغيرهم. وحفظ الكثير من الكتب العلمية، واشتغل بالفقه والأصول والعربية والمعاني والأدب، وغيرها من فنون العلم، وكان ذا معرفة تامة بالأحكام والوثائق، وله نظم كثير ونثر، ومن شيوخه في الفقه والنحو: الشيخ أبو العباس بن عبد المعطي المكي النحوي حيث أذن له في الإفتاء والتدريس، والشيخ موسى المراكشي. ودرّس، وأفتى، وحدّث، وله تواليف

---

(١) الفاسي، العقد الثمين، جـ٣، ص ص١٤٩-١٥٠؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ١، ص٢٧٧.

(٢) الفاسي، العقد الثمين، جـ٣، ص ص١٨٧-١٨٩؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ٤، ص٥٠.

في عدة مسائل، سمع بمصر والشام واليمن والمدينة المنورة، وكان معتبراً في بلدة، توفي سنة ٨١٩هـ/١٤١٦م بمكة ودفن بالمعلاة، وله شعر مدائح نبوية، ومدائح في أمراء مكة، منهم الشريف حسن بن عجلان، ومن مدائحه فيه: (البحر الوافر)

عَدَلْتَ فَمَا يُورى الهلالَ المشارِقُ لتُنظُرَهُ بالمَغْرِبَيْنِ الخَلائِقُ
فَمَا رَامحٌ إلاّ بِخوفِكَ أعزَلُ ولا صَامِتٌ إلاّ بفَضْلِكَ نَاطِقُ[1]

٥- العلوم العقلية

ارتبطت العلوم العقلية فيما بينها ارتباطاً وثيقاً، وكانت تحوي أصنافاً من العلوم التطبيقية وتشتمل على: الفلسفة بجميع أبعادها، وعلم الطب، والصيدلة، والفلك، والفيزياء، والكيمياء، والموسيقى والهندسة[2]. ولا شك أن العلماء في الحجاز قد جمعوا كغيرهم من علماء البلدان الإسلامية الأخرى في معارفهم الموسوعية بين الحساب والهندسة والفلسفة والعلوم الدينية في آن واحد. وقد نبغ في بلاد الحجاز في فترة الدراسة علماء كان لهم دور في الازدهار الحضاري الذي أصاب المنطقة، وفيما يلي عرض لبعضهم:

١-علي بن أحمد بن عبد العزيز الهاشمي، القاضي نور الدين أبو الحسن النويري المكي المالكي. ولد سنة ٧٢٤هـ/١٣٣٣م بمكة، وسمع بها وبالمدينة المنورة، ومصر والقدس، ودمشق من مجموعة من المشايخ الكبار، وحدّث بالحرمين، وتولى أمامة المالكية بالحرم الشريف ثلاثة وثلاثين سنة، حيث كان يصله من سلاطين الدول الإسلامية هبات سنوية، ناب في الحكم عن أخيه القاضي أبي الفضل، وناب عن القاضي محب الدين النويري في حضور حاصل زيت الحرم وشمعه، وهو المتولي لحساب من يقبض، الأمر الذي يدلل على أنه كان بارعاً

(١) الفاسي، العقد الثمين، جـ٣، ص ص١٤٩-١١١؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ٢، ص٣٥.

(٢) غوانمة، التاريخ الحضاري، ص١٦٧.

بالحساب. ولي تدريس الحديث بالمدرسة المنصورية، توفي سنة ٧٩٨هـ/١٣٩٥م بمكة ودفن بالمعلاة. (١)

٢- محمد بن حسين بن علي بن ظهيرة المخزومي المكي الحاسب. أخذ العلم ببلده حيث سمع بمكة من القاضي موفق الدين الحنبلي، والقاضي عز الدين بن جماعة وغيرهم، برع في الفرائض والحساب، وناب في الحكم عن خاله القاضي شهاب الدين بن ظهيرة، وتوفي سنة ٨٠٢هـ/١٣٩٩م بمكة. (٢)

٣- حسين بن علي بن محمد بن داود البيضاوي المكي الزمزمي الفرضي الحاسب. ولد سنة ٧٧٠هـ/١٣٦٨م بمكة، وسمع بها على مجموعة من مشايخها الكبار، وسمع على عدد من المشايخ القادمين إلى مكة وأجازوا له، وطلب العلم، وعني كثيراً بالفرائض والحساب، حيث كان قد أخذها عن قاضي مكة شهاب الدين بن ظهيرة، وعن برهان الدين الفرضي نزيل مكة وتبصر بها، وعن الإمام البارع شهاب الدين بن الهايم الحساب حيث قرأ عليه بعض تواليفه بالحساب في مكة. وقد نبغ بالحساب والفرائض حتى صار المشار إليه في ذلك، وله خبرة بالفلك، والهندسة، وعمل التقاويم، وذكر المترجم أن له مؤلفات بالحساب والفرائض ولكنه لم يشر إلى أسمائها، أخذ بمصر علم الفلك عن الشيخ جمال الدين المارديني، ثم دخل اليمن في تجارة سنة ٨١٩هـ/١٤١٦م، وعاد إلى مكة سنة ٨٢٠هـ/١٤١٧م، ثم ارتحل إلى مصر مرة أخرى، وعاد بعدها إلى مكة حيث توفي بها سنة ٨٢١هـ/١٤١٨م ودفن بالمعلاة. (٣)

٤- علي بن أحمد بن علي بن داود البيضاوي، نور الدين أبو الحسن المكي الزمزمي. ولد ببلاد الهند وأصله من مكة حيث حُمل إليها طفلاً فنشأ بها، وحفظ القرآن الكريم، وكتباً علمية في فقه الحنفية، وأخذ الفرائض والحساب عن عمه الشيخ حسين بن علي الزمزمي، وكان نبيهاً في الحساب والفقه وبرع فيهما. كان ديناً ورعاً، ارتحل إلى شيراز ثم إلى اليمن والهند للعمل بالتجارة، فحصل أموالاً

---

(١) الفاسي، العقد الثمين، جـ٦، ص ص١٣٢-١٣٤؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٣، ص١٧.

(٢) الفاسي، العقد الثمين، جـ٢، ص٦.

(٣) الفاسي، العقد الثمين، جـ٤، ص ص٢٠٥-٢٠٦؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ٣، ص١٥١.

طائلة، وأدركه الأجل وهو مسافر إلى بلاد الهند عن طريق عدن سنة ٨٢٤هـ/١٤٢١م.[١]

٥- عبد الرحمن بن محمد بن علي بن عقبة المكي، يلقب بالوجيه، مهندس الحرم الشريف. كان خيراً ديناً، يخدم الناس في مجال الإعمار، وكان خبيراً بالهندسة والعمارة، وقد عمل في ذلك سنين طويلة، ثم ترك العمارة، وكانت له أموال طائلة، وعقارات كثيرة بخيف بني شديد ومكة، وقد انقطع في بيته للعبادة، وتوفي بمكة سنة ٨٢٦هـ/١٤٢٢م.[٢]

---

(١) الفاسي، العقد الثمين، جـ٦، ص ص١٣٧-١٣٨؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ٥، ص١٧٥.

(٢) الفاسي، العقد الثمين، جـ٥، ص ص٤٠٤-٤٠٥؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ٤، ص١٤٢.

الخاتمة

توصلت في هذه الدراسة إلى النتائج التالية:

١- ظل الحجاز طيلة العصر الإسلامي يتمتع بموقع استراتيجي وديني مقدس لدى المسلمين في جميع أنحاء العالم الإسلامي لكونه يحوي الحرمين الشريفين.

٢- قام السلطان صلاح الدين الأيوبي بجهود كبيرة لحماية الأماكن المقدسة الحجازية من الاعتداءات الصليبية.

٣- كان الحجاز مسرحا للصراع الأيوبي الرسولي في الفترة ٦٢٦هـ/١٢٢٦م-٦٤٧هـ/١٢٤٧م، حيث حدث تبادل للمواقع بينهما، أثبت الرسوليون فيه سيطرتهم على الحجاز.

٤- كان وصول الظاهر بيبرس إلى منصب السلطنة، وإحيائه الخلافة العباسية بالقاهرة، وقضائه على الفوضى الداخلية نقطة تحول في تاريخ دولة المماليك، حيث ثبت نفوذ هذه الدولة في الحجاز والمناطق المحيطة بها، وأصبحت كلها تابعة لدولة المماليك وقد سار خلفاؤه من بعده على نهجه.

٥- تقلص نفوذ الدولة الرسولية في الحجاز وأصبحت في عصر دولة المماليك كأي دولة إسلامية أخرى ترغب في نيل رضا المماليك وذلك لحفظ أمن حجاجها، فقد ظل ملوك بني رسول يرسلون الهدايا إلى مصر كما وأن الحجاز أصبحت ولاية مملوكية.

٦- كان للصراع الرسولي المملوكي على الحجاز دوافعه السياسية والاقتصادية والدينية، فقد رغبت اليمن في السيطرة عليها لقربها الجغرافي وأهميتها الاستراتيجية والدينية، ولنقل ساحة الصراع إلى مكة بدلا من اليمن.

٧- قام سلاطين بني رسول بالضغط السياسي على أشراف مكة من خلال الاقتصاد، وذلك بمنع التجار اليمنيين من الرسو بجدة، ولكن سياستهم فشلت بسبب إمداد سلاطين المماليك الحجاز بالميرة والصدقات التي شكلت أحد فروع الدخل عندهم.

٨- كانت التجارة في الحجاز تنتعش في مواسم الحج والعمرة، وبعد قدوم القوافل التجارية من الهند وآسيا ومصر وبلاد الشام ومناطق الشرق الأقصى.

٩- كانت الزراعة في المدينة المنورة أفضل منها في مكة التي كانت تأتيها معظم ميرتها من جبال السراة وتهامة اليمن ومصر، فقد حظيت المدينة بالاكتفاء الذاتي.

١٠- وجد في الحجاز ثلاث أنواع من الوظائف هي: الوظائف الإدارية، والوظائف الدينية، والوظائف العسكرية (الجيش في الحجاز).

١١- أصيب الحجاز بأزمات خانقة أدت إلى حدوث المجاعات والأوبئة وارتفاع الأسعار بسبب انقطاع المطر ونقص الميرة وقد كان يسترد عافيته منها بعد وصول الصدقات المصرية ونزول المطر وقدوم القوافل التجارية.

١٢-كان المجتمع الحجازي مكوناً من أربع فئات هي: فئة الأشراف، فئة العلماء والفقهاء (المعممون)، فئة العامة، فئة العبيد، وكان لكل فئة عاداتها وتقاليدها وملابسها وأطعمتها الخاصة بها، فرضتها عليهم ظروف الزمان والمكان.

١٣-كان الحجاز مركزاً دينياً إسلامياً عالمياً لذا أمه الكثيرون من العلماء والفقهاء والأدباء للمجاورة والتدريس حيث عقدوا في الحرمين المكي والمدني الحلقات العلمية كل حسب مذهبه.

١٤-برع في الحجاز الكثير من العلماء والأدباء والمحدثين والصوفية مـــن أهــل المنطقة حيث كان لهم دوراً بارزاً في تولي التدريـــس بـــالمدارس الحجازيـــة والمناصب العامة كالقضاء والحسبة ونظر الحرم وغيرها.

قائمة المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم

٢- المصادر العربية المخطوطة.

٣- المصادر العربية المطبوعة.

٤- المراجع العربية الحديثة.

٥- المراجع الأجنبية المترجمة.

٦- الدوريات العربية.

١- **القرآن الكريم.**

٢- **المصادر العربية المخطوطة:-**

١- ابن حبيب، حسن بن عمر (ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م)

درة الأسلاك في دولة الأتـــراك جـــ١: ٦٤٨-٧١٤هـــ، شـــريط رقــم ٥٣٩.جـ٢: ٧١٥-٧٦١هـ، شريط رقم ٥٣٣. جــــ٣: ٧٦٢-٨٠١هـــ، شريط رقم ٥٣٩. لدى مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية.

٢- الخزرجي، علي بن الحسن (ت ٨١٢هـ/١٤٠٩م)

العسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملـــوك. مخطوطـــة مصـــورة عـــن المخطوطة المصورة ضمن مشروع الكتاب وزارة الإعلام والثقافة، صنعـاء، ١٩٨١م، لدى د. داوود المندعي.

٣- المصادر العربية المطبوعة

١- ابن الأثير، عز الدين علي بن ابي الكرم (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م).

الكامل في التاريخ، جـ ١-١٢ تح: دار صادر- بيروت، دار بيروت - بروت، ١٩٦٦م.

٢- ابن الأخوة، محمد بن محمد القرشي (ت ٧١٩هـ/١٣٢٨م)

معالم القربة في أحكام الحسبة، عني بنقله وتصحيحه: روبن ليوي، مطبعة دار الفنون، كمبردج، ١٩٣٧م.

٣- الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله (السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي)

نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٩م.

٤- الأشرف الغساني، إسماعيل بن العباس (ت ٨٠٣هـ/١٤٠٠م)

العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك، تح: شاكر محمود عبد المنعم، (١-٢)، دار التراث الإسلامي، بيروت، دار البيان، بغداد، ١٩٧٥م.

٥- الأنصاري، أبو العباس نجم الدين بن الرفعة (ت ٧١٠هـ/١٣١٠م)

الإيضاح والتبيان في معرفة المكيال والميزان، حققه وقدم له: محمد أحمد الخاروف، جامعة الملك عبد العزيز، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، السعودية، مكة المكرمة، من التراث الإسلامي، الكتاب (١٠)، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٠م.

٦- ابن إياس الحنفي، محمد بن أحمد (ت ٩٣٠هـ/١٥٢٤م)

بدائع الزهور في وقائع الدهور جـ١+٢+٥، حققها وكتب لها المقدمة: محمد مصطفى زيادة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، طـ٢، ١٩٨٢-١٩٨٤م.

٧- ابن أيبك الدواداري ، أبو بكر بن عبد الله (ت ٧٣٦هـ/١٣٣٥م)

كنز الدرر وجامع الغرر، جـ٧: الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، تح: سعيد عبد الفتاح عاشور، (د.ن) ،،القاهرة ، ١٩٧٢م. جـ٨: الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية، تح: اولرخ هارمان، قسم الدراسات الإسلامية بالمعهد الألماني للآثار الشرقية، مصادر تأريخ مصر الإسلامية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٧٢م. جـ٩: الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، تح: هانس روبرت رويمر ، قسم الدراسات الإسلامية بالمعهد الألماني للآثار الشرقية، مصادر تأريخ مصر الإسلامية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٠م.

٨- بامخرمة، عبد الله الطيب بن عبد الله (ت ٩٠٣هـ/١٤٩٧م)

تاريخ ثغر عدن، جـ١ تح: منشورات المدينة، صنعاء، طـ٢، ١٩٨٦م.

٩- ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م)

رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار التراث، بيروت، ١٩٦٨م.

١٠- البغوي، الحسين بن مسعود (ت ٥١٦هـ / ١١٢٢م)

شرح السنة ، جـ١-٥ تح: شعيب الأرناؤوط، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٩٨٣م.

١١- بيبرس المنصوري، نائب السلطنة بمصر (ت ٧٢٥هـ/١٣٢٤م)

مختار الأخبار (تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢م). حققه وقدم له ووضع فهارسه: عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٩٩٣م.

١٢-______،

التحفة الملوكية في الدولة التركية (تاريخ دولة المماليك البحرية في الفترة من ٦٤٨هـ-٧١١هـ)، نشره وقدم له ووضع فهارسه: عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٩٨٧م.

١٣- ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م)

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة جـ١-١٦، تح: فهيم محمد شلتوت، الهيئة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٣-١٩٧٢م. ونسخة أخرى: طبعة دار الكتب العلمية، ١٩٩٦م.

١٤-______،

المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، جـ١، ٢، ٤، ٦، ٧، حققها ووضع فهارسها وحواشيها: محمد محمد أمين، وقدم لها: سعيد عبد الفتاح عاشور، جـ٣، ٥ تح: نبيل عبد العزيز، مركز تحقيق التراث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٨٤-١٩٩٣م.

١٥-______،

حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، جـ١، تح: فهيم محمد شلتوت، جمهورية مصر العربية، وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٠م.

١٦-ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م)

رحلة ابن جبير المسماة تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، دار بيروت، بيروت، ١٩٧٩م.

١٧- الجزيري، عبد القادر بن محمد (العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي)

الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، أعده للنشر: حمد الجاسر، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٨٣م.

١٨-الجواليقي، موهوب بن أحمد (ت ٥٤٠هـ/١١٥٠م)

المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم، تح: ف. عبد الرحيم، دار العلم للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ١٩٩٠م.

١٩-ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن (ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م)

المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، جـ ١-١٦، تصحيح: هاشم الندوي وآخرون، حيدرآباد، دائرة المعارف العثمانية، ١٩٣٩م.

٢٠-ابن حاتم اليامي، الأمير بدر الدين (ت٧٠٢هـ/١٣٠٢م)

السمط الغالي الثمن في أخبار من الغز باليمن، تح: ركس سمث، جامعة كمبردج، لندن، لوزاك، ١٩٧٤م.

٢١-ابن حجر، شهاب الدين أحمد (ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م)

الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، حققه وقدم له ووضع فهارسه: محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٦٦-١٩٦٧م.

٢٢-______،

أنباء الغُمر بأبناء العمر، طبع بإعانة: وزارة المعارف الحكومية العالية الهندية، السلسلة الجديدة من مطبوعات دائرة المعارف العثمانية، ٩/١١، تحت مراقبة: محمد عبد المعيد خان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٨٦م.

٢٣-الحمزي، عماد الدين إدريس بن علي (ت ٧١٤هـ/١٣١٤م)

تأريخ اليمن من كتاب كنز الأخبار في معرفة السير والأخبار، دراسة وتحقيق: عبد المحسن المدعج، مؤسسة الشراع العربي، الكويت، ١٩٩٢م.

٢٤-الحموي، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م)

معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.

٢٥-الحنبلي، مجير الدين أبو اليمن القاضي (ت٩٢٨هـ/١٥٢١م)

الأنس الجليل بتأريخ القدس والخليل، مكتبة المحتسب، عمان، ١٩٧٣م.

٢٦-ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي (ت ٣٦٧هـ/٩٧٨م)

صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، مطبعة فؤاد بيبان وشركاؤه، بيروت، د.ت.

٢٧-الخزرجي، علي بن الحسن (ت ٨١٢هـ/١٤٠٩م)

العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، جـ١، عني بتصحيحه وتنقيحه: محمد بسيوني عسل، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٣م. جـ٢: تح: محمد علي الأكوع الحوالي، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ط٢، ١٩٨٣م.

٢٨-ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت٨٠٨هـ/١٤٠٦م)

تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مج٤: تح: دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨١م. مج٥،٦ تح: دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م.

٢٩-ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م)

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر – بيروت، ١٩٦٨-١٩٧٢م.

٣٠-خياط، خليفة (ت ٢٤٠هـ/٨٥٤م)

تاريخ خليفة، تح: أكرم العمري، مطبعة الكتبي، دار العلم – دمشق، ودار الرسالة – بيروت، ط٢، ١٩٧٧م.

٣١-ابن دقماق، إبراهيم بن محمد (ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م)

الجوهر الثمين في سيرة الخلفاء والملوك والسلاطين، تح: سعيد عبد الفتاح عاشور، مراجعة: أحمد السيد دراج، المملكة العربية السعودية ، جامعة أم القرى، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، من التراث الإسلامي، الكتاب (٣٩)، مكة المكرمة، ١٩٨٢م.

٣٢-ابن الديبع، أبي الضيا عبد الرحمن بن علي (ت ٩٤٤هـ/١٥٣٧م)

قرة العيون بأخبار اليمن الميمون، ق٢: حققه وعلق عليه: محمد بن علي الأكوع الحوالي، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ١٩٧٧م.

٣٣-______،

بغية المستفيد في تاريخ مدينة زبيد، تح: عبد الله محمد الحبشي، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ١٩٧٩م.

٣٤______،

الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد، تح: يوسف شلحد، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، دار العودة، بيروت، ١٩٨٣م.

٣٥-ابن رسول، الملك الأشرف عمر بن يوسف (ت ٦٩٤هـ/١٢٩٤م)

طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب، حققه: ك.و. سترستين، مطبوعات المجمع العلمي بدمشق، مطبعة الترقي، سوريا، دمشق، ١٩٤٩م.

٣٦-السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢هـ/١٤٩٦م)

الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، جـ ١-١٢،تحقيق وطبع: أوفست كونروغرافير، بيروت، منشورات دار الحياة، بيروت، د.ت.

٣٧-______،

التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، عني بطبعه ونشره: أسعد طرابزوني الحسيني، مطبعة دار نشر الثقافة، القاهرة، ١٩٧٩-١٩٨٠م.

٣٨-______،

التبر المسبوك في ذيل السلوك، مطبعة بولاق، القاهرة، ١٨٩٦م.

٣٩-______،

وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، جـ ١-٢ تح: بشار عواد معروف وعصام الحرستاني وأحمد الخطيمي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.

٤٠-السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م)

حُسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة جـ١+٢، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٧-١٩٦٨م.

٤١-ـــــــ،

بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تح: محمد أبو الفضـــل إبراهيـم، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٩٦٥م.

٤٢_ ـــــــ،

نظم العقبان في أعيان الأعيان، حرره: فليب حتـــى ، المطبعـة الســورية الأمريكية في نيويورك، المكتبة العلمية، بيروت، ١٩٧٢م.

٤٣- أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل (ت ٦٦٥هـ/١٢٦٧م)

الروضتين في أخبار الدولتين جـ١ +٢تح: مطبعة وادي النيل، القـاهرة، ١٨٧٠م.

٤٤-ابن شاهين الظاهري، غرس الدين خليل (ت ٨٩٣هـ/١٤٨٧م)

زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمســالك، وضـع حواشـيه: خليـل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

٤٥-الشيزري، عبد الرحمن بن نصر (ت ٥٨٩هـ/١١٩٣م)

نهاية الرتبة في طلب الحِسبة، تحقيق ومراجعة: الســيد البــاز العرينـي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٦م.

٤٦-الصيرفي، علي بن داود (ت ٩٠٠هـ/١٤٩٥م)

نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، جـ١-٣ تح: حســن حبشـي، مركز تحقيق التراث، الجمهورية العربية المتحدة، وزارة الثقافة، جمهوريـة مصر العربية، دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٠-١٩٧٣م.

٤٧-ابن عبد الحق البغدادي، صفي الدين بن عبد المؤمن (ت ٧٣٩هـ/١٣٣٨م)

مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق وتعليق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت، ط٣، ١٩٥٤م.

٤٨-ابن عبد الظاهر، محي الدين (ت ٦٩٢هـ/١٢٩٢م)

الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق ونشر: عبد العزيز الخويطر، الرياض، ١٩٧٦م.

٤٩- ـــــ،

تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تح: مراد كامل، مراجعة : محمد البخار، الجمهورية العربية المتحدة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، الإدارة العامة للثقافة، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة ، ط١، ١٩٦١م.

٥٠-ابن عبد المجيد اليماني، تاج الدين عبد الباقي (ت ٧٤٣هـ/١٣٤٣م)

بهجة الزمن في تاريخ اليمن، تح: عبد الله حبشي ومحمد السنباني، دار الحكمة اليمانية، صنعاء، ط١، ١٩٨٨م.

٥١-أبي عبيد البكري، عبد الله بن عبد العزيز (ت ٤٨٧هـ/١٠٩٤م)، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، حققه وضبطه: مصطفى السقاء، عالم الكتب – بيروت، ط٣، ١٩٨٣م.

٥٢-العصامي، عبد الملك بن حسين (ت ١١١١هـ/١٦٩٩م)

سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، المطبعة السلفية ومكتبتها، بيروت، د.ت.

٥٣- العماد الأصفهاني، عماد الدين محمد بن محمد (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م)

سنا البرق الشامي (اختصار الفتح بن علي البنداري من كتاب البرق الشامي ٥٥٢-٥٨٣هـ)، تحقيق: فتحية النبراوي، مكتبة الخانجي، مصر، ١٩٧٩م.

٥٤-ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي (ت ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م)

شذرات الذهب في أخبار من ذهب، جـ١-١٢ تح: ذخائر التراث العربي، المكتب التجاري، لبنان، بيروت، د.ت.

٥٥-العيني، بدر الدين محمود (ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م)

عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان،جـ١-٤ حققها وعلق على حواشيها: محمد محمد أمين، مركز تحقيق التراث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧-١٩٩٢م.

٥٦-الفاسي، تقي الدين محمد بن علي (ت ٨٣٢هـ/١٤٢٨م)

العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، جـ١-٧، تح: فؤاد السيد، جـ٨، تح: محمود محمد الطباخي، طبع على نفقة: محمد سرور الصبان، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٩٦٠-١٩٦٩م.

٥٧-______،

شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، حقق أصوله وعلق حواشيه: لجنة من كبار العلماء والأدباء، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

٥٨-______،

المقنع في أخبار الملوك والخلفاء وولاة مكة الشرفاء، تح: محمد التونجي، دار الملاح للطباعة، ١٩٨٦م.

٥٩-أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن محمد (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م)

تقويم البلدان، اعتنى بتصحيحه وطبعه: رينود مدرس العربية والبارون مال كوكين ديسلان، دار الطباعة السلطانية – باريس، دار صادر، بيروت، ١٨٤٠م.

٦٠-ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت ٨٠٧هـ/١٤٠٤م)

تاريخ ابن الفرات المسمى تاريخ الدول والملوك، جـ٧-٩، تحقيق وضبط ونشر: قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين، المطبعة الأميركانية، بيروت، ١٩٣٦-١٩٤٢م.

٦١-ابن فضل الله العمري، أحمد بن يحيى (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م)

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار "دولة المماليك الأولى"، دراسة وتحقيق: دوروتيا كرافولسكي، المركز الإسلامي للبحوث، بيروت، ١٩٨٦م.

٦٢-______،

التعريف بالمصطلح الشريف، دراسة وتحقيق: سمير الدروبي، عمادة البحث العلمي والدراسات العليا، جامعة مؤتة، الأردن، الكرك، ١٩٩٢م.

٦٣-ابن فهد، النجم عمر محمد بن محمد (ت ٨٨٥هـ/١٤٨٠م)

أتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق وتقديم: فهيم محمد شلتوت، المملكة العربية السعودية، جامعة أم القرى، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، مكة المكرمة، دار المدني، جدة، ١٩٨٤م.

٦٤-ابن فهد، عز الدين بن عبد العزيز (ت ٩٢٢هـ/١٥١٦م)

غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام، تح: فهيم محمد شلتوت، المملكة العربية السعودية، جامعة أم القرى، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث

الإسلامي، مركز إحياء التراث الإسلامي، مكـــة المكرمـــة، مـــن الـــتراث الإسلامي، الكتاب (٤٧)، دار المدني، جدة، ١٩٨٦-١٩٨٨م.

٦٥-ابن الفوطي، كمال الدين أبي الفضل عبد الرزاق (ت ٧٢٣هـ/١٣٢٣م)

الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، دار الفكر الحديـــث للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٧م.

٦٦-الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب (ت ٨٢٣هـ/١٤١٥م)

المغانم المطابة في معالم طابة (قسم المواضيـــع)، تـــح: حمـــد الجاســـر، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، المملكة العربية الســـعودية، الرياض، ١٩٦٩م.

٦٧-ابن القاسم، يحيى بن الحسين (ت ١١٠٠هـ/١٦٨٩م)

غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق وتقديم: سعيد عاشور ومحمـــد زيادة، سلسلة تراثنا، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٨م.

٦٨-ابن قاضي شهبة، تقي الدين أبي بكر بن أحمد (ت ٨٥١هـ/١٤٤٨م)

تاريخ ابن قاضي شهبة مج٢-٣، تح: عدنان درويش، طباعة مشتركة بين: المعهد الفرنسي للدراسات العربية، سورية، دمشق، والجفان الجابي للطباعة والنشر، ليماسول، قبرص، ١٩٩٤م.

٦٩-القزويني، زكريا بن محمد (ت ٦٨٢هـ/١٢٨٣م)

آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، ١٩٦٩م.

٧٠-القلقشندي، أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م)

صبح الأعشى في صناعة الإنشا، جـ٤، ٧، ١٢، شرحه وعلق عليه وقابل نصوصه: محمد حسين شمس الدين، جـ٨، تح: نبيل الخطيب، جـ٥، تح: يوسف الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م.

٧١-______،

مآثر الأنافة في معالم الخلافة، تح: عبد الستار أحمد فراج، عالم الكتب، لبنان – بيروت، د.ت.

٧٢-ابن المجاور، يوسف بن يعقوب (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨-١٢٢٩م)

صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسمى تأريخ المستبصر، اعتنى بتصحيحها وضبطها: اوسكر لوفغرين، ليدن-إبريل، ١٩٥١م.

٧٣- المراغي، ابي بكر بن الحسين بن عمر (ت ٨١٦هـ/ ١٤١٣م)

تحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة ، صححه وحققه: محمد عبد الجواد الأصمعي، المكتبة العلمية، المدينة المنورة، ط١، ١٩٥٥م.

٧٤-المسعودي، علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م)

مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٢، تح: يوسف داغر، دار الأندلس، بيروت، ١٩٧٣م.

٧٥-المقدسي، محمد بن أحمد (ت ٣٨٠هـ/٩٩٠م)

أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩١م.

٧٦-المقريزي، أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م)

السلوك في معرفة دول الملوك، جـ١-٢، قام بنشره: محمد مصطفى زيادة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٧١م. جـ٣-٤، حققها

وقدم لها ووضع حواشيها: سعيد عبد الفتاح عاشور، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٠-١٩٧٢م.

٧٧-______،

درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، لجنة إحياء التراث العربي الكتاب (٩٥)، وزارة الثقافة، الجمهورية العربية السورية، دمشق، ١٩٩٥م.

٧٨-______،

الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، نشر لأول مرة وحققه وعلق على حواشيه وقدم له ووضع فهارسه: جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي بمصر، ومكتبة المثنى ببغداد، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٥م.

٧٩-______،

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مطبعة بولاق، القاهرة، ١٨٥٣م.

٨٠-ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ/١٣١١م)

لسان العرب، دار الفكر – دار صادر، بيروت، ١٩٧٠م.

٨١-مؤلف مجهول،

تاريخ سلاطين المماليك تح: زترستين، بريل – ليدن، ١٩١٩م

٨٢- مؤلف مجهول، (عاش في القرن التاسع/ الرابع عشر الميلادي)

تاريخ الدولة الرسولية ، تح: عبدالله حبشي، تنفيذك دار الجيل-صنعاء ، مطبعة الكاتب العربي، دمشق، ١٩٨٤م.

٨٣-ابن نظيف الحموي، محمد بن علي (ت القرن ٧ هـ/١٣م)

التاريخ المنصوري (تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمـــان)، عنـــي بنشره وتحقيقه: أبو العيد دودو، مراجعة: عدنان درويش، من مطبوعـــات مجمع اللغة العربية بدمشق، مطبعة الحجاز، دمشق، ١٩٨١م.

٨٤-النهروالي، قطب الدين محمد بن أحمد (ت ٩٨٨هـ/١٥٨٠م)

الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ضمن كتاب أخبار مكة المشرفة، جــــ٣، روائع التراث العربي (٢)، مكتبة الخياط، لبنان-بيروت، ١٩٦٤م.

٨٥-النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ/١٣٣٢م)

نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: محمد ضياء الدين الريس، ومراجعـة: محمد مصطفى زيادة، الهيئة المصرية العامة للكتـــاب، القـــاهرة، ١٩٩٠-١٩٩٢م. نسخة أخرى: جـ٢٨، تح: محمد أحمد أميـــن، مركـــز تحقيـــق التراث، القاهرة، ١٩٩٢م.

٨٦- النيسابوري، الإمام الحافظ ابي الحسين مسلم (ت ٢٦١هـ / ٨٧٤م)

صحيح مسلم، رقم كتبة وأبوابه وفهرسه: محمد وهيثم أبناء نـــزار تميـم، شركة الأرقم بن ابي الأرقم لطباعة والنشر والتوزيع، لبنان ، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.

٨٧-الهمداني، الحسن بن أحمد (ت ٣٣٤هـ/٩٤٥م)

صفة جزيرة العرب، قامَ بنشره وتصحيحه ومراجعته وتحقيقه: محمد بـــن عبد الله النجدي، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٥٣م.

٨٨-ابن واصل، محمد بن سالم (ت ٦٩٧هـ/١٢٩٧م)

مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، جـ٢: تح: جمـــال الديـــن الشـــيال، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٧٧م. جـ٤، تح: حسنين ربيع، مطبعـــة دار الكتب المصرية، ١٩٧٢م.

٨٩-ابن الوردي، زين الدين عمر بن المظفر (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م)

تاريخ ابن الوردي، دار الكتب العلمية، لبنان-بيروت، ١٩٩٦م.

٩٠-______،

تتمة المختصر في أخبار البشر، إشراف وتحقيق: أحمد البدراوي، دار المعرفة، لبنان-بيروت، ١٩٧٠م.

٩١-اليافعي، عبد الله بن أسعد (ت ٧٦٨هـ/١٣٤٨م)

مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، وضع حواشيه: خليل المنصور، منشورات محمد بيضون، دار الكتب العلمية للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان-بيروت، ١٩٩٧م.

٤- المراجع العربية الحديثة:

١- الأبيض، أنيس

بحوث في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، دار جروس برس، لبنان، طرابلس، ١٩٩٤م.

٢- أحمد، محمد عبد العال

الأيوبيون في اليمن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، فرع الإسكندرية، ١٩٨٠م.

٣- ــــــ،

بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية في عهدهما، الهيئة المصرية العامة للكتاب، فرع الإسكندرية، ١٩٨٠م.

٤- الأكوع، إسماعيل بن علي

المدارس الإسلامية في اليمن، منشورات جامعة صنعاء (١)، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٠م.

٥- باسلامة، حسين عبد الله

تاريخ عمارة المسجد الحرام، الكتاب العربي السعودي (١٦)، تهامة للطباعة والنشر والتوزيع، السعودية، جدة، ط٣، ١٩٨٠م.

٦- باقاسي، عائشة بنت عبد الله

بلاد الحجاز في العصر الأيوبي، منشورات نادي مكة الثقافي، دار مكة المكرمة، مكة المكرمة، ١٩٨٠م.

٧- بدر، عبد الباسط

التاريخ الشامل للمدينة المنورة، (د.ن)، المدينة المنورة، ط١، ١٩٩٣م.

٨- البقلي، محمد قنديل

التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٣م.

٩- البلادي، عاتق بن غيث

معجم معالم الحجاز، دار مكة المكرمة، مكة المكرمة، ١٩٧٨م.

١٠- ـــــ،

معالم مكة التاريخية والأثرية، دار مكة المكرمة، مكة المكرمة، ١٩٨٠م.

١١- بيضون، إبراهيم

الحجاز والدولة الإسلامية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ١٩٨٣م.

١٢- الجاسر، حمد

بلاد ينبع، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، ١٩٦٥م.

١٣- جرادات، وليد محمد

الأهمية الاستراتيجية للبحر الأحمر بين الماضي والحاضر، دار الثقافة للنشر والتوزيع، قطر، الدوحة، ط١، ١٩٨٦م.

١٤- جرجس، إجيه يونان

البحر الأحمر ومضايقه بين الحق العربي والصراع العالمي، مكتبة غريب للطباعة، القاهرة، ١٩٧٧م.

١٥- حته، محمد كامل

في ظلال الحرمين، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧م.

١٦- الحداد، محمد حمزة

السلطان المنصور قلاوون، صفحات من تـــاريخ مصـــر (٢٢)، مكتبـــة مدبولـــي، القاهرة، ١٩٩٣م.

١٧- حسن، علي إبراهيم

تاريخ المماليك البحرية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٣، ١٩٦٧م.

١٨- حسين، جميل حرب

الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، دار تهامة للطباعة والتوزيع، الكتاب الجـــامعي (٣٠)، السعودية، جدة، ط١، ١٩٨٥م.

١٩- حلمي، إبراهيم

كسوة الكعبة المشرفة وفنون الحجـــاج، عيـــن للدراســـات والبحـــوث الإنســـانية والاجتماعية، الرياض، جودن ستار للطباعة، الرياض، ط١، ١٩٩٤م.

٢٠- حمادة، محمد ماهر

الوثائق السياسية والإدارية العائدة للجزيرة العربية خـــلال العصـــور الإســـلامية المتتابعة (٤٠-٩٢٢هـ/٦٦-١٥١٦م)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٧م.

٢١- حمزة، فؤاد

قلب جزيرة العرب، مكتبة النصر الحديثة، السعودية، الرياض، ط٢، ١٩٦٨م.

٢٢- الخطيب، مصطفى عبد الكريم

معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيـــع، بيروت، ١٩٩٦م.

٢٣- دحلان، أحمد بن السيد زيني

خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام، مكتبة الكليـات الأزهريـة، القـاهرة، ١٩٧٧م.

٢٤- _____،

أمراء البلد الحرام، الدار المتحدة، بيروت، ١٩٨١م.

٢٥- رجب، عمر الفاروق

الحجاز – أرضه وسكانه، دار الشروق للطباعة، السعودية، جدة، ١٩٧٩م.

٢٦- رفعت، إبراهيم

مرآة الحرمين، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٥م.

٢٧- الزركلي، خير الدين

الإعلام، بيروت، ط٣، ١٩٦٥م.

٢٨- الزيلعي، أحمد عمر

مكة وعلاقاتها الخارجية (٣٠١-٤٨٨هـ)، عمـادة شـؤون المكتبـات، جامعـة الرياض، الرياض، ١٩٨١م.

٢٩- سالم، السيد عبد العزيز وأحمد مختار العبادي

تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، مؤسسة شباب الجامعـة، الإسـكندرية، ١٩٩٣م.

٣٠- سالم، السيد عبد العزيز

البحر الأحمر في التاريخ الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٣م.

٣١- السباعي، أحمد

تأريخ مكة، مطبوعات نادي مكة المكرمة الثقافي، الكتاب (٦)، مكة المكرمة، ١٩٨٤م.

٣٢- سرور، محمد جمال الدين .

دولة بني قلاوون في مصر، دار الفكر العربي ، مطبعة الاعتماد، مصر، ١٩٤٧م.

٣٣- ـــــ،

سياسة الفاطميين الخارجية، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٦م.

٣٤- سعيد، إبراهيم حسن

البحرية في عصر سلاطين المماليك، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣م.

٣٥- سيف، محمود محمد

جغرافية المملكة العربية السعودية، دار المعرفة الجامعية للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، ١٩٩٦م.

٣٦- الشريف، أحمد إبراهيم

دور الحجاز في الحياة السياسية العامة في القرنين الأول والثاني للهجرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٢، ١٩٧٧م.

٣٧- شهاب، حسن صالح

عدن فرضه اليمن، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ١٩٩٠م.

٣٨- الظاهر، خالد خليل وآخرون

نظام الحسبة، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٧٩م.

٣٩- عاشور، سعيد عبد الفتاح

الظاهر بيبرس، مكتبة مصر للثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية للثقافة والترجمة والطباعة والنشر، مطبعة مصر، ١٩٦٣م.

٤٠- ـــــــ،

العصر المماليكي في مصر والشام، القاهرة، ١٩٦٥م.

٤١- ـــــــ،

مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٢م.

٤٢- عبد السيد، حكيم أمين

قيام دولة المماليك الثانية، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٧م.

٤٣- عبد الغني، عارف

تاريخ أمراء مكة المكرمة (من ٨هـ-١٣٤٤هـ)، دار البشائر، دمشق، ١٩٩٢م.

٤٤- العقيلي، محمد بن أحمد

تاريخ المخلاف السليماني، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، ط٢، ١٩٨٣م.

٤٥- العلي، صالح أحمد

الحجاز في صدر الإسلام، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ١٩٨٠م.

٤٦- علي، جواد

المفصل في تاريخ العرب قبل الأسلام، دار العلم للملايين، مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٧٠م.

٤٧- أبو العلا، محمود طه

جغرافية شبه جزيرة العرب، مؤسسة سجل العرب، مطابع سجل العرب، القاهرة، ط١، ١٩٧٢م.

٤٨- العمادي، محمد حسن

التجارة وطرقها في الجزيرة العربية بعد الإسلام حتى القرن الرابع الهجري، مؤسسة حمادة للطباعة والنشر والتوزيع، إربد، ١٩٩٧م.

٤٩- الغنيم، عبد الله يوسف

جزيرة العرب من كتاب المسالك والممالك لأبي عبيد البكري، ذات السلاسل للطباعة، الكويت، ١٩٧٧م.

٥٠- غوانمة، يوسف حسن

أيله (العقبة) والبحر الأحمر وأهميتهما التاريخية والاستراتيجية، دار هشام للنشر والتوزيع، إربد، ١٩٨٤م.

٥١- ـــــ،

التاريخ الحضاري لشرقي الأردن في العصر المملوكي، دار الفكر، عمان، ط٢، ١٩٨٢م.

٥٢- ـــــ،

التاريخ السياسي لشرقي الأردن في العصر المملوكي، دار الفكر، عمان، ط٢، ١٩٨٢م.

٥٣- ـــــ،

نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، دار الحياة، عمان، ١٩٨٢م.

٥٤- ـــــ،

الحسين بن علي الملك والثائر، دار الفكر، عمان، ١٩٩٥م.

٥٥- ــــــ،

أمارة الكرك الأيوبية، دار الفكر، ط٢، عمان، ١٩٨٢م.

٥٦- الفوزان، إبراهيم فوزان

إقليم الحجاز وعوامل نهضته الحديثة، الرياض، ١٩٨١م.

٥٧- فهمي، نعيم زكي

طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب في أواخر العصور الوسطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣م.

٥٨- قاسم، قاسم عبده وآخر

الأيوبيون والمماليك، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الرياض، ط١، ١٩٩٥م.

٥٩- المالكي، سليمان عبد الغني

بلاد الحجاز منذ بداية عهد الأشراف حتى سقوط الخلافة العباسية في بغداد، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ١٩٨٣م.

٦٠- محمد، صبحي عبد المنعم

العلاقات بين مصر والحجاز زمن الفاطميين والأيوبيين، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٢م.

٦١- معروف، ناجي

المدارس الشرابية ببغداد وواسط ومكة، مطبعة الإرشاد، بغداد، ط١، ١٩٦٥م.

٦٢- مورتيل، ريتشارد

الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، الرياض، مطابع جامعة الملك سعود، الرياض، ١٩٨٥م.

٥ -المراجع الأجنبية المترجمة:

١- خورشيد، إبراهيم وآخرون

دائرة المعارف الإسلامية، يشرف على تحريرها: الاتحاد الدولي للمجامع العلمية العربية، كتاب الشعب، مطبعة الشعب، د.ت.

٢- زامباور، أداورد

معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، أخرجه: زكي محمد حسن وآخرون، أختارته وانفقت على ترجمته: الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية، مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة. ١٩٥١م.

٣- متز، آدم

الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة: محمد أبو ريده، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط٢، ١٩٤٧م.

٤- موير، وليم

تاريخ دولة المماليك في مصر ، ترجمة: محمود عابدين وسليم حسن ، القاهرة، ١٩٢٤م.

٥- هنتس، فالتر

المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها بالنظام المتري، ترجمة عن الألمانية : كامل العسلي، دليل الاستشراق يتولى إصداره بيرتولد ثيول ، المجلد الملحق (١)، الكراس (١)، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٧٠م.

٦- ويستنفلد، ف

جدول السنين الهجرية بلياليها وشهورها بما يوافقها من السنين الميلاديـــة بأيامـــها وشهورها، ترجمة: عبد المنعم ماجد وعبد المحســـن رمضـــان، مكتبـــة الأنجلـــو المصرية، القاهرة، (د.ت).

٧- الدوريات العربية:

١- حسين، عبد الله محمود

طرق الحج والتجارة عبر العصور، مجلة التضامن الإسلامي، س٤٩، ع١، وزارة الحج- السعودية، مكة المكرمة ، ١٩٩٤، ص ص٣٧-٤٤.

٢- الزيلعي، أحمد عمر

نظام المشاركة في الحكم لدى أشراف مكة (٦٤٧-٩٢٣هـ/١٢٤٩-١٥١٧م)، مجلة الدارة، س١٤، السعودية، الرياض، ١٩٨٩م، ص ص٦١-٨٨.

٣- سعيد، حسين إبراهيم

الصراع حول السيطرة على البحر الأحمر (العلاقات اليمنية المصرية في عصر سلاطين المماليك)، بحث ألقي في الندوة العلمية حول اليمن عبر التاريخ المنعقدة في اليمن (ج.ي.د.ش)، عدن ٢٣-٢٥ سبتمبر ١٩٨٩م، ص ص١٥٥-١٧٠.

٤- الصائدي، أحمد قايد

لمحة عن العلاقات اليمنية المصرية عبر التاريخ، مجلة كلية الآداب، جامعة ، ع١٠،صنعاء، ١٩٨٩م، ص ص٩-٤١.

٥- عنقاوي، عبد الله عقيل

مكة في عهد الشريف قتادة الحسني (٥٩٧-٦١٧هـ)، مجلة كلية الآداب، جامعة الملك سعود، مجـ١٢ ع١، السعودية، الرياض ، ١٩٨٥م، ص ص٧٩-١١١.

٦- غوانمة، يوسف حسن

العلاقات التجارية بين أيلة (العقبة) وعدن في العصر الإسلامي، بحث ألقي في الندوة العلمية حول اليمن عبر التاريخ، المنعقدة في اليمن (ج.ي.د.ش)، عدن ٢٣-٢٥ سبتمبر، ١٩٨٩م، ص ص٦-٢٠.

٧- الوهيبي، عبد الله

الحجاز كما حدده الجغرافيون العرب، مجلة كليـــــة الآداب، جامعـــة الريـــاض، ، مجـــ١، س١، الرياض، ١٩٧٠م، ص ص٥٣-٧٠.

الملخص

هدفت هذه الدراسة إلى إلقاء الضوء على جانب هام من جوانب تاريخ الحجاز السياسي والحضاري الذي لم ينل الاهتمام الكافي من قبل الباحثين.

وقد قسمت الدراسة إلى مقدمة وستة فصول وخاتمة، فقد تناولت المقدمة أهمية البحث ومنهج الدراسة وعرض لأهم المصادر.

فكان الفصل الأول دراسة تمهيدية تاريخية وجغرافية واستراتيجية ودينية، بدءاً بالتسمية والطبوغرافية التاريخية، والأهمية الاستراتيجية والدينية.

وتناولت في الفصل الثاني الحديث عن الأحوال السياسية في الحجاز في العصرين الأيوبي والمملوكي.

وجعلت الفصل الثالث للحديث عن الصراع بين دولة المماليك والرسوليين في بلاد الحجاز فعددت أسباب الصراع ونتائجه ودور أشراف مكة فيه.

وفي الفصل الرابع تناولت الحديث عن الإدارة في عصر دولة المماليك، فعرضت للوظائف الإدارية والدينية والعسكرية.

والفصل الخامس خصصته للحديث عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الحجاز، حيث تطرقت فيه إلى التجارة والزراعة في بلاد الحجاز، وأنهيته بالحديث عن فئات المجتمع الحجازي وعاداته وتقاليده وملابسه وأطعمته وأشربته.

أما الفصل الأخير فقد خصصته للحديث عن الحركة العلمية والثقافية في الحجاز فعددت المؤسسات العلمية فيه، وأهم العلماء الذين برعوا في مجال العلوم اللغوية والدينية والأدبية والعقلية من أهل المنطقة.

وتبين لنا من الدراسة ما يلي:-

١- قدسية الحجاز عند مسلمي العالم عبر العصور.

٢- وجود دوافع وأسباب سياسيَة واقتصادية ودينيةٍ وراء الصـــراع المملوكـــي الرسولي على الحجاز.

٣- فشل محاولات سلاطين بني رسول لإعادة نفوذهم إلى الحجاز.

٤- تحول الحجاز إلى ولاية مملوكية تابعة لسلطانِ المماليك في مصر.

٥- كان لقدوم القوافل التجارية من مختلف بقاع العالم إلى الحجاز دوراً بارزاً في انتعاش الحياة الاقتصادية فيه.

٦- ساهمت الصدقات المصرية في إخراج الحجاز مـــن الأزمـــات الاقتصاديـــة الخانقة وموجات الجوع التي مرّ بها أهل الحجاز وحجاجه.

٧- تأثر المجتمع الحجازي بالعادات والتقاليد في المجتمع المصري فـــي عصـــر المماليك.

نشطت الحركة العلمية والثقافية في الحجاز سواء بوفود العلماء إليه من خارجـــه لعقد الحلقات العلمية في مواسم الحج والعمرة والتدريس في مدارسه، أو بالعلماء الذين برعوا من أهل الحجاز في مختلف الميادين العلميـــة وتقلـــدوا المنـــاصب الرفيعة فيه.

Abstract

Rusulions and Mamelukes in Al- Hijaz
626-858 H. (1229- 1454 A.D.)

by
Hassan Mahmoud Hassan Magableh

Supervised by:
Prof. Dr: Yousef Chawanmeh

This study aims to focus on a significant part of the cultural and political history of Al-Hijaz, which did not gain enough consideration by researchers.

The study is classified into an introduction, six chapters and a conclusion. The introduction handles the significance of the research, the methodology of research and a review of the most important resources.

Chapter one is an introductory, historical, Geographical, strategically and religious study , starting with naming and historical topography in addition to the religious and strategical importance.

Chapter two is about the political conditions in Al- Hijaz in both Mamlukes and Ayubides epoches.

Chapter three talks about the struggle between the state of Mamelukes and Rusulied in Al- Hijaz countries, so I mentioned the reasons and the results of the struggle in addition to the role of Macca`s sheriffs in this area.

Chapter four talks about administration in the age of Mamelukes state, so I reviewed it`s military, religious and administrative occupations.

I specified chapter five to talk about the social and economical life in Al-Hijaz. Then I continued to talk about the

categories of Al-Hijaz society, its habits, its tradition, its customs, its food and its drinks.

The last chapter talks about scientific and cultural movement in Al–Hijaz. So I mentioned its scientific foundations and the most important scientists who were skillful at the fields of rational, literary, religious and lingual sciences from this region.

The results of this study are the following:

1-the holiness of Al-Hijaz to the worlds Muslems through ages.

2- The existence of motives and religious, economical and political reason beyond the Egyptian- Yemeni struggle for Al-Hijaz.

3- Failing of Rusulion sultan's attempts to regain their power in Al-Hijaz.

4- The transformation of Al-Hijaz in to a Mameluke state adherent to the sultan of mamelukes in Egypt.

5-The coming of trade caravans from all over the world to Al-Hijaz played a significant role in the revival of the economical life.

6-Egyptian charities contributed in taking al-Hijaz out of the economical crisis and hunger waves which the citizens and pilgrimages of Al-Hijaz went through.

7-Al- Hijaz society was influenced by traditions and habits of the Egyptian society in the Mamelukes aged.

8-The cultural and scientific movement in al-Hijaz was activated whether by the coming of scientists from out side to conduct scientific courses in the seasons of pilgrimage and educating in its schools or by Hijazi scientists who were skillful in different scientific fields and who were of high dignitaries.